كليوباترا

تأليف :

إميل لودفيغ

ترجمة :

عادل زعيتر

الكتاب: كليوباترا

تأليف : إميل لودفيغ

ترجمة : عادل زعيتر

الطبعة: ٢٠١٦

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

زعيتر ، عادل

كليوباترا – تأليف : إميل لودفيغ – ترجمة : عادل زعيتر
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
.. ص ، .. سم .
الترقيم الدولى: ٨ – ٢٦٣– ٤٤٦ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٢٨٤٢ / ٢٠١٦

كليوباترا





مقدمة المترجم

نقلت لنابغة الأدب في الغرب، إميل لودفيع، كتابيه "النيل والبحر المتوسط"، وكان المؤلف قد وضع بين هذين السفرين الجليلين كتاب "كليوباترة"، وكليوباترة هي الملكة البطلمية المصرية التي كان الشمال سيتغرق ذهنها، فيصورها المؤلف طامحة إلى ما وراء البحر من بلاد اليونان والرومان، فيكون هذا الكتاب، إذن، متمماً للنيل والبحر المتوسط، وحلقة وصل بينهما.

والمؤلف قد أبصر قلة الأسانيد حول كليوباترة، فرأى أن يملأ هذا النقص مستعينا بعلم النفس وبأصح كتب التاريخ ملتزما جانب نجوى الذات وحركات الروح، مصورا في شخص كليوباترة إما عاشقة أو ومحاربة وملكة، فجاء كتابه هذا منقطع النظير.

ومما يزيد هذا الكتاب قيمة اشتماله على سيرة لأبطال كليوباترة الثلاثة، قيصر وأنطونيوس وأكتافيوس الذين كان لهم مقام عريض في التاريخ العام، وذلك بالمقدار الذي يلائم حياة هذه الملكة.

فكتاب جامع لهذه المزايا يكون، لا ريب، ممتعا نافعا، وأهلا بأن يسد فراغا في عالم الأدب العربي، وهذا ما حملني على ترجمته، راجيا أني نيل موقع الرضا من القراء.

(نابلس) **عادل زعيتر**

مقدمة المؤلف

"يظهر العباقرة من الحقل الأدبي، فيكون لهم فعل العوامل الطبيعية كالماء والنار" (غوتة)

لاقيتها على ضفاف النيل أخيرا، غير أن الشمال كان يستغرق ذهنها كله، فتظل مصر غريبة عنها تقريبا، ويظل "إقليمها" هناك، على الشاطئ الآخر، فتخفق ريح بحرية في تاريخها.

وتكاد هذه السيرة تكون خالية من الأسانيد بين جميع السير التي ألفتها، فأجدني مضطرا إلى الاعتياض هنا من الوثائق الصميمية، كالرسائل والمذكرات و"المحادثات"، التي أجمعها إجمالا لإظهار صاحب سجية على ضوئة الخاص وضوء أصدقائة وأعدائة، وقد ضاعت كتب كليوباترة الغرامية، ولم يبق شيء من صحائف قيصر وأنطونيوس الشخصية خلا ما وجد من ثلاث جمل لأنطونيوس، ومن الكتاب نفسه!.. وإذا كانت حياة الملكة العامة قد وصفت وفق رواية صحيحة لدور قصير فلا يزال تحت النظر، لأن الرومان الثلاثة الذين ربطت حياتها بهم من رجال تاريخ العالم.

ومع ذلك فإن الصفات الخلقية التي يمكن أن تبرز حولها من نحو ست من القدماء، تكفي لنيل مثال حي عنها، وقد أكمل هذا الرسم بتمثال نصفي صادق لها على الأقل، وأستاذي بلوتارك [١] على الخصوص هو الذي أتبعه هنا خطوة خطوة للمرة الأولى من عملي، وإذا كنت ابنا للبحر المتوسط وتلميذا للقرون القديمة نتيجة لعرقي وحياتي وثقافتي فلم أصور أكابر الأغارقة في غير الدرامات، لا في التراجم.

وأرى ما ألفه المحدثون من قصص أهلا للإهمال بجانب ما تركه لنا القدماء من أحاديث خالصة صافية، فلم أقرأ منه منتفعا بغير تاريخ الرومان الكبير لفريرو[٢]، وكتابي ستاهر وفيغال الجميلين عن كليوباترة [٣]، ويبقى بلوتارك عصريا أكثر منهم، ويقول بلوتارك إن جده بلغ من طول العمر ما علم معه سر بعض المشويات من رئيس طهاة أنطنيوس، فتؤثر هذه الجزئيات في أكثر بدرجات مما يؤثرة تحاور عالمين يتلاومان على شدة تصديق سويتونيوس[٤] وقلة تصديق أبيان[٥].

وما وجدت من نقص في الأسانيد النفسية أباح لي التزام نجوى الذات، ووصف حركات الروح بحرية أعظم مما تسوغه كثرة المصادر عند وجودها، ولما بدأت تاريخي عن غوتة في سنة ١٩١٩ فلزمت سبيلا جديدا في ترجمته، ورجعت أحيانا إلى مبدأ مناجاة الإنسان نفسه، ومثل هذا ما صنعت في كتابي

---

[١] بلوتارك: مؤرخ يوناني (١٢٥ – ٥٠ ق.م).

[٢] فريرو / مؤرخ إيطالي (١٨٧١ – ١٩٤٢).

[٣] سنة ١٨٦٤ وسنة ١٩٢٧.

[٤] سويتونيوس: مؤرخ روماني "حوالي سنة ٦٩– حوالي سنة ١٤١".

[٥] أبيان مؤرخ يوناني ظهر في القرن الثاني بعد الميلاد، وله تاريخ ذو قيمة عن الرومان.

"نابيلون"، ثم لم أعد إليه في كتبي الأخيرة قط، بيد أن ما ترى من عدم الوثائق النفسية على الإطلاق يجعل هذا المنهاج أمراً مستحباً هنا، وهذا إلى ضمان صحة الصنيع في كل موضع، وهذا إلى أن بلوتارك نفسه لم يبلغ ما كان يرغب في تنورة من المشاعر بغير طريق الاستنباط، ومع ذلك فإننا لا نبصر متعة في أية معركة، أو أية خصومة حزبية، وقعت في ذلك العصر، فالمشاعر، والمشاعر نفسها هي ما عندنا في كل زمن، وبالمشاعر نجد وجهنا في وجوه الماضي هؤلاء.

وهكذا نقف عند حد القصة الروائية، ولن نجاوزه، وذلك لأنني استغنيت في هذا المكان، كما في غيره، عن كثرة المحاورات التي تدوي في أذن مستمع حمس عندما ينصت لقصة، وقد سرت على غرار قدماء الكتاب في الأمور المسرحية، وقد بدوت أبعد منهم وسواساً، وتنطوي مصادري على نصوص حرفية نادرة لما وضعته على لسان أعياني.

إذن، تكون هذه القصة قد خصصت كلها لتاريخ بطلتي ولرومانها الثلاثة النفسي، ومن الطبيعي ألا تجد فيها صورة الولوع الكبرى التي رسمها الأسطورة من كليوباترة غير ناظرة إلى المصادر القديمة، بل ترى فيها صورة عاشقة وأما ومحاربة وملكة وليكن قرابي بعيدين من مسائل الشكل، وليتفضلوا بعده مفرما جديدا لتاريخ الفؤاد البشري الذي ما فتأ يشغل بالي منذ ثلاثين سنة.

موشيا، ١٩٣٧ لودفيغ

الفصل الأول

أفروديت [1]

"للمرأة كسب باستعارتها من الرجل، فهي
إذا ما أضافت النجدة إلى مزاياها الأخرى أوجدت
امرأة جديدة لا يعرف الخيال ما هو أكمل منها".
(غوته)

[1] أفروديت: الإلهة الجمال كما جاء في الأساطير.



١

هنالك في الأعلى، تحت ظل العمد، عند نافذة مفتوحة تنظر إلى البحر أميرة ابنه للحادية عشرة من سنيها، وهنالك تظل مشتبكة اليدين خلف الرأس بين خصل شعرها الأسود والجدار الرخامي جالسة على كعبي خفها كالأولاد، لابسة قميصها الحريري الأصفر، وهو كل ما كانت ترتدية تقريبا، فينفخ النسيم هذا الحرير الأصفر حول نهديها النابرين، ويقدر عمر هذه الفتاة بخمس عشرة سنة في الشمال، ولكننا في بلد من بلاد البحر المتوسط وقع على شاطئ إفريقي، أى في قصر بالإسكندرية.

هي غير طويلة، هي خفيفة جدا، وهي إذا ما عن لها أن تثب من مكانها وصل الحصي، الجالس القرفصاء على البلاط، متأخرا لمساعدتها، وذلك لمجاوزتها الباب قبل وصوله ما دامت رشيقة غير ثقيلة، وهو يستطيع أن يرقبها من بين الظل وأن يتصور عدم رؤيتها إياه، وياله من ضلال! لا شيء حول الأميرة الصغيرة يفوتها، فهي مع نظرها بعينها العسليتين، بعيداً إلى الشوارع الكبير الذي يضاعف المنار تبصر نظرة العبد الندية وتمير حفيف الحرير الذي يداعب ظهره الأسود، وهي تسخر مما يشعر به، فهو ليس رجلا، بل عبد، بل حيوان، وهي تشم رائحة القطران أيضاً، فقد علقت تحت نافذتها حبال رطيبة ربط بها عشاء مركب نزهتها.

ويظل نظر العبد القلق الساكن الخائر الدامع شاخصا إلى الأميرة، (والأميرة بيضاء كما يرى العبد، وأختها برنيقة صفراء، وأبوها الملك أسمر تقريبا، ولكنها لا تبقى بيضاء، فسوف تتلون بفعل الغرام والخمر، ولم يختلج أنفها؟ هي تسائل نفسها عن سم أختها، هذا معروف أصنعه لها في الحال إذا ما ركنت إلى صوتها وحده يجعلك مجنونا مثل أبي يوم قتل أخا جد هذه الفتاة، وأخيرا قطع رأسه.. ولكن ألا تحضرنا الوفاة ذات يوم...؟)، ويظل نظره شاخصاً إلى الأميرة. وهي ما فتئت تنظر إلى البحر ساكنة واضعة يديها وراء عنقها جالسة على كعبيها الصغيرين، فإذا ما عرفت شراع أبيها أنهى أسرها، ولكن هل من المحتمل أن يكون هذا الأب الملك قد قتل منذ زمن في رومة أو في السفينة؟ غداً قد يأتي شراع لاتيني بروماني إلى الميناء عابس لابس قميصا قصيرا متقلدا سيفا صغيراً فيخلع أخت كليوباترا اللعينة وينقذ هذه باسم أبيها.

"وترى الأميرة أن كل خير وكل شر يأتيان من رومة، ولم يأتيان من رومة؟ أولم تتوجه سفن مصر الشراعية الطويلة إلى مرافئ شبه الجزيرة، إيطالية، في كل ربيع؟ لم يحط أجمل النسخ والجمست [١] الساطع، الذي ينطوي على سر ديونيزوس [٢]، والعنبر الذهبي والمسك واللبان وكل ما يصل إلى الميناء هنا إلا ليرسل إلى رومة على سفن شراعية محلية طويلة، وماذا يعطي هؤلاء الرومان ثمنا لذلك؟ يجب على الملك في كل عامين أو ثلاثة أعوام أن يستخرج سبائك ذهبية عظيمة، وأن يشحن المراكب بها، وليرسل ألف منا [٣] إلى رومة زيادة على ذلك! وكلما شروا أدينا إليهم، ولماذا؟ ولماذا؟

---

[١] الجسمت: نوع من الحجارة الكريمة.

[٢] ديونيزوس: هو الاسم اليوناني لإله الخمر باخوس.

[٣] المنا: كيل أو ميزان يساوي رطلين من الذهب أو الفضة.

"وها هو ذا الدي هنالك، في إيطالية، عند بونبي، يساوم حول تاجه منذ عامين، وعليه أن يؤدي ليحفظه! ومن هم، إذن، هؤلاء الناس الذين لا يسمع منهم غير المطالب والوعيد؟ وهذا هو يونبي [1] الكبير مصور على دراهم الرومان، فيا لرأسه العامي! ويلوح قيصر [2] الآخر، أحسن منه، ولكن من يستطيع أن يقول ذلك؟ لم تر نقوده بعد، أولئك حديثو نعمة، ولسوا غير هذا، أولئك تجار أو أصحاب حظ! وأما نحن الآتون من الإسكندرية، وأما نحن الذين هم من آل الملوك منذ ثلاثة قرون، وأما نحن أبناء الآلهة وممثلوها في الأرض، فيجب علينا أن نتسول في رومة ليسمح ببقائها في قصرنا!.. وإليك مركب بر يمر بجانب الرصيف، إليك هذا المركب الذي لا يوفون ثمن ما يحمل!.

وتدلك الأميرة حقيقة الأمر بغتة، فقد أبصرت رأس أبيها، أبصرت هذا الوجه المنتفخ، وقد أدركت سلوكه القبيح حتى في صميم عاصمته، فيا لعدم الكرامة! ويا لهذا الملك الذي يجلس بجانب المهرجين ويزمر على قارعة الطريق إرقاصا لعبيده! وهل وجد سري لم يره يتمايل في الشوراع؟ ومن هي المرأة التى لم تضطر إلى ضرب أصابعه لمسه صدرها؟ وهل من العجب أن يخلع في نهاية الأمر بعد كثير من الفضائح وأن تنصب في مكانه؟.. وابنته الكبرى رينيقه.. قد خرجها، وهو النغيل، على زنجية ما!.. "السم!"، وهذا ما فكرت فيه الأميره ككثير من البطالمة، وقد سم أحد البطالمة أمه ! وقد خنق بطليموس الرابع [3] أخيه وأخته، وكلما حدث معلم كليوباترة في درس التاريخ عن موت أحد البطالمة

---

[1] بونبي: الكبير: قائد روماني (١٠٧– ٤٨ ق.م).

[2] قيصر: هو القائد والحاكم المطلق الروماني يوليوس قيصر (١٠١ – ٤٤ق.م).

[3] بطليموس الرابع : ملك مصر بين السنتين (٢٤٧ و ٢٢٢ ق.م.)

فجأة كان ذلك نتيجة مؤامرة، ولا يتطرق الوهم إليها في ذلك، فلديها مصادر أخرى.

"ولا تزال تفكر في أن لها أبا ملكا مشعوذا! في أن لها أما توارت فلا يعرف أحد عنها شيئا، في أن لها أختا ملكة عاهرة!"، وبعد هذا كيف يمكن الشعب والعبيد أن يظلوا معتقدين كون الملك صورة حية لأمون [١]، صفيا لفتاح [٢] عند ذهابه إلى المعبد لابسال بزته الأرجوانية واضعا الصل [٣] الملكى على الجبين؟ أو يمكن الأدباء أن يستمروا على تعظيمه فيما يكتبون بعد أن هدد الحكيم ديمتريوس الذي ملأ جاهه العلم كله، بالقتل إذا لم يشكر في الشارع من فوره.

وها هو ذا يمتريوس، فيالحنو جبينه الجميل! يخيل إلى الناظر إنه يريد مس الأرض! هو خير من يتكلم اليونانية في المصر بأسره، هو يعرف أمورا كثيرة عن الآلهة! هو يعرف أمورا كثيرة عن العناصر! وهو إذا ما حادث تلميذه بصوته العذب سألت نفسها عن كون الروح أثمن من التاج في الحقيقة كما علما الفليسوف اليهودى، ولكنها تبتسم بعدئذ عن عدم اعتقاد ذلك.

ومع ذلك يجب أن يعلم الجميع ماعرفه الأغارقه ليماثل الإنسان ذات يوم، قوم الرومان الذين لا يعرفون غير القتال! تأتى كل حكمة وبهجة من أثينة، هذا ما يعلمها إياه الأدباء الثلاثة الذين جاءوا القصر في هذا الصباح، وهذا ما يعلمها إياه الأدباء الثلاثة الذين جاءوا القصر في هذا الصباح، وهذا لأنها بلغت من التعطش إلى العلم ما لا يرويه شيء، وهي تتعلم أكثر مما تم لأبيها ولإخوتها الصغار وأختها الكبري، ويعرف جميع الأدباء أن القصر يضم، للمرة الأولى منذ

---

[١] أمون : إلة الشمس لدي قدماء المصريين .

[٢] فتاح : إله مصر الذي كان يعبد في منفيس في أقدم القرون .

[٣] الصل : الحية.

مائة سنة، أميرة راغبة في معرفة كل شيء فتفهم وتحفظ ما يعلمونها إياه في القاعة الكبرى من الرسم والآلات، أى الميكانيكا وإنشاء السفن، ومن الهيكل العظمي والجسم البشري، ومن النقود التي تتعلم منها جميع الهيئات فضلا عن ست من لغات البحر المتوسط، وتجد أعظم متعة في وقوفها أمام خريطتها الكبيرة ورسمها على هذه الخريطة حدا وهميا بظفرها، أى بيدها التي لا ترتعش مطلقاً، وتشد شفتيها، وتنطلق من الدلتا وتحيط بسورية وكيدوكية [١]، وإبرية [٢] وتشمل برنديزي [٣] أيضاً، وتدع إيطالية جانياً، وتنزل إلى الجنوب حتى مدينتها توا، كما لو كانت تريد أن تضم إلى وطنها شرق البحر المتوسط بأسره، أى أن تجعل هذه السواحل كلها خاضعة لمصر! وروما وحدها هي التي لا تلحقها أبداً.

ومع ذلك فإن مصر ليست غير اسم في نظرها، فهي لا تعرف النعيل الأعلى أحسن مما يعرفة آباؤها، وهي لا تقاسم مصر ثقافتها، وهي لا تعبد آلهتها، وهي لا تعد النيل غير نهي أجنبي لا يرى من هنا، من البحر القريب القعر الكثير الجزيرات، من الهور [٤] القريب من بحيرة موريس، وتعود الإسكندرية عندها غير واقعه على ضفاف النيل كمنفيس، بل على شاطئ البحر الإغريقي، وبالإغريق تحلم الأميرة، اليونانية هي ما تتعلم الأميرة، واليونانية هي ما تستعين به على إيضاح أفكارها، والأغارقة منهم آباؤها، والإغريقية تهيمن على مباني الميناء وضوضاء المرفأ، حيث يختلط مائة عرق ومائة لغة، وإذا ما جازت القصر ورداهة الرنانة برجليها اللتين لا تكاد تمس بهما الأرض، أبصرتها تماثيل البطالمة النصفية

---

[١] كبوكية: بلدة بآسيا الصغرى واقعة غرب أرمينية.

[٢] إبرية: منطقة بلاد اليونان الحبلية الواقع جنوب مقدونية.

[٣] برنديزي: من مدن جنوب إيطالية.

[٤] الهور: البحيرة تجري إليها مياه غياض وآجام فتتسع.

العاطلة من الأنف الكلاسي لا ريب، ولكن مع تذكير طرازها، دوماً، بهذا الإسكندر الذي نزل إلى صحاري الشاطئ فقضى بإنشاء عاصمة العالم، أولاً تزال الإسكندرية عاصمة العالم؟

وتصعد الأميرة في شرفة القصر، ومن يدري أنه يرى من هنالك بعد ما يرى من المنار، حتى قبرس وأثينة؟ حتى رومة أيضاً على ما يحتمل! وتحلم السفن بالمرسى، وتحلم السفن بوسقها وزجاجها وترديها وجريها في البحر ذي الزرقة وبالميناء القريب وبالأيدي التي تجذبها بالحبال فتحط حملها مع صوت كالهزيم، وتحلم السفن بحياتها الحائرة وبمعضلة العواصف التي تنتظرها لتحطمها، وهذا السفن هي رسل الشعوب وحملة الحنطة، ونقله الحرب والسلطة، وهذه السفن لا تنفك تسير مع الخطر ما بليت عفناً إذا ما تأخرت في المرفأ.

وتتبع الأميرة أثر سير تلك السفن، ولكنها لا تحلم معها، ويقول لها قبلها المحترق ذات يوم، يقول لها عقلها النير ذات يوم، يقول لها وهي على إحدى هذه السفن الشراعية السريعة متوجهة نحو سورية وكبدوكية: هيا مع ستمائة سفينة ذات ثلاثة أجسر/ هيا إلى أفسوس[1] وكورنثوس[2] وأثينة! ستكون جميع الجزر لك! ستظل برنيقة في مملكة الظلال، ستضعين التاج على رأسك، ستحملين الصل – أفروديت وإيزس – وسينقش على خاتمك: "كليوباترة السابعة، ملكة مصر وفي العالم لا يكون بجانبك غير رومة! وهنالك يرى هل يدوم إرسال بر مصر إلى الإيطاليين مجانا، وهنالك يرى هل يأتون بالذهب إلى الإسكندرية ثمنا بدلا من أخذه منها بلا انقطاع، أجل، ذهب رومة البرية وتحميها تجاه عاصمة العالم الندية.

---

[1] أفسوس: مدينة قديمة بقرب إزمير، وهى مدينة أهل الكهف.

[2] كورنثوس: من أكثر بلاد اليونان عمرانا في القرون القديمة.

٢

في المساء تغمر سرابات الشرق بالشمس خلف البحر الغربي. وما تعلمه كليوباترة عن رومة، من فليوسفها أو من الربان أو من خصي القصر، يضاهي في كدرة وخدرة [١] ماضي أبيها وحاضر هذه الجمهورية الرومانية التي ما برحت تغرق.

وقد عرفت الأميرة الصغيرة ماذا حدث في السنين العشر الأولى من حياتها القصيرة، وكان أحد البطالمة قبل ولادتها بثلاث عشرة سنة قد أوصى بمصر لرومة، غير أن مجلس السنات لم يرد ذلك ما دام كل واحد يحسد مقدما من يعهد إليه في إدارة هذا البلد، أفلم يكن وجود ملك ضعيف في دلتا النيل أقل هولاً من وجود والٍ روماني قوي؟ وتسلم مصر وقبرص إلى نغيلي [٢] الملك، ويركن إلى فسادها، وكلما اعتصرا ضعفا، وكان كل واحد من الرومان الثلاثة أو الأربعة الذين يديرون اللعب ينتظر سراً حلول اليوم الذي يشعر فيه بقدرته على امتلاك تلك البقعة الأسطورية التي كانت رومة تتحدث عنها خازنة هاذية.

ويقع مثل لعب الهر والفأر، ويصاد الملك الزمار ويطلق، ثم يعاد ثانية ليغترق الذهب مجلس السنات والشعب الروماني بقلبه تقديراً لما قدم من خدم،

---

[١] الخدر: الظلمة.

[٢] النغيل: ابن الزنا.

ويحدث هذا سنة ٥٩ قبل الميلاد، وكان كايوس يوليوس قيصر قنصلا، ولكنه لم يكن من القوة ما يحول به دون خلع ملك قبرس، الأخ التابع للمصري، من قبل عدوه كلوديوس [٣] الذي لم يرضه عطاء، وتصادر أموال الملك القبرس، وتصير قبرس ولاية رومانية، بيد أن ملك مصر الزمار يظهر عدم اكتراث لمصير الجزيرة، ولا ضير، فقد انتهز الفرصة لينزع منها ثلاثين مليون فرنك من ذهب يدفع إلى فريق قيصر من غير أن يمس صندوقه الخاص.

وهنالك تقع فتنة في الإسكندرية، ويغتنم الفرصة أكابر القصر والأعيان والكهان والأشراف وأصحاب الأملاك الكبيرة وضباط البلاط، ويثبتون للشعب التابع لهواه والولوع بالبدع قبائح ملكة، ويفر الملك إلى رومة، ويرفع حزب برنيقه هذه الأميرة إلى العرش، ويسم ملك قبرس نفسه.

وتدهش كليوباترة، البالغة عشر سنين، من هذا الحادث، وكان قد سفك دما كثيرا في تاريخ آلها، وكان، منذ ٢٥٠ سنة، قد ملك ثلاث عشرة من البطالمة أو سيطروا أو اضطهدوا من قبل نسائهم وأولادهم كالفراعنة الذين ظهروا قبلهم على ضفاف النيل، وكانت قد أبصرت عمل الخنجر والسم في مصير أجدادها فرأت إخوة يقتلون إخوتهم ورأت امرأة يقتلون آباءهم، ورأت ملكات يقتلن أزواجهن الذين كانوا إخوة لهن في الوقت نفسه، وذلك عن تعطش إلى السلطان أو عن طموح أو عن وقاية في الغالب، ولكن لم يقتل أحد نفسه بيده، وإليك اليوم وارثاً متأخراً من هؤلاء الآل غارقاً في العار يذكر ما كان من عزة قديمة! وأخيرا يرى بين هذه الدمن ظهور وارث لهؤلاء الأغارقة الذين أشادت الأسطورة يذكرهم والذين يعود شعرهم إلى الأذن من هذا الجزري الصغير

[٣] كلوديوس: شعبي روماني قتل سنة ٥٢ ق.م .

المخلوع حين يمسك الكأس المسمومة، وتظل الأميرة حبيسة هنالك، وإذا كانت قد عرفت أن تزدري أباها الذي يتساوم هو والرومان على سلطانه في الحين بعد الحين فإنها تعجب الآن بأخية، إذن من الصحيح ما يعلمها إياه فلافسة الموزيون[١] إذن من الصحيح وجود أمور أعلى من التاج وأعظم من الذهب! وتعلم كليوباترة في العاشرة من سنيها أن الزهو للملك أفضل من السلطان وأن رقا كرق أبيها أمر وأن السم منقذ، ويكون لهذا الدرس أثر بالغ في نفسها.

وتعزم على كسر السلاسل التي تقديها بها أختها، وهل هذه الأخت، وهل برنيقة هذه، سعيدة؟ كان الرجل الأول الذي شاطرها سريرها ابن عم اختير لحمل اللقب ولضمان النسل فبلغ من الفساد في زمن قصير ما قتله معه ضباط القصر، وكان الثاني أصلح قليلا، ولكن ألا يمكن إثبات كون ابن ملك الفرس هذا آفاقا حقا؟ ومن كان هؤلاء الفرس؟ هم فرسان زاهون لابسون سراويل لاصقة، ولكن ماذا كانوا يعرفون من الروح الإغريقية ونفائس الحياة؟ وهل كان ذلك حرا؟ أفلم يكن خاضعا لخصيان القصر؟ وهل كان يحب زوجه؟ أفلم يكن مزدريا لها؟ وهل كانوا يقضون يوما من غير أن يخافوا رومة؟ وكانت رومة الطلوب الوقاح [٢] هذه خفية الشمال، فكان يمكنها أن تأتي في كل يوم فتذبحهم، وكان يمكنها أن تأتي في كل يوم فتنهب كل شيء وتخرب كل شيء وكان والد كليوباتره يهبط نزالا من منحدر العار، ولكن بما أنه لا يستطيع الحكم ضد رومة وجب عليه أن يوالفها، وكانت الأميرة الصغيرة تحس ذلك، وكان أهل الإسكندرية والزوجان الملكيان يشعرون بذلك، ومكن أجل ذلك أرسلوا وراء الملك المخلوع مائة وجيه مفوض إليهم جعل رومة هذه تحالف حزبهم، واها واها! مرت أشهر من غير أن يعرف

---

[١] الوزيون: معبد عرائس الشعر.

[٢] الوقاح : ذو الوقاحة، للذكر والأنثي، فيقال : "امرأة وقاح ".

شيئا عن هذه البعثة، وكان للأميرة الصغيرة المعتزلة وحدها أن تسر بطرد البعثة، وذلك لأنها ما كانت لتأمل في التاج ما لم يفز أبوها المزدرى لذى الرومان.

وينقضى الشتاء الخلو من المراكب، وترى أولى السفن الشراعية فتعلم من جميع الناس أن الزمار قتل أعضاء البعثة، ويعول صبرها ويكون عندها عامل لخدمتها، فتعلم منه أمورا يجهلها الآخرون، تعلم أن أباها عرض ستة آلاف منا ثمنا لاسترداد سلطانه، وتبدو رومة التى قهرها الفرس فقيرة، ويحوك كل من كراسوس [1] وقيصر ويوني وكراسوس، دسائس ضد الآخرين، وكل يبغى نيل مصر وقبضه على كنز البطالمة قهرا لخصومه، والآن يجب على الأب أن يؤدى ما فيه الكفاية فيغادر رومة حليفا، لا مغلوبا، ولكن إليك حوادث كثيرة أخرى من وراء البحر! وكل شيء يحسمه ضراب سياسى، وذلك أن قيصر رجع من بلاد الغول ونشر "قوانينه اليولية"، وأذاع أن الزمار "صديق الشعب الرومانى وحليفه"، وذلك مع تأهب جماعته لحمل الملك، وعن غدر، على استدانة الملايين من مرابى تالرومان، فإذا لم يستطع الدفع قبض عليه.

وتلتف جماعة في الإسكندرية حول الأميرة الصغيرة المضيمة، ويريد الساخطون تغييرا جديدا، ويأمر الزمار سرا بأن تطاع كليوباترة، وبينا كان يلتمس من رومة عرشه مستجديا نذلا خبيثا كانت الأمور تعد صموتا من قبل الأخت التى تضع الخطط ناظرة إلى طريق الانتفاع بالرومان وصولا إلى السلطان.

وتحل ساعة من نهار، ولا يستطيع قائد رومانى لجيش سورية أن يوفى كتائبه رواتبها فيطلب ملحفا اثنى عشر ألف منا، أى عين الثمن الذي طلب من الملك الزمار أن يدفعه ثمنا لعرشه، ويجرب الصحراء مع بضعة ألوف من الجنود

---

[1] كراسوس : عضو في الحكومة الثلاثية مع بونبي وقيصر / وقد قتل سنة ٥٣ ق.م .

ويتقدمون إلى بيلوزة [١] في الدلتا الشرقية، حيث مر الإسكندر منذ ثلاثمائة سنة، حيث جاء في أزمنة أبعد من ذلك كثير من القادة العبريين والفرس والآشوريين.

وتأتى السلامة من أيدى الرومان الكريهة أيضا، وتشعر الأميرة بخفقان قبلها عندما تتوارى من أختها القوية أو حينما تخطب في الأوفياء لها مطالبة بحقوقها، والآمن يصل صوت الصراع إلى السكندرية، ويدنو الفرسان الأجانب، وتقتحم الأبواب ويختفى الفرار ويسلمون أنفسم، وتبصر كليوبارتة وجه أبيها، وتبصر الوجه الفاسد لهذا الرجل الذي يعود بين كتائب من الأجانب ليسترد عرشه ووطنه، وتبصر كليوباترة جثة الملك الشاب المشوهة، وتبصر خضوع الأشراف والكهنة وعجز بله الإسكندرية، مجددين يمين الولاء للملك الذي طردوه، وأخيرا تبصر في الرمل تدحرج رأس أختها الممقوتة التى قضى أبوها بقتلها كأول مرحلة في سبيل السلطان! وعاد لا يكون بينها وبين العرش غير شائب مجرم مترف يجب عليها أن تدعوا أباها، يا ليوم النصر الصامت الذي فصل فيه رأس أختها ذلك!

أعظم من ذلك أيضا وجد [٢] الأميرة الصغيرة عند تأملها جديا في منظر الجنود من الأجانب، وهل هذا هو جيشهم الرومانى إذن؟ أليس مؤلفا من هؤلاء الجرمان الشقر، من هذه الوجوه المتوحشة من هؤلاء الرجال الذين لا يستطيعون أن يردوا الجواب إليها، من هؤلاء الآسيويين القصار الذين لهم نظرات جافية، من هؤلاء اليهود الذين لهمعيون كبيرة، من هؤلاء البزنطيين الذين لهم جباه وطيئة؟ يلوح أنها ترى بقايا جيش كسر في إفريقية، وأسوأ الرومان، لا أحسنهم، هم الذين تراهم هذه التى كانت تخشى رومة كثيرا.

---

[١] بيلوزة: هي الفرما أو الطينة، وهي مدينة بمصر نت الشرق وتعرف اليوم بتل الفرما.

[٢] الوجد: الغضب: الحزن.

ويا لحيرتها العظيمة! فالآن يجلس زعيم [1] للفرسان، ويجلس ذلك الذي فتح بيلوزة وأوصل الصراع إلى أبواب العاصمة، حول مائدة واحدة مع أبيها في القصر، ويحاط بمثل ما للقائد من ضروب التكريم، ويلوح أنه يجاوز رئيسه في كل أمر، وهذا رومانى، ولكنه إنسان مع ذلك! وهو يظهر للحضور ذا رأس كرأس هوكل [2] مع لحية قصيرة وأنف نسرى ونجاد معقود منخفض على سرباله الواسع وسيف كبير على جانبه ونصف جلوس ونصف ضجوع، وتعيد الأميرة الصغيرة نظرها في الرأى عن الرومان من غير أن تنطق بكلمة.

ولا يلاحظ الزعيم [3] اختلاجها، وكان في السابعة والعشرين من سنيه، وكانت في الراعبة عشرة من سنيها، حينمها التقيا في هذا الاحتفال الملكى للمرة الأولى، وتعبر أنهار وبحار، وتجاب جبال وأمصار مع ضوضاء، ويكمل حظ بطل ويبلغ غايته، ويمضى ثلاث عشر سنة قبل أن يمكن هذين الإنسانين أن يتلاقيا هكذا، ومن المحتمل ألا يتواجها مرة أخرى لو لم يتبادلا غير النظرات والكلمات في ذلك النهار، ومن المحتمل أن كانت منيتهما لا تنمو فتعطى ثمارا، ومن المحتمل أن كانت هذه المنية لا تلقى كل واحد منهما على الآخر في صيفهما لو لم تقرب ريح ربيع بينهما في ذلك اليوم، في تلك المقابلة القصيرة، ولكن إليكما حول المائدة، إليك أفروديت كالهلال، وإليك هركول ذا ملامح الفتية، إليكما بعيدين كل البعد من الآلهة الناضجة التى سيكونان منها ذات يوم، ولكن إليك عذراء ناعمة يونانية وضابطا رومانيا، وإليك كليوباترة وأنطونيوس.

---

[1] colonel.

[2] هركول: بطل سطوري يوناني وروماني مشهور بقوته الحارقة للعادة.

[3] colonel.

٣

تمضي ثلاثة أعوام فتكون ملكة.

وتقبض كليوباترة على مصر منحلة، وكان الزمار الملكي قد قضى سنينه الأخيرة محتالاً ماكراً، وكان أحد وزراء الرومان قد طلب كل شيء في الواقع، فلما اضطر الملك إلى طردة في نهاية الأمر رددت رومة نغمة وجوب ضم مصر إليها كجميع سواحل البحر المتوسط الأخرى، وكان هذا ما تصاب به الدلتا لو لم يقض الفرس على كراسوس وحبيشة في السنة نفسها، ويكون للمملكة نجاة بهذه المصادفة، ولا تكون المملكة أقل من هذا خراباً عند موت الملك.

وكان الملك قد اتخذ الشعب الروماني منفذا لوصيته في محفل، وهو إذ عين ابنته كليوباترة البالغة من العمر سبعة عشر عالماً وبطليموساً صغيراً بالغاً من العمر عشر سنين وارثين للعرش، بتزواجهما على السنة الفرعونية ولو كانا أخا وأختاً، كان عليه أن يخشى الدسائس التقليدية التي تحاك حول ولديه الأخيرين: أسينوية التي كانت في الثالثة عشرة من سنيها وبطليموس صغير آخر، وأى الأربعة يغلب الآخرين أو يبعدهم أو يقتلهم؟ وأى الأحزاب يعد مثل هذه الجرائم؟ إذن، كان أمر هذا المصري الشقي كمن يدعو لها، على حسب قوله، حين ابتهاله إلى مجلس السنات الروماني أن يسهر على النظام والسلم وكانت رومة هي التي

يضرع إليها، وكان على دولة المصير العظمى رومة أن تخضع مصر أو أن تخضع لسلطان عاجلاً أو آجلاً.

ولم يتم زواج كليوباترة بأخيها الشاب فعلاً، ولا يعرف ماذا فعلت فيما بين السابعة عشرة والحادية والعشرين من سنيها، وهذه هي النفطة الفاصلة الوحيدة في تاريخها، ومع ذلك كان من الحوادث ما هو عظيم في هذه السنين ما دامت قد أسقطت واستردت عرشها فيها، ولا يمكن تمثل مشاعرها ملكة إلا من خلال مغامرات رواها مؤلف قديم.

وكانت حديثة عهد بالملك حينما أرسل والي سورية ابنه إلى الإسكندرية ليأتي بكتائب الاحتلال الرومانية التي تقم بها منذ زيارة أنطونيوس، ويجد هذا الابن زمراً غير مدربة من الجرمان والسلت [1] بدلاً من الكتائب المنظمة، ولا تفكر هذه الزمر في غير قضاء الوقت مع أزواجها المصريات، ولا تشعر بأى ميل إلى ذبح الفرس إياها، وتقتل هذه الكتائب الضابط وتطرد رفقاءه، وماذا صنعت الملكة؟ أفلم تجد ما يرضي عجبها بأن تعارض أمر الروماني البعيد بهؤلاء الرومان الآخرين الذين هم أنصاف تابعين لها؟.. بيد أن كليوباترة لم تكن ملكة تسير مع عواطفها، فقد قبضت على القتلة وأرسلتهم مقرنين في الأصفاد إلى سورية، إلى الوالي الذي هو أبو القتيل.

قل: يا أسفا! ثلاث مرات، وذلك لأن هذا الرجل القوي يستطيع أن يتبع ميوله، فهو، بدلاً من أن ينتقم أشد انتقاما من قتله ابنه، أعادهم إلى الملكة قائلاً لها إنه لا ينبغي لغير مجلس السنات أو وكلائه حبس أناس من الرومان، وياله من درس قاس ألقى على كليوباترة المتكبرة! وماذا حفظت منه؟

---

[1] السلت: قوم من العرق الهندي الأوروبي كان يغمر أوروبا الوسطى والغربية.

ويحضر مركب جديد إلى الإسكندرية بعد وقت قصير، ويصل ابن الطاغية، كنيوس بونبي، حاملاً أمر جلب هذه الكتائب إلى أبيه، وتجمع هذه الكتائب أمرها في هذه المرة، ويقوم الموضوع على القتال بقيادة أعظم قواد الزمن، على مقاتله قيصر وهذا هو آخر حادث معترض في صراع لنيل السلطة، وليبادر إلى جهة بونبي! وتعلم كليوباترة ذلك، وتهب الكتائب، حتى إنها ترسل خمسين سفينة للذهاب بها، والواقع أن بونبي اتخذ كرسول ابنا أكثر فتاء وأعظم هيفاً من انطونيوس الذي عرفته! يا لو كان جميع الرومان مثله! لو غدا الأب غالباً لقامت، إذن، بخدمة تجاه صديق قديم لآلها.

وعلى العكس لم تسمع من أبيها الزمار غير عبارات غامضة عن قيصر، ويستغل أعداء الداخل زيارة ذلك الشاب الرومانية استغلالاً خبيثاً فيقال: إن الملكة على اتفاق مع رومة إذن! لقد سلمت أسطول مصر إليها! ياله من فؤاد ضعيف! سحرتها ربلتان [1] عضلتان! وماذا لا يخشى من مثل هذه الملكة؟ والحق أن الفتاه بالغة القوة على رأى الخلان، والحق أنها كثيرة التفكير كثيرة الاستقلال، ويبدو الصبي الذي يملك معها أسلس قياداً، ويظل "معاقا" في الثانية عشرة من سنيه، وما أسهل ما يري ازدراء أخته له! أولم تصر على رفض واجباتها الزوجية؟ أولم تدع رأس زوجها الشاب يغلي أمام بابها المزلج [2]؟ كان كل شيء يعلم في القصر، ولم يعتم أولاد الملك الثلاثة، أى الخصي والفليسوف والقائد، أن أثاروا البلاط والجيش والكبراء والشعب على الملكة التي تبيع البلد من الرومان.

---

[1] الربلة: أصول الأفخاذ.

[2] أزلج الباب: أغلقه بالمزلاج، والزلاج هو ما يستعمل لإغلاق الباب.

ولا أحد يعرف كيف دبر الأمر، وهو يدور دوماً حول فرار الملكة، التي كانت في العشرين من عمرها، ذات صباح، وإلى أين؟ إلى رومة حيث مجلس السنات والشعب ضامنان للوصية؟ غير أن كليوباترة الفتاة التي تعرف أن ترد جماع العاطفة عند المصلحة، لم تكن امرأة تابعة للمصلحة إذا ما ديست الكرامة، وهل تذهب إلى رومة لتطلب إعادتها إلى عرشها كذلك الأب الذي كانت تزدريه لصنعه ذلك؟ لأن تموت خير لها من ذلك! لأن تجدد عمل أخيه فتجرع السم عند خسران كل شيء أحب إليها من ذلك!

تفر كليوباترة إلى ساحل البحر الأحمر مع جنود قليل، فتجد هنالك عرباً وقبائل أخرى كانت قد درست لغتها وآراءها وخصائصها، وتجمع منهم جيشاً عازمة عزما شديداً على قهر جيش أخيها وجيش من كان يوجهه من المغرين، أفلم تكن عالمة بضعف كتائبة؟ أفلم تكن عارفة بتقلب بتقلب أشيل، بتقلب القائد الذي كان يسيطر على العاصمة؟ وتسير على طول النيل، وتجوب الرمال، وتتقدم إلى بيلوزة كامرأة مترجلة، ويجيء أشيل إلى هنالك لملاقاتها، وستعين المعركة في هذا الطرف الشرقي من مصر من يهيمن على أقدم مملكة في العالم.

ومع ذلك كانت أنظار العالم متجهة إلى بلاد اليونان، لا إلى النيل، فهنالك يتقابل جيشان بالغاً القوة قياماً برهان واسع المدى، وليس الموضوع أمر امرأة مترجلة وقبيل من جوابي الآفاق، بل أمر قائدين يعدان أعظم قواد الزمن ويتنازعان العالم، وبينما كان البطليموسان، الأخ والأخت، يتسلحان ويترصد كل منهما الآخر على ضفاف النيل كان قيصر يقهر بونبي في فرسالوس [1]، وقد هزمه شر هزيمة، وقد ذاع الخبر في جميع شواطئ البحر المتوسط وصار كل واحد يرتجف

[1] فرسالوس : مدينة يونانية قديمة فى تسالية.

لما كان يرى، قبل ذلك، أن بونبي رجل يتعذر قهره، ولما بلغ الخبر ضفاف النيل وقف العدوان المذعوران موقف المرتقب، ويعقب هذا النبأ في الحال نبأ آخر أدعى إلى الحيرة، ويعلمه الملك الشرعي قبل غيره، وذلك أن الروماني القوي الذي كان منذ سنتين قليلة من القدرة ما يتصرف معه في ملك مصر نصباً وعزلاً، ظهر فاراً مستعداً، مع ألفي جندي حزين بقيا من حبيشة الرائع، ليطلب ملجأ لدى ابن "الزمار" المزدري، فلما مر شهر على معركة فرسالوس الخاسرة وجد بونبي أمام بيلوزة.

وقد أراد أن يدنو من الساحل، ولكن مجلس الآله والرجال قضي بغير ذلك، فقد عزم الخصي بوتينوس الذي كان يقوم بأمور الحكم ضد كليوباترة في الحقيقة، أن يقتل المغلوب حالا فينال بذلك حظوة لدى سيد العالم الجديد قيصر، ويحول بذلك دون اقتتال جيشين أجنبيين في مصر، ويخرج القائد المصري، إذن، على سفينة سريعة محاطاً بقتلة مأجورين للقاء بونبي عند دنوة.

يقول: لا ماء ولا يمكن أن ينزل إلى البر، وتشعر بالمكيدة امرأة بونبي، كورنيلة، وترتعش، وتحذر زوجها، غير أن بونبي يرى الساحل مستورا بجنود من الرومان، فيركب الزورق. بصعوبة لتلاطم أمواج البحر ولصغر الزورق، ويثقل وزن السن على هذا المغلوب البالغ من العمر ستين عاماً، وإن الزورق، ليكلأ [1] إذ يطعن بالخنجر من الخلف، وتبصر امرأته هذا المنظر من فوق السفينة، وترى زوجه قطع رأسه، وتصيح وتبكي وتفر، ويحتفظ القتلة بالرئيس والخاتم، ويطرح الجسم في البحر.

---

[1] كلا المركب: أدناه من الشاطئ.

ويدنو قاهر بوبني وعدوه، قيصر، من الإسكندرية بعد ثلاثة أيام، ويأمر المتحاربين بواسطة رسل ان يعودوا إلى معسكراتهم، مضيفاً إلى ذلك قوله إنه لم يأت إلا لإعادة النظام إلى مصر.

٤

النظام؟ هذا ما تفكر فيه كليوباترة تحت خيمتها.

وتلقي نفسها على آخر الوسائد المبوسطة على الأرض مع عدم إراحة ومع اختلاط خاص بأثاث المعسكر، ثم تظل، كما تصنع دائما قبل اتخاذها قرارا، منبطحة ساكنة واضعة رأسها بين يديها مع قليل ارتفاق [١] تسهيلا للتنفس والتفكير، وتقنع مضطرة مدة أسابيع بهذا المعسكر المؤقت لتتعقب حركات جيش العدو من طرف الصحراء، ولم تسفر هذه الحياة العسكرية عن غير تقوية طبيعة المرأة المترجلة: كليوباترة.

وهل كان يغشى خميتها عاشق في الليالى التى تعقب تلك النهر [٢] الشديدة الحر الكثيرة الخطر؟ نجهل ذلك، ولا يذكر مؤرخو القرون القديمة الذين كانوا كلهم من خصومها تقريبا فيبحثون عن مثالب لها إذن، أية مغامرة غرامية لها حتى ذلك الحين، لكن مع عدم إيفاء مزاجها حقه على ما يحتمل مادامت عزلتها وإقليمها ومخاطرها وبلوغها أشدها وفمها أمورا تجعل من أفروديت هذه أسطورة لا تصدق، ولا يذهب عن بالنا أنها في الحادية والعشرين من سنها، ومع ذلك فإن ما لديها من حب ناشئ للصراع لا يترك غير مكان قليل

---

[١] ارتفق: اتكأ على مرفقه.

[٢] النهر: جمع النهار.

للشهوة، وتقبض من فورها على القنيصة التى يبتغيها دمها وترميها حالا، فيظل قلبها ورأسها فاترين.

وإليكما منبطحة في خيمتها إذن، وإليكما عازمة على التفكير في الحادث العظيم إذن، فعاصمتها محتلة من قبل رومانى يأتيه عماله كل يوم بنبأ أولى الحركات، وقد تحصن شريكها في الملك، أى أخوها وزوجها، في معسكر قريب على شاطئ النيل، وعنده ماء، ووراءه بلد غنى، وهو في وضع رفيع، وأما هي فمحاطة ببضعة آلاف من الهمج لا يحافظون عليها برماجهم إلا إلى حين الذي يؤدى إليهم قائد غنى مالا فيأتون بها إليه حية أو ميتة، وسيخضع أخوها للرومانى لا ريب، وكيف يجرؤ مستشاروه أن يعارضوا أقوى ضابط في العالم، أن يعارضوا قائدا لا مثيل له، بجيش من الأفاقين كان نصفه قد خدم رومة؟ سيهرع الملك إلى الأسكندرية ليركع أمام الرئيس كأبيه ويسكب الذهب ويضم كتائبه إلى كتائب قيصر قبضا على الملكة العاصية.

ولكن إذا ما ثارت عصبية أهل الأسكندرية على الأجنبى؟ لقد قيل إنه لم يصل إلا بأسطول مؤلف من ٣٤ مركبا! ولا يمكن أن يكون لديه، إذن، غير نحو أربعة آلف رجل، وعند أخو كليوباترة من الرجال عشرون ألفا! لو وقف قيصر قليل زمن لحيل دون مجيء كتائب سورية حتى تعزز جيشه! ولم ترك أولئك الأنذال، الذين وضعهم الملك على طول الساحل مثل نطاق للحماية، هذا الرومانى ينزل إلى البر؟ قيل لكليوباترة إنهم لم يصنعوا شيئا، وقد وصل قيصر حاملا كبرياء رومة، وقد رتب حملة فؤوسه، وقد رئيت الفأس والجزرة منظومتين على طول الطريق الرئيسة، وقد رأى هؤلاء الرومان أن يدخلوا والموسيقا تتقدمهم،

والعبوس يعلو وجوههم، وقائدهم يلبس خوذة ذهبية، ولم تقع الفتنة إلا بعد مرور بعض الزمن.

وكيف بدأت الفتنة؟ هذا ما تفكر فيه كليوباترة، وهى تذكر ما رأت في عقر دارها سابقا.. شرع بعض مهاجرى الرومان يصفر أخذ بعض آخر يشتم، اجتمع نحو ثلاثين ففصلوا كتيبة صغيرة من الرومان وقتلوا رجلا منها، ثم هجموا ورمى الرعاع حجارة فاشتدت الفتنة، وحسب الغالب القوي، مضطراً، أنه يكون بالغاً مرامه إذا ما وصل إلى القصر، ومن ثم لا يكون بلا مقارعة أن يستمال الأهلون ويقتلوا معاً من قبل كتائب منظمة، ولتسلك سبيل السلم! ولم نأت إلا حلفاء لمصر العظيمة! ويا لمعرفتها بحيل الفاتح الذي يباغت! والحاصل أن ذلك نفخ دخانا كثيفا في وجه قيص! ويا لخضوع قيصر عن ضرورة بعد ثلاثة أيام من دخوله المصر!

وأى وقت يجب أن يمر على كليوباترة لتمسك مصر لو كانت تملك في القصر وحدها؟

أفلا يعود الرومان بالقوة إذا ما وفقوا لقتل القائد الأجنبي وأبعدوا أسطوله من الشاطئ إلى عرض البحر؟ وهنالك يحولون البلد إلى ولاية رومانية، وهذا ما كان مجلس السنات قد مضى به مرتين.

وإليك رسولاً جديدا يصل غختبارا لفكرها في سرادقها، والنبأ هو ما تنتزع منه، فتعلم أن الملك الصغير سارع إلى الخضوع لدعوة قيصر، ومعه ثلاثة أشخاص: القائد والخصي والفليسوف، وقد ارتكبوا ذلاً أمام الدخيل الذي مثل دور المضيف فدعاهم بأدب جم إلى الإقامة بقصرهم ما دام غير محتاج إليه، ولم يجر على لسانه غير كلمة "النظام"! تنفيذ وصية المتوفى! تسريح الجيش قبل كل

شيء! دفع ديون الملك المرحوم إلى حاكم رومة المطلق عداً ونقداً! ومما قال إن السلم يسود بين الأمتين بعدئذ، وذلك لأن الاعتداء على حرية مصر أمر لم يدر في خلد أحد.

"قتله، سمه".. هذا ما تفكر فيه الملكة الهاربة. وتشير إلى الرسول أن يتصرف، وتذرع خيمتها ذهاباً وإياباً واضعة يديها وراء ظهرها مائلة الرأس طوراً ناصبة له طوراً آخر وفق سير أفكارها، أو لا يوجد أى مخرج إذن؟ ويا لو كانت تتصرف في الـ ٢٠٠٠٠ رجل الذين هم لدى هؤلاء الأنذال في المعسكر المقابل! يوتينوس! قاتل.. كيف لا يفكر في إزالة الروماني؟ أفلم يقض على بونبي؟ ولم لا يصنع مثل هذا بقيصر الآن؟ هو لا يمعن في الانحناء إلا ليستر نظره من الغريب لا ريب، هم يخادعون الرجل، هم يأتمرون، لا ريب! ويمكن أشيل أن ينال نصراً لبضعة أسابيع لا ريب ما كان الرومان لا يستطيعون أن يقاوموا عن قلة، أو ليس من الممكن أن يحال دون عبورهم البحر أيضا؟

أجل، ولكنه يفرغ منها هنالك! وستنهض جميع الإسكندرية لمساعدة الظافر المجيد على إبادة الملكة الوانية في مكمنها، ولا يبقى غير سدل الستار، ونعرف أنه ليس لديها غير سبيل واحد للنجاة، وهو جعل الروماني بجانبها، ولكن من هو هذا الروماني؟ من هو قيصر؟

وتخرج من خيمتها كأنها تريد أن تتنفس، كأنها تلتمس النور، ويا للسخرية! وكل شيء أسود في الخارج، والريح الشمالية الغربية الآتية من البحر شتاء باردة وتشقق الوجه، وتقرس، وتخيفها الريح، ويضجع الحراس دائرة حول النيران، ويهمهمون كالكلاب عندما يشعرون بمجيء سيدتهم، ويا لحياة الكلب حقاً! يا لحياة الكلب في جميع هذه الأشهر! وتملك الملكة قصراً في غرب الدلبتا

هنالـك، ويتمـرغ برابـرة الـشمال فـي وسـائدها الحريريـة هنالـك! وأمـا هـي، وأمـا الملكة، فإنها تنقض الرمل من خفافها، حتى أنها لا تعلم عدم وجود مؤتمر حول نيران المعرس [١]، هنالك يعد سكينة كسباً لديناريين في مقابل قطع رأسها، وهي لا ترى نيران المنار، فالنخل والأرض تحجبانها عنها، والعاصمة بعيدة فضلاً عن ذلـك، وترتعـد وتـدخل خيمتهـا، وتجلـس القرفـصاء، وتـضع ذقنهـا علـى مرفقهـا الأيسر، وترد رجليها كما كانت تصنع أيام صباها، وتطليل الفكر فيما تصنع غداً.

ويا للسخرية، ويا للمنظر المبكي، إذا عادت إلى الإسكندرية مع كتائبها كما يود الرومـاني! ويـا للـواذع التـي يمطرهـا عليهـا أهـل الإسـكندرية الـواقح عنـد مـا يظهـر جيـشها الزائـف القلزمـي [٢] أمـام الأسـوار والآلات الحديثـة فـي وضـح النهـار! سيضحك الرومان منه! وأما قيصر؟ فيقال إنه يبتسم فقط.

وهذا هو رأيها الذي يدور مجدداً حول ذلك الأجنبي الذي لم تره فقط الذي كان يعد مغامراً منذ بضعة أشهر فغداً الآن سيد العالم وصار يرعد مصر! وهـي تتمثلـه مـن خـلال أحاديـث أبيهـا وتقـارير عمالهـا، ولكـن وسـائل التحقيـق تعوزها، ولابد لها من صورة حقيقة له، ولو كانت جانبية على درهم هزيل، لتعد أول بداءة صادقة لغريزتها النسوية، وذلك لأن ما تقصده وتنويه وتدبره في هذه الليلـة يتوقـف علـى رجولـة صـاحب سـجية لحياتهـا ضـمان باكتـسابه ولهـا ممـات بانهزامها أمامه.

بيد أن ما يقصه النساء والأصدقاء والأبناء والفرقاء والافتراء عن قيصر لا يسفر من غير نسيج من المتناقضات، فقد قيل إنه خبير كبير بالجنس الضعيف،

---

[١] المعرس: المنوضع يعرس فيه القوم إذا تزلواغ من السفر للاستراحه ثم يرتحلون.

[٢] نسبة البحر القلزم: أى البحر الأحمر.

ولكنه ابن للخمسين من سنيه، وإنه تزوج ثلاث مرات أو أربع مرات، ولكنه لم يرزق ولداً قط، وأنه كاتم للغرام إلى الغاية، ولكنه، وهو الروماني الأول، ابن امرأته جهراً، وأنه رجولي، ولكنه، عند تصديق ما دار من هذر جدد بالهجو، وقد مثل دوراً نسوياً في شبابه مع الملك نيقوميد [1] وقد قيل أيضاً إنه خدع ذات مرة، وذلك أن زوجه يونية لم تكن في عيد ديونيزوس غير ذات تأثر مما عرضه خليع انساب بين الكاهنات بزي امرأة، ولا مراء في أن قيصر قد أحسن حين جهر بأنه لا يصدق قصة الزنا هذه، ولكنه طلب الطلاق لأنه "لا ينبغي أن تكون زوج قيصر موضع شبهة".

ويا له من رجل ملغز! هذا ما تفكر فيه كليوباترة أيضاً.

هو طويل لا ريب، وقيل أيضاً إنه ذو بشرة ناصعة البياض وإنه شديد العناية بنفسه مثلها، حتى إنه في الحرب عالي النطاق بالغ الهيف، حتى إنه يأتي إلى الغزو بألواح من رخام وصفائح من فسيفساء، وهو أرستقراطي دائماً، ويحبه الوضعاء مع ذلك! وتحذر سيدات المدرسة القديمة بناتهن من هذا الغاوي، وهو لا يحاط بغير غلمان حسان، وهو يدفع ثمناً للعبيد الغيد بالغاً من الغلا، ما لا يجرؤ معه على تسجيله بين حسابه.

ومن هو قيصر هذا إذن؟ ومن يحبه؟ العوام، يا لغرابة الأمر! العتقاء والعمال والفقراء الذين يعطيهم برا وينظم لهم مناظر، حتى إنه حلق رؤوسهم مجاناً قبل أحد الأعياد بيوم واحد، فاستمال بهذا بضعة آلاف من الناخبين، ويرى في المعركة بجانب الجندي ويشاطره جرأته ويدعوة رفيقاً، وكيف يتكلم؟ هو يتكلم بصوت رزين قوي، وهو لا يحاول كياسة كخطباء الشعب ولا سناء

---

[1] هو ملك بتينيه: نيقوميد الثالث، وقد دام حكمه بين التنين: ٩١، ٧٤ ق.م وبتينه من آسيا الصغرى.

كشيشرون [1] بل يظل طبيعيا بسيطا، ولكن الذي يعجب به جميع الناس ولا يدرك أمره أحد هو وجوده في كل مكان معاً فيلقي بلبلة في النفوس، أي كونه سريعاً ظهوراً، سريعاً استقصاء (فسعاته منتشرون في كل محل من البحر المتوسط)، وكونه سريعاً قولاً (فكلمته تنتقل بسرعة البرق، وتبلغ الهدف حالاً فتكون لها قوة الأمر في الطرف الآخر من العالم)، ويقال إن قيصر هو "أسرع" من في عصره. وماذا يكلفه ذلك؟ هو يسخر من ذلك! أو لم يحدثه الصيت عن قرن البذل بالسرعة والغني بالكرم؟ والخلاصة: يا له من قنصل غريب!

ويقال إنه بلغ في شبابه من الإسراف بحماقة ما أراد دائنوه معه ألا يدعوه يذهب إلى إسبانية إذا لم يجد كفيلاً غنيا، وقد نهب معابد الغوليين ليؤدي ديوناً أخرى أيضاً، وشر من هذا ما روي من تخليته خزينة الدولة في الكابيتول [2] لمثل هذه الغاية مستبدلاً بالنقود الذهبية نقوداً نحاسية مذهبة، ولا ريب في أن أساليب مثل هذه مما يؤدي به رواتب مضاعفة إلى كتائبة ويحرر به المئات من عبيده ويجعل به وليمة ابنته المانية عيدا شعبياً لم تر رومة مثله قط!

وتسأل كليوباترة في نفسها: ما هو سبب شدة ولعة بالأولاد؟ هو قد وزع في أثناء قنصليته أطياناً مجاناً بين الأسر الكثيرة العدد، ألم يطلق نساءة لأنهن لم يلدن له أنجالاً على ما يحتمل؟

أفلم يغمر سرفيلية [3] بالإحسان لأنه كان يفكر في تبني بروتوس [4] الذي يظن أنه ابنه منها؟ وهذه هي امرأة أمسكها زمناً طويلاً! أمسكها إلى اليوم الذي وهبت فيه ابنتها الخاصة له.

---

[1] شيشرون: أبلغ خطباء الرومان (١٠٦ –٤٣).

[2] الكابيتول: معبد وقلعة في رومة.

[3] سرفيلية: أخت كاتون وأم بروتوس.

[4] بروتوس: من قاتلي قيصر، مات سنة ٤٢ ق.م .

وما فتئت قصة قيصر وسرفيلية هذه التي عدت من أكبر الفضائح فكانت هدفاً للقول والقيل في رداه جميع البحر المتوسط ثم سدل ستار النسيان عليها، تشغل بال كليوباترة في أثناء حساباتها العميقة، فمن جهة تبصر تلك المرأة المسنة، ومن جهة أخرى تبصر هؤلاء الغلمان الحسان الذين يلبسهم قيصر ثياباً ثمينة، ثم تسمع سمعة مواقعة الجنس لجنسة، ثم تعلم عطله من الولد ورغبته في ابن، فيؤدي جميع ذلك إلى تمثل الملكة صورة رجل قد يحاز باللطف، وهل يكون الحبوب نصيب ملكة مصر في هذا العمل؟ ألا تملك من الرخام والحرير والنسيج وآنية الذهب ما لم تراه عين البربري قط؟ وما هي شهوات الشريف الفاتر الحواس الذي لا يمكن أن يروي غلته بلاط أسرار الشرق الغرامية منذ ثلاثة قرون؟ أولا تملك كليوباترة إلى درجة الإسراف من العبيد وأصماف الرجال، ومن البنيات والخليلات والراقصات، من يثير النظر إليهم وحده من الحواس ما تثيره السندات الخيالية التي أخذت تضعها؟

وإذا كان لا يريد شيئاً من جميع ذلك؟ وإذا كان لم يسمع قولاً عن غير كليوباترة؟ وقد يكون مضجعاً في تلك الساعة فيمسك بين أصابعة صورة للملكة أمر بإخراجها من المخابئ ما طمر كل شيء يذكر بها عن ضرورة، أليس من المحتمل أن يبادر قيصر، السريع السري الظافر الذي يعفو عن العدو وينعم عليه بأعلى المراتب، الرومانى الجبار السيد للعالم في ذلك الحين، إلى دلتا النيل ليرى هذه الملكة الفتاة التى تكلمت رومة عن زهوها كثيراً؟ وآلان لا تشك في أن قيصر قد أتى ليبحث عنها في هذا الساحل، لا عن بونبي، ومهما يكن من أمر فإنه يسأل الآن عنها إن لم يكن قد سأل عنها منذ البداءة، وإلا فلماذا أرسله ليبحث؟ وليس الذهب في الصحراء هنا، بل في خزينة الإسكندرية، في القمح

والنسيج والضرائب، حيث قيصر تماماً، لا حيث هي، ومع ذلك فقد أرسل إليها رسائل مرتين! أجل، إنها تعرفه آلان، وهي التي ينتظر، والأمر الوحيد هو أن تظهر بغتة لهذا الفاتر إحساسة، وأن تحدث له مفاجأة فاتنة، وكان لابد من حذر كبير لذلك، وذلك لأنه كان للأخ من العيون حول القصر ما ليقصر لا ريب فيمكنه أن يزيلها تحت ظل بعض النخل في منعطفات القنوات.

وتنهض كليوباترة، وآلان لها خطتها، وهي تعرف كيف تفاجئ قيصر.

٥

كان القائد بعد يومين، كان في الساعة نفسها من المساء، يستريح في القصر على سرير فاخر للملكة ممسكاً بيديه، مجلداً أعطاه إياه عالم فني مخترع آلة متحركة، ويدع الصيفة تقع من يده ويأخذ غيرها، وهو الذي مضطرباً عاجزاً عن الانتباه معذباً بهذه العصبية التي كثيرا ما أزعجته في الغزو بعيداً من كل امرأة فصار اليوم يعاني أقل من ذلك في الغالب، وتلك هي مختارات من التوراة سلمها إليه أديب مترجمة إلى اليونانية ترجمة كان يحبها علماء اللغات هنا.

وقد ذهب إلى الموزيون مرتين، وقد بإيوانه الكبير ذي الطبقتين والنوافذ الحديثة، حيث يهبط النور من عل على أرض خضراء، وكانت هذه القاعة مجهزة برفوف تمسك مئات الألوف من الكتب فتنم على أكبر مكتبة في العالم، وما أكثر ما يبدو كل شيء عملياً فيها! ويا لهذه البطاقات المتدلية خارجاً لتدل على العنوان! ويا لهذه الترتيبات المحكمة والمناهج المتقنة التى يمكن أن يوجد بها ما يبحث عنه في الحال! وذلك إلى المنار الذي هو أكبر ما في الدنيا مع مرآته العظيمة التى تجسم نورة، وإلى البوزئيدون [١] الكبير فوق البرج، وإلى هذه القصور، وإلى هذه الشوارع المسقيمة الخطوط المتقاطعة على زوايا قائمة.. وقد

[١] البوزئيدون: إله البحر كما جاء في الأساطير.

قابل جميع هذا باختلاط رومة المسنة صامتاً عن دهش، والخلاصة أنه تعلم كثيراً في أسبوعين منذ وصوله إلى هذا البلد.

وجثة الإسكندر هي أعظم ما رأى، وكان التابوت الذهبي قد سرق ولكن الغطاء النحاسي كشف لقيصر عند دخوله المعبد، فأبصر في ناووس بلوري، منحلاً بعض الانحلال ومحفوظاً في محلول رخو ضمن لفائف وعصائب وشرط فضية رمادية زجاجية، ذلك الرجل العظيم المدفون هنالك منذ ثلاثة قرون والبالغ من القوة ما يصلح معه أن يكون أسوة لروماني طامح مع ذلك، وللروماني برؤيته جثمان الإسكندر ما يسوغ وحده هذه الرحلة.

وكان قيصر يسأل في نفسه، منذ أيام كثيرة، عن سبب تلبثه بعد، وكان له بنظرات الملك الصغير الخفية المضطربة المستقصية وبعيون مرشدية الخبيثة وبما يدور في زوايا السلم من همس حائر وبفضول العبيد ما يعلم منه تطلع جميع الناس إلى ما يحيق به من خطر في ذلك الساحل وفي تلك الساعة، وماذا يحدث لو هاجمة جيش بطليموس الكبير؟ أجل، كان قابضاً على الميناء، ولكن لم يكن هنالك ما يثبت عدم استعداد الأسطول الأجنبي، الراسي أمام بيلوزة الذي يظهر الصداقة، ليحاصرة بإشارة من الخصي بين المنار والقصر، وكيف يحترز من الضربة ببضع سفن وبفرقة واحدة؟ ولم لم ينصرف؟ وعم كان يبحث في مصر؟

عن الذهب! أجل، قلل مطلوباته وخفض من ١٨ إلى ١٠ عدد الملايين التى كان الملك الراحل مديناً بها لشركة الأغنياء من الرومان، ولكنه كان يطالب بالملايين العشرة هذه عن احتياج، وذلك لأنه لم يجد مالاً في معسكر العدو وإن كان انتصاره على بونبي عظيماً إلى الغاية، والمال هو ما كان يعوزه، وما كانت

كتائب مصر وإيطالية لتكتفي بأكاليل الظفر، وقد كان قيصر مستعداً لتسويغ انتظاره الطويل، حتى في نظر نفسه، بهذا الاحتياج إلى الذهب.

ومع ذلك فإن مرؤوسيه كانوا ينغضون [١] رؤوسهم، وله بصر ثاقب وأذنان مرهفتان، فأدرك أمرهم من فورة، ماذا؟ وهل غلب عدوه الأخير ليفرغ لهذا الانتظار الطويل؟ وهل من أجل هذا أمسك رأس بونبي المقطوع الذي سلمه المصريون إليه محتفلين؟ وكان قد أرسل إلى رومة حالاً، ومع أسرع عمالة، خاتم هذا القائد المشتمل على طابع لينتقل هذا الشاهد على موت هائل من يد إلى أخرى هنالك وليحمل الجميع على إدراك ما تنطوي عليه صداقة الغالب من نفع، وأما رأس عدوه الأسن منه، الذي كان صهراً له، فقد كان في مزار نذرة لنميزيس[٢] وعم يبحث هنا بعد.

أن تعقب خصمه ووجده وأمسك رأسه؟ لم يكن عليه غير قبض الذهب والقيام بنصف جولة والرجوع إلى روما!

وهل يدرك سبب انتظاره؟ يجب أن تنظم مسألة وراثة الملك الراحل فيسود السلم بين الأخ والأخت، ولكن هل يكترث لهذا الأمر كثيرا لو كان الوارث الآخر أخاً، لا أختاً؟ كان هائجاً في ذلك المساء لأن النساء تعوزه تماماً، ولأن ما يرى في البلاط يجعله فاتراً أو مزدرياً، وقد أخذ في الغزو كل ما كان يقدم إليه كالعادة، ولكن ما الذي قدم إليه؟ وقد ذاق كل شيء، ولا بد من شيء جديد، ولابد من أمر عجيب، لاجتذاب ابن الخمسين هذا، وأين يجده؟

---

[١] أنغض رأسه: حركة كالمتعجب أو المسهزئ.

[٢] نميزيس: إلهة الانتقام كما جاء في الأساطير.

لقد فكر في الحديث الذي دار بينه وبين تلميذ لأبيقور [1] عشية حول اغتنام الوقت وأخذ ما يعطي وزيادة ساعات السعادة وعدم الخوف من الموت! الموت؟ إنه لم يخفه قط، ولكن الحياة؟ أفلم تجر بين أصابعه وسط هذه الحروب؟ وأين كانت حياته؟ قضي عشر سنين عند البرابرة، ببلاد الغول وبلاد الجرمان، في مفاوضة عشرات القبائل أو محاربتها وفي اتقاء المفاجئات وحفر الخنادق وإنشاء الجسور والجسور دائماً، وتعبيد الطرق والطرق دائماً، ونشر البلاغات وإذاعة الخطب والقيام بالمعارك والمعارك الجديدة دائماً! وما الغاية؟ أن ينال في المستعمرات من السلكان ما يطلب في رومة، وما أكثر ما أقام في رومة من الأعياد واشترى من النظار والقضاة واستمال من الصغراء ومن مجلس السنات حتى اليوم الذي لم يكن له فيه غير خصم واحد ! وأخيراً هذه المعركة، وأخيراً هذه السقوط الذي مني به بونبي! وأخيراً يصاب الهدف، ويصل الرجل.

ويبتلى قيصر بما يعقب تحقيق الغايات من كرب فيسأل في نفسه عن كون النتيجة قد ساوت حياة حقاً وعن كون عالم الأمس وكاتبه لم ينالا نصيبا أفضل مما نال، ويسأل في نفسه عما يمكن روحه أن تحسة من جديد بروما في جوق الملق وضوضاء النصر، ويشعر قيصر بنفور من الحياة.. وتساوره أفكار كلبية عن فساد الناس وسرعة القدر الذي أراه رأس بونبي العفن، ويرد السؤال الآتي ذهن هذا الغالب: "والآن؟.. ويوجد في الصحراء فتاة لا يخسر شيئا من جعلها ملكة على ما يحتمل، ولا يعترف قيصر بفضوله حول هذه الحسناء المترجلة لا ريب، ولكنه، وهو الخبير بأمور الغرام، يبصر في بدنه المتقدم سناً أعراضاً نصف أليمة نصف ناعمة، أى ضرباً من عدم الصبر في الساقين وإطباقاً للجفنين وخزياً خفياً

---

[1] أبيقور: فليسوف يوناني (٣٤١ – ٢٧٠ ق .م).

من سكون حواسه، مع أنها لا تحتاج إلى غير شرارة حتى تشتعل، والخلاصة أنه كان يتوجع من مزاج أسقطته المرأة الفتاة من حسابها، وهو: مزاج الشك والقلق والسأم العميق.

ويفتح الباب، ويبدو عبد طويل، وربما جندي، على العتبة منتظراً، فقد كان يحمل رزمة عظيمة على ظهره، "وما الأمر؟"، ذكر ضابط لقيصر أنه أتى ببساط ثمين إلى الغاية هدية ولاء من الملك بطليموس، ويسأل قيصر بعينه عن عدم اشتمال الهدية على خطر، ويومئ الضابط بالنفي، ويشير قيصر على الرجل بالدخول ونشر بساطة، ثم ينظر متطلعاً، ويمهد [1] البساط أمامه، وتخرج كليوباترة منه.

وليس من الأقاصيص هذا الذي نذكره لقرائنا، بل نروي النبأ عن بلوتارك، ويقول قيصر في نفسه إن هذا ليس مناماً ويسرع إلى مساعدة الظاهرة الحسناء على النهوض، ويعرفها من فوره وهذا هو نتيجة حلم هم اعتمدت كليوباترة عليه، ويسألها مستطلعاً باسماً عصرياً، ولا تعجب من ذلك، وتقص عليه كيف أن عبدها المخلص، أبولودور، دار حول الدلتا مجدفاً ثم انساب بمهارة بين سفن الأسطول ولف ملكته في البساط الثمين وحمله على كتفسه القويتين صاعداً في درج الرصيف ومراقي القصر مارا أمام الحرس ليحطها هنا في نهاية الأمر! وها هي تبتسم وتصرف العبد المطيع!

ولم يدرك قيصر كل شيء، ولم يسمع قيصر غير رنين صوتها، ولم يفكر مثل ضابط من فوره، ولم يلح له في الحال إن ما له من الحماية لا يكفي تجاه

---

[1] مهده: بسطه.

قتل محتمل، وكل ما أبصره هو تحقيق حلمة، هو عنوان الأناقة والظرف، هو الابتسام والإقدام والهوى، هو أجمل فم في العالم، وليست كليوباترة غلاماً، ويحزر هذا من انتفاخ قميصها، ومع ذلك يشاهد فيها من الفتوة ما يضاعف فتونها عند هذا الرجل، وذلك لأنه حين يراها تهزهز خصلها وتمد أعضاءها مدا خفيفاً إلانه لبدنها المتصلب يعتقد اكتشافه لأفروديت، لأفروديت الإسكندرية الهابطة، لإلهة صغيرة عارفه بجميع أسرار غرام العالم لا ريب.

وإذا كان الفوز قد كتب لها بسرعه فلأنها تغفل عن نفسها، وما فطرت عليه من دارية بالإغواء سكت أمام قيصر بغتة، وصارت لا تعرف شيئاً من الحركات والأوضاع التي كان لديها من الوقت ما تتأمله في المركب، حتى أنها نسيت، أول وهلة، خروجها من بساطها شعشاء، فقد استحوذ عليها منظر الرجل، أجل، كان الرجل قليل الشعر، غير أن هذا الأمر لم يقف نظرها ما عبرت عينا الرئيس السوداوين عن السلطان وما دل فمه الرقيق على الرجولة وشفتاه على الحزم وخداه النحاسيان على الرصانة، وما لاح عنقه فخوراً بحمل هذا الرأس الذي هو رأس يوليوس قيصر، ويجذبها كل شيء في هذا الرجل، يجذبها هيف ملز، ويد طويلة يمدها إليها ونظر ثاقب يشجعها وشذاً لطيف ينبعث من الأدم، فلما جلسا جنباص إلى جنب وتبادلا النظرات الحائرة طويلاً عادلاً لا يتساءلان وصارا يبتسمان، فيتجلى الوجل والزهو في كليوباترة ويتجلى النصر في قيصر.

ويعجب كل منهما بالآخر، وتتنافس أسنانهما بياضاً.

٦

وفي صباح الغد يدعو قيصر الملك الشاب فيخبط هذا اللابس تاجاً رجله عن غيظ ويشتم أخته التي كانت تنظر إليه باسمة ساخرة من ظل الغرفة العليا، ويشتكي من الغدر، وبوتبينوس هو الذي أوحى إليه بهذا الوضع، وذلك لأن الناس في القصر، حتى آخر الحمالة، كانوا يعرفون ماذا وقع في تلك الليلة، وكان كل واحد يضيف من عنده شيئاً لما وقع، وكان إظهار الغضب أمراً يشيراً على الغلام البالغ من العمر أربع عشرة سنة في ذلك الحين الذي كان يرد دائماً مع مراهقته وقدرته على الغرام وعيشهما في القصر معاً فيشعر باستمرار هذا الرفض، والآن يجد زوجته الشرعية في وضع لا يدع للشك مجالاً، يجدها مع رجل كان يمكن عده جدا له فجاء إلى هناك فاتحاً، ولم يك محتاجاً إلى آراء خصي حتى يزيد سخطة فيرمي تاجه على الأرض في آخر هذا اللقاء ويخرج كالمجانين.

وهنالك، في الأعلى، كان قيصر وكليوباترة يبتسمان عندما سمعت في الخارج أصوات الزعماء المحترفين الذين يثيرون الجمهور، ويوعز قيصر فيؤتي بأسلحته إليه ويسير إلى نافذه القصر ويدعو الشعب إلى الجمنازيون غداً، وتسمع كليوباترة كل شيء من نافذتها، وتسمع صوته، وتدهش من هدوئه، ولا تسأله عن وقت عودته، ولا عما يريد أن يصنع، فهو رجل لا يسأل كما تحس، وهي لا ترى غير إصداره أوامر حول حراسة بيوت الملكة ورد الملك إلى القصر والبحث عن

بوتينوس، وماذا يدور في ذهنه؟ هذا ما تسأل عنه نفسها عندما تكون وحدها، والتاج في خطر، ويدعو الجمهور إلى الاجتماع غداً.

ومع ذلك فإنها تطوف ببطء في رداه هذا القصر الذي استبدلت به حياة الصحراء القاسية مضطرة مدة ستة أشهر، فتمر بين الوسائد التي تتبين ما تنطوي عليه من دفء وبين الاعمدة التي تشعر بما تشتمل عليه من طراه وتشم أبنوس[١] الأبواب، وتمس بأصابعها الزمرد المنظوم وتلاطف المقابض العاجية بظهر اليد كما تلاطف الهرة بلذة، وتمسك تميئيل أفروديت الذي تحبه محبة خاصة وتدارس استدارته البرونزية ثم تلامس بدنها الأملس، وليس مما لا ترضاه هذه المقارنة ما ابتسمت، وتطلع في ذلك الصباح على أمور كثيرة كانت خافية عنها قبل ملامسة الروماني إياها، فقد وجدته كثير التجربة غير مسن، رجوليا مطمئن النفس عند مخاطبته الجمهور، لطيفاً من غير غزل، نشيطاً من غير بغي، صموتا ومتظرفا على الخصوص، شاكراً بما يثير العجب.

ويا للمغامرة! هذا ما يدور في خلدها بعد هنيهة مستقلية في حمامها.

وإنها لكذلك إذ تبتسم، فهي تتمثل البساط الذي جيء بها فيه إلى قيصر آبائها، وتتمثل الوجه الذي وجدت الذي كل شيء مجدداً، وهي فتاة، وهي مستطلعة، وهي تضحك وحدها من المغامرة، ولكن هذه القهقهة تقف، ولكن الفكر يسترد حقوقه، فتسأل نفسها عما يقع غداً، وإذا ما ركب الغريب سفينته، وإذا ما انصرف؟ ومن ذا الذي يكون حاكم مصر إذا ما بقي هنا؟ ولم يدع أخاها المزعج؟ والسلطان كان في خطر، والسلطان يعني الحياة في مصر، وتعزم كليوباترة على رصد مشاعرها الخاصة.

---

[١] الأبنوس: من أنواع الخشب.

وتزين، ولا يقام احتفال في القصر، لا ريب، ما اقتصر قيصر اليوم على تقديم ضباطه إلى ملكة مصر، على تقديم أناس من الرومان جاءوا بلدها كاللصوص فيعربون الآن على ولائهم لها، ويبدون لها مستطلعين حائرين معاً عن جهل كل واحد أياي من أصحاب السلطات الثلاثة يسيطر، حتى الرومان أنفسهم لا يعلمون ذلك، واليوم يلوح باطلاً في وضح النهار ما بدأ به وقت الشفق من أمس خيالياً، وهي تسأل نفسها عن مقدار ما يضحكون منها سراً وتدعو قيصر وحده مساء فتجده ظريفاً متحفظاً، ويذكر عرضاً أنه سيلقي في الغد درساً على الشعب حول وصيه الملك الراحل، وأنه سيرجعها إلى العرش مع أخيها، وأنها سيعيد، في الوقت نفسه، قبرس إلى ولدي الميت الصغيرين اجتنابا لحلوك دسائس جديدة في القصر ودلالة على صداقة رومة للمصريين، ولا شيء بعد ذلك، ويأخذ قيصر في الإعجاب بالحرير الذي تلبسه كليوباترة، بهذا الحرير الذي هو نسيج من صيدا.

وتدهش الملكة وتصمت، ومتى صدت رغابئها، رغائب امرأة متكبرة، هكذا؟ ولم يكن لأبيها أى سلطان كان، فكانت تزدريه وكانت تنصت لوزرائها في بادئ الأمر، ثم وجدتهم بلهاً فصارت لا تصدر قراراً إلا بنفسها، ولكن هذا الروماني، ولكن هذا الرجل، هنالك، مواجهة لها، جالس أمام طبق من ذهب فيتأملها في كل ثانية بعينية السوداوين، يتأملها هذا الروماني الذي يظل مجهولاً عندها فينبئ بمصيرها سيداً، وإلي أى حق يستند في انتحال هذا الامتياز؟ أيعتمد على الكتيبة الهزيلة الصغيرة التي تحرس الميناء والقصر؟ أم على مجده؟ أم على تسليم الملكة الغرامي؟ وتداوم على الصمت، ويلاحظ ذلك، ولا يقول شيئاً لكيلا يكدر سير أفكارها، ثم إنه إذا ما قابل بين ما نوى وما رأى من حسابها الخاص

أبصر اختياره للمخرج الممكن الوحيد، ويقتصر على تبليغها قراره بفتور من غير أن يسألها عن أى رأى كان، من غير أن يحاول معرفة ما تفكر فيه، وهذا ما لا تستطيع أن تطيقه، وتريد أن تسأله مرتين، ويقف صوتها مرتين عقداء [1] فلما فتحت ما بين شفتيها في آخر الأمر كان ذلك لتقابل بالابتسام ما لا يزال يسبر غورها به من نظر.

[1] العقداء: مؤنث الأعقد، وهو من كان في لسانه عقده.

٧

جاء العدو ليكدر القصيدة الرعائية، ولم يكد بيان قيصر في الجمنازيون يتم حتى اتخذ رجال القصر جميع الوسائل لعرقلة عمل الروماني، وقد انتقم بوتينوس، خصياً متهماً الملكة سراً، بأنها عاهر تركت جميع السلطة للأجنبي، ومن قوله: إن قيصر المشهور هذا منصور في المضجع على ما يحتمل، ولكنه يغلب في المعركة، فليس لديه من الكتائب غير قليل، وليس عنده غير جنود مناكيد، وتكفي ضربة إبهام لإنقاذ مصر من الرومان إلى الأبد.

وبما أن قيصر كان عاجزاً عن القيام بأى هجوم على جيش أشيل، وبما أن قيصر لم يشعر بقدرة على اختلاس الخزينة في العاصمة، فقد أرسل رجلين إلى بيلوزة على جناح السرعة آمراً بتسريح الكتائب باسم الملك، ويجيب أشيل عن ذلك بقتل الرجلين ويزحف إلى الإسكندرية، ويظهر أمام هذا القصر، ذات صباح، عشرون ألفاً من المشاة وألفان من الفرسان ويستولون على الضواحي، ويقطع المدد عن سيد العالم فيخوض غمار المعركة مضطراً على هذا الشاطئ الأجنبي ضد عدو أكثر عدداً من جيشه خمس مرات، ولم يكن قابضاً على غير ربع القصر وعلى المرفأ، وعلي أسطول صغير، مع عداء الملك الفتي والخصي له، وما انفك الخصي يحوك المكايد بين الشعب وفي القصر، وما حدث ذات يوم أن اتخذ آنية من خشب قائما بخدمة القائد، فما كان جوابه عن نظر السيد غير

رفع الكتفين تهكماً قائلاً: إن عمال رومة أخذوا الذهب، ومما حدث في يوم آخر أن حاول في احتفال سم قيصر، ويخبره حلاقة بذلك، فيأمر بقتل الخصي حالاً ويرقب الملك الشاب، ويرسل العامل تلو العامل على طول سواحل البحر المتوسط طالباً المدد محاولاً فك الحصار.

ولم يلبث أن وقع في الفخ، فقد قطعه المحاصرون عن الماء وقد أغلقوا دونه مدخل الميناء الضيق من ناحية البحر، فلما أراد اقتحامه خسر كثيرا من رجالة القليلين آنئذ، بيد أن قيصر استرد شبابه عند الخطر فقال: "أحرقوا السفن!" فيشتعل تسعون مركبا مصرياً عند قاعدة المنار، وتحترق مراكب القمح مع مستودع للقوت، ومع مستودع ثان وثالث، فلما حل وقت الحرب أخذت المكتبة تلتهب أيضاً ومعها يتلف، أيضاً، جميع ما كانت رومة قد علمته عن مثالها الأكبر، عن أصل جميع علوم الحكمة والجمال التي جعلت من هذا البحر المتوسط صانع العروق والشعوب، ومن ذا الذي أباد كل هذا؟ أهو جندي من البرابرة نال السلطان بقدرة رعناء؟ أم هو زعيم حزب عاطل من الأدب خال من المواهب؟ كلا، ولكنه قيصر الذي هو أذكي الرومان، ولكنه قيصر الذي رضع لبن أكبر موضع للروح اليونانية تسنماً لكتفيها فوق عظماء الرجال قاطبه، ولكنه قيصر الذي خلد اسمه مرادفاً للسلطان.

وهؤلاء العلماء والأدباء، هنالك فوق التل، هنالك وراء القصر، يرفعون الذرعان غيظاً، فقد فني ٤٠٠,٠٠٠ كتاب، فني أعظم مكتبات العالم، فني سند عرفانهم الخالد وتراث حياتهم الباطنية، وتراهم عاجزين أمام المصيبة، ومع ذلك لم يكن عند قيصر من الوقت ما يفكر في أمرها!

وذلك لأن قيصر في كل مكان، وتهاجم الأساطيل في القسم الخارجي من الميناء، ويكون قيصر على مركبه، ويقود المعركة، ويصاب المركب، ويفر الجميع، ويطفر الجميع فوق مراكب أخرى، ويعوم قيصر، ويسبح قيصر، وصولاً إلى مركب آخر، ويمسك معطفه الأرجواني بأسنانه، ويقي بيده اليسري، وفوق الماء، بضعة كتب إنقاذا لها بأى ثمن كان، ويدبر أمره من اليمين ما استطاع معاسراً من معطفه، مهدداً في كل ثانية بضربة العدو، ويروغ ويتصنع ويتداخل، وأخيراً يترك المعطف مضطراً، ولكن مع إنقاذ الكتب الثمينة، وأخيرا يتسور زورقاً آخر، ويعود ابناً للخمسين من سنيه محاولاً مغادرة المرفأ وصولاً إلى القصر بعد غرق أربعمائة من رجاله وخسرانه المعركة، ويتصيد الإسكندريون الثوب الأرجواني، ويعرضونه على قبضة السكان [١] ساخرين.

وفي ذلك الحين تكثر الحوادث متوعده، ويقال إن رجال بونبي الذين رأوا وقوع قيصر في الشرك وذهب عنهم الفزع التفوا حول ابن قائدهم السابق، ولا يستغل الجبار الأكبر نصره العظيم فيكسر نهائياً بقايا جيش خصمه، بل ينهك قواه في القنوات والطرق، ويقاتل عدوا اوجده ولعنه وعجز عن الخلاص منه.

وإتماما لسوء الحظ يخبر قيصر ذات صباح بان أسينويه توارث وبأن هذه التي جعلها ملكه قبرس فرت ليلاً مع قهرمانها [٢] وعاشقها، وهنالك يلحق بالجيش ويقتل أشيل، ويفتح باب المفاوضة، ويرضي الفريقان بذلك كسباً للوقت، وأخيراً يعلم قيصر من آخر الأنباء، أن الفرس واليهود يستعدون لرفع حصاره.

---

[١] السكان: دفة السفينة.

[٢] القهرمان: الوكيل أو أمين الدخل والحرج.

وليصبر قليلا، فالنجاة قريب، وحينئذ يستطيع مهاجمة الجيش المصري من الجهتين! والآن يغلب على القنوات وفي الخلجان وفي أضواج [١] الدلتا، وتأتي المراكب، والنيران خامدة خداعاً للعدو، وتشغل حيزاً في المناقع بين المصبين الكبيرين، ويخاض في هذا القسم المتقدم من مصر، في هذا القسم الذي ليس نهرا ولا بحراً، غمار معركة حامية مع ارتباك إياما طويلة، فتسقط مصر التعبة هنلك في مغايضها الخاصة تحت مقاذف عدو أكثر فتاء وتحت سيوفه، ويغرق الملك الصغير، الذي سار شجاعا عند آخر ساعة، في النيل غاطساً بدرعه الذهبي، وترجع أرسينويه إلى القصر أسيره، ويقتل مشيروها الأخيرون، ويعود قيصر إلى الإسكندرية، ويخر الناس اللابسون ثياب الحداد، في هذه المرة، ساجدين أمام عقبانه وقضبانه، وتنتهي الحرب بعد أن استغرقت فصل الشتاء بأسره ويلوح الربيع.

استطاع قيصر وكليوباترة أن يتعارفا في أثناء هذه الحرب الضروس، وقد قال ذلك للأعقاب في الجملة الوحيدة التي ذكر فيها اسم الملكة، وهي كما في رسالته "الحرب الإسكندرية": "إن قيصر أعاد التاج إلى الملكة كليوباترة لأنها شايعته مخلصة وظلت معه في المعسكر العام ثابته".

وتشتمل هذه الكلمات الفاترة التي كتبتها يد كانت تمسك القلم كالحسام، ويشتمل هذا التقرير المرسل إلى مجلس السنات والموجه إلى الأمة والتاريخ، الذي يخلد المؤلف به القائد، على الفصل الأول من رواية يخرج منها عالم جديد.

---

[١] الأضواج: جمع الضوج، وهو منعطف الوادي.

وكان قيصر قد عرف نساء كثيراً، عرف كورنيلية الحسناء التي يقال إنها محل غرامة الوحيد في شبابه، عرف هذه الغادة التي لاقاها في السابعة عشر، وفقدها في الثالثة والعشرين من سنيه، عرف حفيده سيلاً [1] بونبية الزاهرة التي خدعته مع كلوديوس، عرف سرفيلية الشهوي التي نهكته عن إفراط، عرف الأصليلة كلبورنية التي قاسمها البيت والصيت منذ عشر سنين، عرف في أثناء ذلك، عن مصادفات أو أهواء، نساء أعضاء في مجلس السنات وأميرات أجنبيات وتوابع معسكرات، فكانت الواحدة منهن تجتذبه بفنها الغرامي، والأخرى بمرحها، والثالثة بخطوها في الرقص والموسيقا، والرابعه بعقلها، والخامسة بإقدامها، وقد غير نساء في الغالب لأنه لم يكن ليجد في غير هذا التنوع صورة قريبه من خيال سنواته النضرات.

وهنا فقط، وهنا في آخر كهولته، لقي غادة محيرة صورها الخيال له مقدماً، والحق أن كليوباترة جامعة لجميع المتناقضات كما يلوح، والحق أن كليوباترة كانت مقداماً أريبه جريئة ماكرة معا ذات ثلاث خطط لتبديل فكرة تحبط، عبوساً وقت النضال، رصينه عند الخطر، متحولة بين عيشة وضحاها، ومما قيل إنها إذا ما وضعت خوذتها على رأسها تغيرت جنسا وروحاً، وهل كان محتاجاً إلى بيان عن القنوات؟ إذن تعطيه إياه، وهل كان يخسر حصانه فيعرض عليه حصان آخر بدلاً منه فلا يلائمه هو والثاني والثالث؟ إذن تجد له رابعا صالحال للعمل، وهل كان المجلس الحربي يتردد في الركون إلى وكيل؟ إذن تدل على أخلاقة، وكانت ترى الرجل الراكب جملاً في الصحراء قبل أن تدركه عين رومانية، وكانت تشم من مسافة ألف خطوة فتميز المركب المقطران على الطريقه الرومانية من

[1] سيلا: طاغية روماني (١٣٦ – ٧٨ ق.م) .

المراكب المقطرن على الطريقة الإغريقية، وكانت، إذا ما انبطحت على الأرض، تعد كتائب العدو من الضوضاء، وتمضي بضعه أيام على الحرب.

فيتمثلها قيصر، ابنا بطلاً، وتمضي بضعة أسابيع فتصبح مثل ضابط مرافق ووزير وقاض، وجاسوس، ومستشار أيضاً.

وإذا ما حل وقت استراحة وجدها قد تحولت تماماً، وجدها ملكة وربة منزل تقود بالأصبع والعين، وبسهولة متساوية، بضع مئات من العبيد أو مليوناً من الأتباع، وجدها امرأة تلاحظ من بعيد وتعرف أن تقضي سريعاً وبعدل إذا لم يعم حب الانتقام بصيرتها كثيراً، ووجدها لا تعرف التعب، أى أصرها نشيطة دوما وفق ما يقتضيه سلطانها المطلق في حياتها اليومية، أى عادت لا تكون من الأحداث، بل ملكة عبوس كزوجه فرعون. ويزول هذا ليلاً، ولا ترى للملكة، أو الولد البطل، أثراً، فتكتفي هذه المرأة ببضعة مصابيح وببساطين أو ثلاثة بسط مرتبة بيدها (ما أصلحت دوماً ما ينسقه عبيدها من أعمال التزويق)، تحويلاً إلى محل تسلية مالا يزالان يسكنانه من السرادق في آخر الحرب حيناً بعد حين، ولا سيما القصر الذي كان يتخذ حصناً منذ قليل، وهنالك يشعر قيصر بأن دم آل يوليه، الذين يزعمون أنهم من ذرية فينوس [1]، وقد تحول فيه فعاد لا يكون غير ابن لمارس[2]، وبأن فينوس هي هذه المرأة التي تحل حسامه، وقد أبصرت من فورها، وعن غريزة صادقة، ماذا يمكن هذا الرجل الكال الحواس أن يسعى إليه، فقد كانت تفوقه نعيماً، وكانت لياليهما تقطع بصوت أو بردي [3] أو بقرع بابهما بأصبع، وذلك لأن العدو لم يكد يبعد مائة خطوة من القصر في أفجع الأسابيع.

---

(1) فينوس: إله الجمال كما جاء في الأساطي، وتعرف عند اليونان بأفروديت.

(2) مارس: إله الحرب كما جاء في الأساطير.

(3) ردت الفرس: رجمت الأرض بحوافرها.

نعم، إن الذي كان يوفق بينهما هو ذلك الخطر اليومي، هو ذلك الاكتراث للسلطان الذي يدافعان عنه في مصر وروما، هو القدر المتوعد الذي لا يمكن إبعاده إلا بجنان ثابت بهيج والذي قد يصرعهما، هو العيش حيال عدو يدنو مترصدا، وترقب نصرة، وترجرج حياة كشعلة في ليلة عاصفة، ثم التهاب بشدة زائدة.. نعم، عن نفحة الحرب هي التي تمزج بين مقادير.

أكبر قواد عصره ومقادير أدعى نساء زمانها إلى الحيرة بصوله لا عهد لهذا الرجل الراشد بمثله قبل ذلك ولا ينبغي لهذه المرأة أن تعرفه بعد ذلك.

كان ينشأ عن وجدهما النفسي بعد وجدهما البدني، وعن اتحاد روحيهما الفخورين اتحادا حارا مثيرا للحيرة دائما، تأملات ذات بال، فيفكران في أمور بلادهما وتوثيق ما بينهما من صلات كما بينهما، وكان قيصر يعرف، من غير أن يفوه ببنت شفة، كيف يمكن حلم الإسكندر، هذا الحلم الذي تقف نفسه مذعورة أمامه حين يشعر بقربه من الممكنات، أن يجد في هذه المدينة نقطة بداءة تحقيقه، وحسبه المرأة الفريدة التي جاءت للقائه كآخر ملكة يجري في عروقها دم إغريقي، وكانت كليوباترة تدرك من ناحيتها، ماذا ينطوي عليه فؤاده فتعقد بأسلوب جديد وخيال فياض من الصلات ما يربطها برومة ربطاً غريزياً ولو عن حذر أو عن حقد.

وأخيراً صدرت عن حلم الشخصين الغرامي صورة عالم لفارس واحد.

ومع ذلك فإن غرام كليوباترة كان يزيد أيضا كغرام قيصر، وذلك بعيداً من كل طموح، وذلك منزهاً عن كل غرض نفعي، وذلك في تلك الأويقات المنتزعة من الحياة حيث الشهوة تقضي، وحيث الحقد يجاور الحب، وحيث يبصر حكم

النفس بينهما، وهي، كالفلو [1] الصغير، لم تحتمل الفارس إلا عن هوى، إلا عن لعب، إلا عن مكر، حتى تطرحه حالاً وتعود إلى المساوف الطليقة، والآن توقظ عين قيصر الذي غدا منقاداً للخيال، والآن توقظ نسمته القصيرة، والآن توقظ النوابض [2] الصامته لهذا الرجل الذي أخذ يشبب، من المشاعر في قلب كليوباترة ما لا عهد لها به، فتشعر في هذه الساعات التي يظل سليل الآله هذا ساكنا عندها بأنها بلغت من النضج دفعةً واحدة ما يتم في سنين كثيرة عادة، فتسأل في نفسها: هل هي ابنه به؟

وكما أنها كانت، وهي البالغة الشباب، تذوق بين ذراعيه ملاذ امرأة كان قيصر، وهو المتأثر بما في معشوقته من هم فتية، يجد ذوق شبابه ووجد فتائه، والوجد ما كان يمضي به إلى حضن ما لا يدرك غمامه، إلى ما لا يعرف من أثير محرك ذي بخار، وذلك في الواضح الغامض من الأجناس والأجيال، وكان هذا حلماً مبدعاً لزوجين غازيين، وكان هذا عالم حدس حتى في مرقاة الكون.

وتقول له في آخر الشتاء إنها ستهب له ابناً في الصيف، ويفطن قيصر إلى ذلك ويبتسم كما لهمة، ويسألها: كيف تحزر جنس الولد، وتنظر إليه وقوراً، وتكرر كلماتها الأولى القائلة إنها ستهب له ابناً.

---

[1] الفلو: المهر فطم أو بلغ السنة.

[2] النوابض جمع: النابضة، وهي ما تعرف بالزنبرك لدى العامة.

٩

أعاد العرش إليها في آخر الحرب حتى تشاطر أخاها الأصغر إياه، فتزوج هذا الأخ الخلو من كل موهبة، وفق السنة الفرعونية، وأما أسيره قيصر أرسينوية، التي فكرت، جريئة، أن تنازع كليوباترة صولجان الملك ذات يوم فقد تعقبتها أختها هذه شديدة الحقد، وكانت ملايين الذهب التي وجب على مصر أن تقدمها حاضرة، وكانت مصر التي يمكن قيصر أن يحولها إلى ولاية رومانية تحتفظ باستقلالها فتظل، مع ذلك، حليفة لرومة أكثر مما يحلم به أشد الرومان غطرسة، وسينجب الجبار والملكة بابن عما قليل.

وينقضي الشتاء وتهدأ البحار، وتصل السفن إلى مصر حاملة رسائل إلى قيصر، وماذا تأتي به من أنباء؟

ينتظر العالم قيصر، تنتظره رومة وإيطالية وأثينة والجزر وجميع المدن عن رغبة أو رهبه، فقد ظلت الكراسي العاجية التي تركها أنصار بونبي خاليةً، ظلت خالية مقاعد أعضاء السنات، وقد التجأ المئات من كبار الموظفين إلى أصدقاء لهم في المدن الصغيرة على الساحل، وما كان أحد ليعرف من يقبض على السلطة ولا ماذا يصنع الرجل الذي تصبح قبضته، وعادت إيطالية عاطلة من الأمن، أو لا تزال الجمهورية قائمة،؟ وما الحقوق الجديدة التي يتطلبها قيصر بعد نصره الساحق؟ كان أنطونيوس الذي يقوم مقامه يحاول أن يحفظ النظام

بالقوة لا ريب، ولكن من كان يدري أن مولاه هو الذي يوحي إليه بمراسيمه؟ ثم إن الأغنياء لم يزالوا على شيء مكن القوة كما يلوح، ثم إن الإشراف عقدوا النية على الاستفادة من انقسام أنصار قيصر ما بقي زعيم هؤلاء في مصر على الأقل.

وإليك الغالب في قصرة الإفريقي إذن، ويأتيه رسول برسائل يأتيه أمين للسر، مؤرخ للغزو، ويستمع لتلاوتها كثير الانتياه فيلا يفتح شفتيه الرقيقتين للسؤال إلا نادراً، وماذا يعلم؟ يعلم أن أنطونيوس ودلابلا [١]، اللذين هما أخلص خاصة قيصر لقيصر، اقتتلا في الفوروم [٢] لأن أحدهما أخذ امرأة الآخر، وأن تماثيل تقام به في كل مكان بإيطاليه، غير أن أبناء بونبي يستعدون انتقاماً لما حدث في فرسالوس، ويساعدهم على ذلك كاتون [٣]، أى أخو خليلة قيصر التي كان قد أولع بها كثيراً، ويشتري الحزب المعارض ألوف الجنود الخالين من أى خبر عن مدينهم الأكبر والقانطين من قبض رواتبهم أو تملك قطع الأرض التي وعدوا بها، فالناس كما يظهر، فوضى لا رئيس لهم.

وعلى قيصر الشائب في البد الأجنبي أن يبدو لنفسه مثل زوس [٤] إذ غادر أوروبا فقص أيروس [٥] عليه نبأ ارتباك الفتاة القانطة بعيدة منه مذعورة جامدة مصروعه من صاعقته.

ومع ذلك ما أطول الزمن الذي جاهد فيه نيلا لأوروبا والسلطان والملك! وهو لم ينفك، منذ لاح مجد الإسكندر في سماء فتائه على نمط نجم القطب،

---

[١] دلابلا: زوج ابنة شيشرون، وقد انتحر ٤٤ ق .م.

[٢] الفوروم: الميدان العام برومة.

[٣] كاتون: خصم قيصر (٩٥ – ٤٦ ق.م).

[٤] زوس : إلة الأغارقة الأعلى كما جاء فى الأساطير.

(٥) إيروس : هو إلة الحب كما جاء فى الأساطير.

يهدف إلى الفورم ومنزل الحبر الأكبر، وقد كان هدفه الثابت أن يكون سيداً وحيداً هنالك، ألا يشاطره السيادة أحد هنالك، فلا يقدم حساباً إلى أمناء بيت المال ولا إلى ناظر المباني العامة، ولا إلى مائتي عضو في السنات، ولا إلى جموع من المحامين، والآن يلمس ذلك، وفي رومة ينتظره كرسي لا يحتاج إلا إلى اسم جديد حتى يكون عرشاً، ولم يحار قيصر؟ ولم لا يرجع على أسرع مراكبه تاركاً كل آمر آخر؟

وفي أوج مجده قاتل بطل فرسالوس، الذي هو أقوى رجال العصر، كمغامر مع كتيبه صغيرة في أرض غير مقراه، وكان يمكن أن يهلك فيها بسهولة، ولو حدث هذا ما بقي من قيصر غير مجد أبتر، وقد تلبث عن هلع في البداءة، ثم عن ضرورة فيما بعد، وقد تلبث عن حب كما يقال.

وأما الآن! ومن ذا الذي يمنعه الآن من أن يذهب فيحزن غلته في رومة التي يراها وحدها تغني السلطان؟ أكليوباترة؟ تحرمها الآمال نصف فتونها، وتزيد عجزاً شهراً بعد شهر، أفلا يجب على من عطل من قوة الاستيطاب، فيزيد الاحتفاظ بصورة أفروديت الأيام الأولى سالمة، أني فر من هذه المرأة؟ وما الذي يحول دون إسراعه إلى رومة وتحقيقه في الحال أعلى مطامع حياته؟

لا شيء غير انتظار الولد، فقد أراد قيصر أن يري بعينيه الوارث الذي وعد به قبل أن يغادر هذا الشاطئ الأجنبي: شاطئ مصر.

وقد اخترعت كليوباترة البالغة اللباقة وسيلة تحول بها دون ملاله في هذه الأشهر الثلاثة الأخيرة مع امرأة معطلة مقداراً فمقداراً، أعدت مركباً ودعت سيد العالم إلى النزهة معها فوق النيل.

١٠

كان المركب الملكي، كان اليخت تلاميوس، قلعة عائمة لما يحز فرعون مثلها قط، وكانت نقوش ألواح الأرز أو السرو البارزة في الردهة الكبرى تذكر بالنماذج الأهلية التي ترى على ضفاف النيل أئنذ، على أبي التاريخ النهري هذا، وقد اقتضى ذوق الملكة أن يكون جميع ما بقي إغريقيا، ولا عجب، فإنك إذا عدوت أياما طلوباً من العيد، كان مقام البطالمة يقضي بانتحالهم طراز الفراعنة فيها، وجدت هؤلاء البطالمة قد عاشوا يونانياً دائماً، وما فتئت أفروديت، وما فتي ديونيزوس، يقيمان بزونهم [١] ذي الفسيفساء، ويروي أن جدر غرفة نوم الملكة كانت مزخرفة بطنف مشتمل على بعض مناظر الإلياذة، وهل كان هذا لإثارة مآثر البطل مجدداً مع انحراف عمره نحو الزوال؟ وكان هذا المركب ينطوي على جسور موسمية ثمينة، وكان هذا المركب تابعاً لنظام من الخيام وصغار الرياض واق للمسافرين من حرارة الشمس التي تشتد مقداراً فمقداراً في هذا البلد العاطل من المطر كلما سير إلى الأمام، وكان يرافق القلعة العائمة، التي تسير نحو المجري الأعلى بقوة الشراع أو قوة المجداف، جاريات وراقصات وممثلو مهازل ومشخصو فواجع وأمهر الطهاة وأدعى آلات الموسيقى إلى الهوى، فتكون هذه المراة قد جمعت كل ما يمكمن أن يداري أو يحرك أو يسكن رجلاً كال الحواس كقيصر مقيمة مهرجاناً يلهو به ضيفها هذا أيام فراغه.

---

[١] الزون: الموضع تجمع فيه الأصنام.

وكان من فوز الملكة جعل قيصر لنفسه أوقات فراغ بعد عشرين عاماً، ووجدت الملكة، عن غريزة أو بصيرة، وسيلة إنعاش سكون هذه الروح الدائمة العمل، فاحتمل عطلته خلافاً لعاداته وذكرياته ومصالحه والملكة، وفي الوقت نفسه، غذت هذا الذكاء الكثير الحركة بصحبة أدباء وعلماء، أو بجعلهم يصعدون في ظهر المركب حين المرور من مدنهم في النيل الأعلى ليوضحوا له أمر مصر.

وذلك لأن قيصر المتشيخ لم يكن ليطيق قضاء ثلاثة أيام في البطالة، حيث ساير شبابه، وكان اليوم الذي يمر من غير أمر يصدر يلوح له مقتطعاً من حياته غير ملائم لها، وقد تبعته ألوف من الجنود في هذه الرحلة راكبين أربعمائة سفينه نيلية، ولم يحاول مهاجمة أحد، ولم يرد فتح شيء، ولكن من كان يدري أى المفاجآت تظهر من ضفاف هذا النهر الكبير وأي العرب يرغبون في القبض على هذا السائر المحير؟ كان الأمن في مصر العليا حينئذ آل كثيراً مما هو عليه عندما كانت طيبة عاصمة قبل عشرة قرون، وكان يعارض مجري التاريخ من مدينة الإسكندر حتى حدود نوبية وقت معارضة مجري النهر، وكان جميع تاريخ مصر يبسط أمام قيصر في سياحته هذه، فالنيل قد كان مصر.

وينظر إلى هذا النهر الأسطوري بعين رجل عبقري خال من الغرض، وبما يتصف به الرجل المجرب من روح النقد، فيكتشف كيف يعين قيضه ونقصه وسعته وصولته وارتفاع ضفافه غله الحنطة التي هي أصل جميع ثروة مصر، وكان، إذا ما تقدم إلى الأمام، يميز من فوره فرعاً من القناة ذا دخل، غير أنه كان يعرف أن يكتم أمام الملكة ما يوجبه إهمال المستخدمين فيه من ابتسام حينما كانت تعزل المسؤول مقسمة كجندي، وكان قيصر قد اضطر في مغازيه، موغلاً نحو

الشمال بالغاً بريطانية، إلى إنشاء كثير من الجسور والأسداد فكان يكترث لجميع الترع والمراقي ودواليب الماء، وبما أنه لا يوجد بلد في الأرض أكثر تأثراً بمهارة الرجال من هذا البلد العاطل من المطر فإن رمسيس [١] ويوسف وغيرهما قد انتبهوا إلى هذه المسئلة، ولم يكن قيصر الأول في هذا.

ولم يلبث أن فطن إلى أنه ليس الأول، ولما أبصر عند أسفل الأهرام فتح الطريق الذي عاد عليه الإسكندر من معبد أمون إلى النيل شعر بأنه جر بعجل أربعة قرون ودهش من وجوده بجانب الآخر، ولاح أنه يسير على أثره! وصار نفوذ المقدوني الأكبر السحري يزيد في قيصر يوماً بعد يوم بدلاً من أن يهن بابتعاده عن المدينة التي تحمل اسم ذلك الفاتح، وهو لم يشعر أمام أعمدة آمون وأوزيرس [٢] العظيمة بغير فضول المهندس الذي يسأل في نفسه عماً صنع لرفع هذه الأعمدة الضخمة من غير استعانة بآلات، ولكن الروماني يجد مثاله حيث يحس يد البطالة في معبد أدفو [٣] وفي بلاق [٤] فيعد هذا فألا حسناً وتهيجه يونانية الكهنة ولغة الفلاحين الذين يكلمونه مستعينين بتراجمة، وهو يسأل نفسه، دوماً عماً يصنع وعماً يصلح لو كان يملك هنا، وكانت أسماء الأقوام السائرين على الطريقين العظيمين بين النيل والبحر الأحمر، توجه فكره إلى طريق الهند، فتتمثل له، صورة الإسكندر مجدداً، يتمثل له الإسكندر الفارسي، تتمثل له صورة فارس العدو التقليدي لرومة، يتمثل له كراسوس الذي قهر هنالك، يتمثل له هذا اللغز الآسيوي، ثم يعود إلى مصر، إلى أساليبها

[١] رمسيس: هو فرعون مصر المعروف بسيزوستريس.

[٢] أوزيريس: أحد آلهة قدماء المصريين.

[٣] إدفو: من مدن مصر العليا، مشهورة بمعبدها.

[٤] هي جزيرة الفيلة.

التجارية أيام ازدهارها، وكانت طائفة من الجزئيات العينية تشغل ذكاء فرعون الحديث هذا فيستهويه رحل الجمل ودولاب الخزاف الذي أبصره في قرية فوق طيبة يخرج جميع هذه الجرار التي تغرف ما لا نهاية له من ماء النيل فتعرفعه إلى مستوى الحقول.

وتبدو هذه الرحلة درساً للأمور، درساً عظيماً للحياة الشرقية، ويمكن العطلة أن تنزع قيصر من أعمالة، ولكن من غير أن تفرقه في البطالة.

١١

ومع ذلك كان ضيف كليوباترة، وكان يعرف ما هو مدين به المليكة من أجل القلعة العائمة، وذلك عندما كانت بين وسائدها بعد طعام نفيس تناولاه مع الضباط فجلست بجانبه ونظرت إلى غروب الشمس في غور رمال ليبيه، وذلك حينما كان النهار الحارة يصفر وكان الطراء آخذاً في الانحدار، وقد كانت قاعدة مزملة بموج من الشالات تحيطها به، وهي في وضعها الصبوي، أيدي جواريها الكثيرة العناية، وقد كانت تدير ذقنها المستند إلى يديها، وتحول ناظريها الذهبيين كعيني الصقر، نحو الرجل الصامت الجالس بجانبها الذي يحاول أن يكتم برفع رأسه ما لم يسطع أن يتغلب عليه من صلع، وقد كان يعرف في تلك الساعه أنها تسأله عن قصة.

ومن المحتمل أن يكون قيصر قد قص في تلك الأمسية سيرة نفسه عليها، قد قص عليها مقتطفات مما في ذهنه المشتمل على أمور خافية عن عيون الناس، حتى عن هذه المرأة الذي كان يشعر بثقة عميقة نحوها، ومن المحتمل أن يكون قد سألها عن طعام ناعم قدم إليه ذات مساء فذكر أنه أكل جذوراً ولم يشرب من الماء إياماً في أثناء الحرب الأهليه حديثاً لقطع بونبي إياه عنه، وكان هذا قبيل دراشيوم [١]، المعركة الوحيدة التي خسرها في حياته، وكان يجب أن

---

[١] دراشيوم: هو المرفأ الألباني المعروف بدراج في الوقت الحاضر والوقع على البحر الأدرياتي.

تبرز الكتائب في ذلك اليوم، ويجئ رؤساءها لمقابلة القائد والرجاء منه ان يحازيهم ! وتحل الكتيبه التاسعة عقاباً لها ! وهل كانت الفتن تشتعل في الغالب؟ أجل، بين حين وحين، ومما حدث في بلاد الغول ذات مرة أن دخل بين الصفوف وصاح بالعصاة قائلاً :"تريدون أن تسرحوا، فاذهبوا، إذن، يا أبناء الوطن!"، ويؤذيهم هذا، فيجيبون عنه بقولهم: "جنودٌ نحن من الجنود!".

وتسأل: هل كانوا يحبونه؟ أجل، مادام منصوراً، وهل كان يحبهم؟ كان يحب الرجل الذي يأتيه بماء بارد في مغفرة، أجل كان جنود الرومان هنالك، في الشمال، يظهرون ماذا يصنعون عن معرفة! ظل الجنود معه عشر سنين في بلاد الغول من غير غلب، تذمر نادر، وعقاب قليل، وإذا ما نالوا خبزاً وأحذية، ونساء في الوقت المناسب، رضوا ووثقوا برئيسهم، وذلك على أن يروا القائد يقاتل بنفسه حين الخطر كما فعل في الغابة ضد النرفيان [١]، أو كما فعل في إبيرية [٢]، ولكنه يذكر بونبي على الدوام، ويسأل في نفسه عن السبب في عدم انتفاع خصمه بنصره، وهل كان كبير العمر كثير الرخاوة؟ أو يجب على المرء أن يخرج من الجيش في الخمسين من سنينه؟ وكان يمكن أن يعطيه هذا النصر كل شيء، حتى أنه كان من الممكن في هذه الحرب اجتناب معركة فرسالوس التي هي بلا معارك، وهل من المحتمل أن يكون الحظ قد أفسده؟ هو ثري دوماً: هو شهير دوماً، هو سري دوماً، هو القائد نال كل شيء فاقد الحظوة، ما انفك يكون مدحوراً، لدى المجتمع كلما حاول الارتقاء واضطر إلى الاعتماد على الشعب، فيرتقي، مع ذلك، درجة درجة يمشقة، فلما بلغ الأربعين من عمره كان رئيس

---

[١] النرفيان: هل الغول البلجي.

[٢] ما واقع في جنوب مقدونيا من بلاد اليونان.

ولاية! وأى ولاية! عند البرابرة! ولم لاطفت آلالهة والسنات بونبي كثيرا؟ وما يساور قيصر من غيظ كان يحرمه الرقاد، ولما يغد سيد جيله! وكيف يختم حياته في منازعات حزبيه كهذه المناقرات والمغامرات! وهذا الغيظ هو الذي يحفزه إلى العمل.. وذكري الإسكندر في ذلك المساء.. في ذلك المساء.. في ريميني [١] وهل قضى فيها ثلاث سنين؟، حيث كان قد تردد نصف ساعة ليعبر الروبيكون[٢] ويزحف إلى روما.

وذلك ما يعد به غير أهل لنيل حماية "القانون"، ولكن، نعم، حتى من غير تصويت خاص! وبالسخرية السنات منه! وهل يهجم قيصر على بونبي؟ على بونبي الكبير؟ أو يظن أن هذا الغالب رئيس للسويف [٣]، للبرابرة من ساكنى الغاب؟.

ولكن هل استشار قيصر هاتفي الغيب؟ ولكن هل كان قيصر يبحث عن كليوبارتة؟ كان يبتسم، وأما هاتفو غيبه؟ فقد كانوا قوته وعدد فرسانه وقدرة آلاته وقطارة وميرته. وأما كهنته؟ فقد كانوا ضباطاً لايخشون شيئاً، وأما أنطونيوس؟ وهو خير الجميع لاريب، فقد حضر من رومة راكباً حصاناً متنكراً بزي عبد ليلحق بقيصر وراء الروبيكون، فقدمه قيصر إلى الكاتب على هذه الهيئة إثارة لسخطها على حكومة حزبيه تحمل شجعان الفلاحين على الفرار.

وتصغي كليوباترة إليه بانتباه عظيم، ويكون لصوت قيصر رنين، ويثور غضبه على الأحزاب، ولكن أسارير وجهه تنفرد عندما يتكلم عن انطونيوس. وقد تقصت الملكة عنه مرتين أو ثلاث مرات، أفلم يكن من الرومان الذين عرفتهم

---

[١] ريميي: من مدن إيطالية.

[٢] الروبيكون: نهر صغير كان يفصل إيطالية عن بلاد الغول.

[٣] السويف: من قبائل الجرمان في القرون القديمة.

جيداً في دور المراهقة؟ وأما الروماني الآخر فتحترز من الحديث عنه مادام ابناً لبونبي، وأنطونيوس هو زعيم [1] الفرسان الذي وقع من نفسها موقع الرضا حينما كانت في الرابعه عشرة من سنيها، فتود أن تعرف بعض الشيء عنه، بعض الجزيئات عن دخائله، ويتكلم قيصر عنه دائماً عاداً إياه فتي مفتوناً، ويلتفت إليه بسبب بسالته وإخلاصه، ويكف، وهو الضنين بالثناء، عن الانتقاد عند الكلام عن أنطونيوس.

وهو لم يحتج بشيء من الشدة إلا حين سألته عن صلاح أنطونيوس ليكون ملكاً، وقد قال: كلا، وقد ذكر أن من الممكن أن يكون مساعداً لمن هو أقوى منه، وأنطونيوس رجل شرس، وهو يعوزه الصبر والهدوء لكي يكون الأول، وهو خسر ثقة الشعب لعدم اعتداله، وهو يتفلت الآن من قيوده في رومة لا ريب فيعفو وينفي باسم القائد وفق وحي الساعة! وهو لم يصنع ذلك قط إلا برأى سترية المليحة التي يتنزه معها في شوارع العاصمة داخل هودج مقرون بأسدين.

وتنصت كليوباترة، وينبسط صوت قيصر مع ندرة ذلك، ولكنها لا تفكر فيه، بل في رجل آخر، في ذلك الذي كان قد فتنها في دور المراهقة برأسه الباخوسي [2] الذي يلوح أنه يسيطر على رومة في الوقت الحاضر وفق أهواه مغنية، أفي هودج؟ أمقرون بأسدين؟ ويا للحماقات التي تخترع في رومة! ويا للأمور التي يجب أن تخفيها الحياة فيستغني عنها رجل في سن قيصر! وعليها، وهي الفتاة أن تعاني هذه الأهواء ما دامت في يده حياتها، وهي تبدأ حياتها هذه مجدداً بعد أن تضع ولدها! وهنالك، وفي القبور المنحوتة في الصخور، عند حد

---

[1] colonel.

[2] نسبة إلى إله الخمر باخوس كما جاء في الأساطير.

الرمل، ترقد موميات ملكات البلد محاطة بالعصائب، ومن المحتمل أن كانت حاتشيست تتنزه في هودج مقرون بأسد على طول وادي النيل، ومن المحتمل أن كان عاشق إيزيس [1] المبعوثة الرباني يلاطف ركبتها حينما كان الشعب بأسره يسجد أمامها، فتضبط نفسها من الضحك.

ولا يعرف قيصر أين يسوق الخيال هذه المرأة الحامل، وإنما يشعر بأنها ساهية فيسأل في نفسه عما يمكن أن يدور في خلدها حول زمن أنطونيوس، ولم سألته عنه ثلاث مرات؟ هو أكثر شباباً.. أجل، هو أصفر من قيصر عشرين سنه!.

وينهض قيصر، ويتقدم نحو صدر المركب، ويبحث عن كوكبه، عن الزهرة[2]، عن هذه النجمة التي أنجبت بآله.

وتفكر متمطية قائلة في نفسها: "هو منكد، فيقال إن الأقدار القادمة تهتز فيه اهتزاز هذه الولد في".

وتقول في نفسها أيضاً: "هل دعوت الآلهة أن يكون ابناً؟ هل نسيت ذلك؟ وقد أصنع خيراً ما اطلعت على جميع عادات الفرس، والفرس يشغلون بال قيصر كثيرا في الساعه الحاضرة، وقيصر قليل الكلام منذ بضعة أيام، ويظن أحيانا، أنه لا يذكر الحمل الثقيل، أو السلطان الواسع الذي ينتظره، ويرى مسروراً، ويظهر أنه صار فتي، ثم يغدو عبوساً، ويأكل قليلاً ويشرب قليلاً، ويبدو أجوف الخدين، ويقال إنه يخاف المرض، ولا نوبة منذ ستة أشهر، أليس من المحتمل أن يكون هذا المرض خرافة؟.. ومع ذلك.. لا يعرف في الغالب هي يحسب أو يحلم بصوت خافت، ويتكلم عن الأرقام، ويبقى صامتاً سابح النظر في القضاء نصف ساعة في مرات أخر، وماذا حدث له آئنذ؟

---

[1] إيزيس: إلهة مصر.

[2] venus.

"وكان في الليلة الأخيرة يئن من جثام [1]، فلما أيقظته بهزة قليلاً أدار عينيه النجلاوين نحوي، ولما أفاق من غشيه همهم بشيء، وقد سأل الطبيب عن التاريخ، وأمر بإطالة الرحلة فوق ذلك، ولم يكن هذا عن أدب فقط، فهو يريد أن يمسك ابنه بين ذراعيه لما يفرض له من مصاير عظيمة.

"وهل يكون أولاد الرجال المتقدمين في السن ضعافافً؟ ويقال إن الطلق الأول شاق إلى الغاية وإن الموت يلم فيه بسهولة، وسيصنع الطيب المحال، فهو يعرف أن القتل نصيبه إذا مت في أثنائه، وماذا يفعل أبناء أخت قيصر إذا ما أبصروا له وارثاُ مباشراً؟ وإذا ما انصرف يلا رجوع وجب إيجاد والد ثان، ولكن يا للكوابيس الباطلة! يود قيصر هذا الولد! ثم يتركه هو وأمه! يا للمستقبل الذي لم يقابل مثله طفل منذ عشرة قرون!".

ويفكر قيصر من ناحيته واقفاً صدر المركب قائلا في نفسه: "ما أغرب الأمر! إنها تقوم، أحيانا، بحركة يد كحركة يد كونيلية منذ ثلاثين سنة، وتظهر من فورها فتاة مثلها، ولم تكن كونيلية أسن منها حينما وضعت جولية الصغيرة، وكذلك زوج الإسكندر عندما صارت أما، وهل هؤلاء النساء من الفتاة ما يضعن معه أبناء أقوياء حقاً؟ ولو طال عمر جولية، ولو ظل بونبي زوجا لها، لاجتنبت الحرب الأهلية، ولكن هل كان يرغب في هذا؟ لقد تبسم الطالع لبونبي كثيراً، وهو يحسد حتى على موته الذي أتاه سريعاً، ومن المحتمل أن كان أرفع لشأنه قتله بالخنجر قبل بضعه أشهر، أى في إبان سلطانه! إذن، يكون قد اجتنبت فرسالوس! وماذا يجب أن يتمنى إذن؟ أن يولد الإنسان قوياً! ألا يقضي عشرين عاماً في العدو وابتياع الشعب والسنات ودفع المال إلى الجند والنساء وصولاً

---

[1] الجثام: الكابوس.

إلى الذرورة في آخر الأمر تعباً أصلع كسيحاً! وصولاً إلى ذلك المصر الأبلة، وتفتح جرمانية والغول، ويخرج من ثلاثين معركة منصوراً، فإذا ما رجع من الغزو بعد تسع سنين فعن أى أمر تتكلم رومة؟ وعن إبعاد شيشرون! وي! يا للولادة حاملاً صولجانا! يا للجلوس على عرش الملك ابناً للثامنة عشرة! أجل، يمكن الملك في الثلاثين من عمره أن يكون كالإسكندر فيجعل العالم تحت قدميه إذا ما أحسن السير!".

ويظل قيصر على صدر المركب ناظراً إلى الأسود من الأمور، مستمراً على تفكيره:

"ويقال إنها عادت لا تبصر أن كل واحد يسجد أمام خطاها، ولا يمكن أى عمل، مهما كان حافزاً لكم، أن يقوم مقام جلال الأصل هذا إذا ما كان مثل محتدها، أو ليست هذه الممالك الحارة أسعد من جمهور ياتنا الباردة؟ ومع ذلك من هو جدها، من كان هذا الذي توج ملكا لهذا البلد؟ كان زعيماً [1] في جيش الإسكندر، كان ذا موهب متوسطة، وهل تجد طالباً تعلم تاريخ واحدة من معاركة؟ ولا تزال حفيدته جالسة على العرش نفسه بعد مرور ثلاثمائة سنة!.. وليكن للأمر غاية، والتأليه شرف مبتذل، ثم إن التألية لا يكره أحداً، ويمثل جميع هذا في سماه مجهولة، وهو ينقطع إذا ما راق أيا كان، ولا يمكن أبناء الآلهة أنفسهم أن يطمئنوا إلى تمتعهم باحترام الناس، وولم يقم قائد موله آل ملك بعد، وعلى العكس لابد مع التلج من أمر، فالعرش يرثه الابن بعد الابن وفق دور منتظم وفق سلسلة خالدة، أفلم تقسم لي بأنه سيكون ابناً؟ على أن تكون صادقة! ثم أين تجد في العالم ملكة أقدم وأعظم مجداً من هذه الإغريقية المتمصرة الوافرة

---

(1) colonel.

الغني؟ أو يجب أن يبحث عن أمهات أولادنا لدى السيكانبر [1] الغلاظ أو لدى اليكت [2] العابين؟ كلا، وإنما يجب أن يخرج سيد العالم الجديد من الدم الشرقي، من تراث الإسكندر! وسيجدد سلطان رومة على جميع أمم الشرق والغرب! ولنوحد هذه الأمم تحت تاج واحد، وليكن هذا التاج حديدياً! ولا تكون أية مغامرة زائلة مع ابن، وتقتضي تربيته عشر سنين، وهذا كاف، وتسطع الزهرة كل مساء في بلد العجائب هذا، وليس لنا، نحن آل يوليه، من الأجداد غير الآلهة، ولتحول الحياة، وسيولد ابني من ملك".

---

[1] السيكانير: أهل جرمانية القدماء.

[2] البكت: أهل أسكتلندة القدماء.

١٢

ويمضي على العود من المركب الأسطوري خمسة عشر يوما فتضع في قصر آبائها كليوباترة، البالغة من العمر اثنين وعشرين سنة، ذلك الابن الذي كانت قد وعدت به من تحب، ويسميانه قيصر، ولكن أهل الإسكندرية يطلقون عليه اسم قيصرون أى قيصر الأصغر، وتذكره الكتابات باسم قيصر بطليموس، وتسير الملكة على سنة الفراعنه منذ خمسة عشر قرناً فتصور على جدر المعابد آمون، والقوة التي تحمل، والآلهة التي تبتهج بولادة ابنها، ويقول الكهنة للشعب إن آمون قد اختار الروماني الأكبر قيصر المنحدر الآل من أفروديت تلقيحاً للملكة مقنعاً بقناع بشري، ويضحك اهل الإسكندرية المرتابون من هذه الأقاصيص التي تجد بين النساء والأولاد من يعتقدها.

ومن المحتمل أن تبادل الوالدان ابتساماً حينما عرضت عليهما بلاغات الكهنة للتوقيع، ولكن قيصر لم يبتسم عند ولادة الابن، وذلك لأن فلاح الخطط التي كان يضعها منذ ستة أشهر يتوقف على جنس الطفل ونجاح الوضع، وقد ظل هنالك حتى زوال الخطر عن كليوباترة تماماً، وتأتيه الرسائل الملحة من رومة، حيث يجاوز أنطونيوس الحد في الطيش وحيث يظهر انهيار كل شيء، غير أنه يجب أن يكترث قبل كل أمر للفرس الذين ما فتئوا يغلبون الرومان في آسية الصغرى مثل آبائهم، وترسل أسينويه أسيرة إلى رومة لتعرض في موكب نصر

قيصر، وتبقى ثلاث فرق في مصر، ويرغب قيصر عن ترك القيادة إلى ضابط عال فيسلمها إلى عتيق، وهل كانت تمثل الحليف أو العسوف [1]؟ كان هذا هذا يتوقف على كليوباترة وعلى مشاعرها تجاه رومة.

ولما قال قيصر لها كلمة الوداع بدت له فتاة كما في الماضي، حينما خرجت من البساط العجيب، ويترك ابنه رهنا، ويتفقان على مجيئها إلى رومة في العام القدم عقداً للصلح مع الشعب والسنات، وسيكون معها زوجاً الشعري بطليموس الصغير، وإن عد كهان مصر قيصر زوجاً لها أيضاً، وذلك على حين لم يعوز مستهزئي الإسكندرية كتابة كثير من الأهاجي على الجدران حول موضوع أمون الروماني، وكان الكثير يقولون إن مصر ستحول بابن قيصر هذا إلى مستعمرة بسيطة أبد الدهر، وكان آخرون يرون فيه رمز حلف، وكان فريق ثالث يخشى مصيراً سيئاً لمصر إذا ما أصابت قيصر مصيبة.

ولما انصرف قيصر جلست كليوباترة في كوة متعقبة كما في الماضي، وقد عامت السفن وخرجت من الميناء، وتعرف قيصر في أكبرها، وتعرف ماذا يفكر فيه أيضاً، وذلك لأنها تفكر في الأمر نفسها، وكان عشيقها يرقب شبحاً مثلما ترقب، وكان يود أن يتبين الملكة عند نافذة القصر، وكان كل منهما يفكر في الآخر، يفكر في هذه المغامرة المحيرة التي يظهر أنها معدة لتغيير التاريخ.

وهذه ملكة مطرودة أنقذت بعبقريتها وفتونها، فعرفت المخادنة والغرام والأمومة في بضعة أشهر لدى رجل يكبرها بالسن ثلاث مرات تقريباً، وهذا قائد منصور أنقذ من خطر حائق فعاد إلى شبابه عن حب ومال إلى السلطان والحياة

[1] العسوف: الظلوم الشديد العسف.

وصار أباً! ولكن الملكة وقيصر بحثاً عن اللقاء على الخصوص لينقلا العالم إلى ولدهما، ويا لها من أفكار جريئة! ويا لها من مسابقات جبارة لطموحين مقحامين حول البحر المتوسط!.. بيد أن روحهما تعود إلى تلك الساعة السرية من وجدها الأول.. ويستحوذ غم عظيم على الرجل النحيف تحت شراعه وعلى الأميرة الصغيرة عند نافذتها.. وتزيد المسافة سريعاً.. ويخافان سوء المصير، ويخيفهما عدم التلاقي، ويبدو صامتاً أدجن الناظر عن ارتياب من المستقبل فينظر، واقفاً على صدر السفينة، إلى تلك الغرفة من القصر الكبير ولكنها تظل قاعدة عند نافذتها متعقبة موصوله اليدين بين الجدار المرمري وخصل شعرها السود، وكانت مؤمنه بالنصر، مؤمنه بالمستقبل فتبتسم.



الفصل الثاني

زوس[1]

"وما الفائدة من تمتماتي! ومن ذا الذي لا يعرف قيصر؟... يا له من رجل عظيم خالص صالح قوي قادر من غير ازدراء! هو ثابت الجنان فلا يقاوم هو حكيم مطمئن إلى نجمه رزين ذكي الفؤاد.. هو مثال كل عظمة إنسانية". "غوتة".

(1) زوس : الإله الأسطورة الأعلى.



١

الصيف ثقيل في رومة، والإنسان، إذا ما تعود ريح الإسكندرية اللاذعة التي تميز هذا المصر من جميع موانئ البحر المتوسط، شعر بوطأة الحر المضاعفة على نهر التيبر [١] الذي هو وليد المناقع الوبيل، ولذا يترك أغنياء الرومان مدينتهم إطالة للأشهر الحقلية على جبل ألبان [٢] حيث يفرغون، تحت ظلال شجر الغار والسرو، لما يفتن العاصمة من أعمال ومكايد، ولهذا فوائد في غير حال، ومن ذلك أن الشعراء في هذه المصايف الغنية يخلدون من يرويهم عن دراية ويعرف أن يحيطهم بنساء، أجل، مات كاتول [٣] الذي كان يأتي بالمقطر من الخبث وخلع العذار، ولكن ظهر فرجيل [٤] الذي كان ماهراً أيضاً في قول أمور كثيرة من غير مس كما ظهر الشاب هوراس [٥] الذي لا يقدر أحد أن يعرف الحزب الذي يقصده بأدبه الظريف.

ومع ذلك فإن ما ينفق على الخليلة فإنه يعود بما هو وكيد أكثر من ذلك، أو ليس الأمر مسألة مال؟ وهل رأيتم منذ سنين كثيرة فقيراً يصير قنصلاً أو ناظراً

---

[١] التيبر: نهر يمر من رومة.

[٢] ألبان: جبل بإيطالية الوسطى.

[٣] كاتول: شاعر لاتيني (٨٧ –٤٧ ق.م).

[٤] فرجيل: أشهر شعراء اللاتين (٧٠ – ١٩ ق .م).

[٥] هوارس: شاعر لاتيني مشهور (٦٤ – ٨ ق.م).

للمبـاني العامـة؟ والغايـة التـي يجـب أن يهـدف إليهـا هـي ان يقـرض مـال كـسباً لأصوات وفوزاً بقوة وربحاً وجمعاً وكان كاتون يعيش كالقدماء، وكان له من الفقر مسار أدبيه، وكان له من صلاحه نعيم زاه حفزة إلى الانتحار أخيراً، وماذا كان يبلغ بونبي وكراسوس لولا الذهب؟ وقيصر! وقيصر على الخصوص! إليك من يعرف ابتياع النفوس! ولا يري من يجاوزه في هذا الفن غير رجالة، وقد شابت الجمهورية وتعبت، فيجب أن يسرع إلى قيد اسمه في قائمة الوارثين. وترى الناس على نور شفق الآلهة العام هذا يأتون ويذهبون من المصر إلى الريف ومن الريف إلى المصر فيقضون حياة سفة مع زوال المال ويبدون شوقاً إلى تذوق أعظم لذة، وذلك لأن أحداً لا يشعر بغد ولا بكيد.

على أن الناس يبقون في رومة في هذا الصيف من سنة ٤٦ لبقاء قيصر فيها، ومن إفريقية يعود قيصر قاهراً آخر أنصار بونبي في معركة كبيرة بالقرب من تيسوس[1] حيث هلك، أو جرح، الزعماء منهم ولم ينج غير الأخير من أبناء بونبي، فاستطاع أن يفر إلى إسبانية، فلما بلغ أنصار قيصر خبر هذا النصر عرضوا على الغالب امراً لم تسمع به إذن في التاريخ الروماني، عرضوا عليه الحكم الملطلق لمدة عشر سنين، غير أنه أجاب في خطبة ألقاها حين الضوضاء، يوم دخوله أنه لا يكون طاغية وأنه لا يرضى بالقنصلية والحكم المطلق إلا لسنة واحدة، ويبتسم المرتابون، ومهما يكن من أمر فإن الريح في الساعه الراهنة تجري على أطيب ما يرام.

والحق أن الرومان ينتظرون وقوع حادثين حسيين في شهر أغسطس، ينتظرون نصر وقيصر و.. نصر كليوباترة، وذلك لأن هذه الغريبة ستبصر في ذلك

---

(1) تبسوس: من مدن أفريقية، وتعرف اليوم بالديماس.

النهار عربة الرجل العظيم بين خمسمئة ألف روماني، وذلك لأن ملكة مصر هذه أتت من الجنوب ووصل قيصر من الشمال مارا من إسبانية، ولقيصر في رومة الآن أبن وزوجان، فمن ذا الذي لا يريد رؤية الجميع؟ ولا يبقى ضمن اللحن بالأقل من النفقة.

ولم يكن لكيلوباترة غير صوت قليل منذ سنة حين تركها عاشقها قيصر فملأ الجو بضجيج انتصاراته، وتكتفي بتغذيته ابنها، الذي دخل العام الثاني من العمر، وتربيته وتعليمه السير على المركب إذا ما كان المركب غير كثير الحركة، وقد عرفت بعد كثير من الزوابع أن تسكن بلدها بعض التسكين، أو تهدأ على الأقل بضع مئات الرجال الذين يتوقف عليهم مصيرها، وتحسين الكتائب الرومانية حماية أهل الإسكندرية، ويؤثر في هؤلاء الأهلين نفوذ قيصر، ويتمتعون بشيء من الاستقرار فيقنعون بأسطورة ملكتهم في آخر الأمر، وبما أن جميع الناس يكسبون مالاً عن تموين رومة فإنهم لم يعتموا أن تملئوا كون قيصر ابناً لامون حقاً وكون ولي العهد سليل الآلهة بواسطة أبيه وأمة.

وأما هي فلما أبصرت قيصر قد نصر في معارك آسيه الصغرى نصرا باهراً، وذلك بعيد سفره، عزت إلى غرامه، أو إلى أمومتها على الأقل، فضل عودة إلى الشباب، فكأن الروماني لم يكسب معركة قط قبل أن يعرف كليوباترة! أجل، علمتها رسائل قيصر أموراً كثيرة، غير أنها كانت تحاول أن تعرف أكثر من ذلك بواسطة عمالها، وكان يجب أن تعلم أسماء جميع النساء اللائي يقتربن من معشوقها ووجوههن، وأن تعلم أين يعيش، فتعين عيوناً في رومة لهذا الغرض وحده، ويرجع إلى رومة بعد انتصاره في فرسالوس بأربعة عشر شهراً فتعلم أنه عرف أن يعيد النظام، أو السكون على الأقل، إلى نصابه، وصولاً إلى قهر وراثي

بونبي الكبير بعد شهرين، مع ما كان من طول الفاصلة العجيبة في مصر، وهنالك يدعوها إلى الحضور بعد عود نهائي إلى العاصمة، ما جاز له الآن أن يحكم كسيد مطلق وأن يحقق، ولو بعد حين، حلم شبابه الحار فيسير على غرار الإسكندر ويسيطر وحده.

وحده، ومن أجل واحد مع ذلك، ما دام ذا وارث! هذه هي الفكرة التي كانت تحفزة عامه، ولما فطن تحت الخيمة أو في رومة، عن ادكار أو مقارنات إلى التي وضعت له ابنه شعر بتمازج احتياجه إلى الولد وصبابته إلى هذه الخدن [1] الفاتنة في موسم حربي، والآن تراه بالغ الرغبة في الظهور لها، لهذه الزوجة الثانية، ببهاء نصره الذي أخره في السنة الماضية، والآن يعزم، كسيد، على سحق كل من يخالف هذه الرغبة.

يوحف من حوله أعضاء السنات وأكابر القوم بكل ما في الجمهورية من أبهة، فيستقبل الملكة مع أخيها وزوجها، مع بطليموس الصغير البالغ من العمر اثني عشر عاماً، ومع بطانة يزري بهاؤها الغريب بالرومان حيرة وغيره، وكان سيد رومة قد أعد في حدائقه الغنية على ضفاف التيبر، حيث حديقة دوريا رنفيلي تصعد اليوم نحو جانيكول[2]، مغنيا [3] مشتملاً على كل نفيس ليقابل ما تمتع به من قرى على ضفاف النيل، وكان يعني بكثير من دقائقه بنفسه كأن يزيح كرسياً من محله أو يكمل أثاثاً تذكيراً بالقلعة العائمة، وكان حينما ذهب ليراها وحدها مساء وصولها، وذلك في طريقه من منزله الكالح في الفوروم إلى هذا المغني

---

[1] الخدن: الجبيب والصاحب للمذكر وللمؤنث.

[2] جانيكول: أحد تلال رومة السبعة علي ضفة التيبر اليمني.

[3] villa.

التابع للهوى، وذلك في محمله السريع، يشعر، عن شهوة، بالحياة المضاعفة التي بدأها في ذلك اليوم التي تفتن ملاحتها روحه الكالة.

وكان عند تنورة كليوباترة كما رآها حين الاستقبال يجدها فتاة كما في الماضي حين خروجها من البساط، ولكنه يستحوذ الآن على روح قيصر رغبة تسيطر على ما سواها، رغبه في رؤية ولده، هذا الابن الذي يشابهه عند تصديقه رسائل الملكة.

ولما وقف المحمل تحت شجر العفص القديم على نور مساء من شهر يوليه، على نور أحمر بخاري، لم يكن أحد عند الباب الحديدي، وكان لابد من أن يكون قد اعطى أمرا، وكان يلوح انصراف جميع عبيدها، وقد صرف عبده بحركة، وقد دخل وسار من الرواق العريض المؤدي إلى المغني، وينظر إلى الدغل[1] مسروراً منتظراً حدوث رعونة، ويا لعذوبة ما يبدو هذا لقيصر الذي لا يلاقي غير الهلع وحب الاطلاع! وبينا هو في نصف طريق المنزل إذ يسمع صفيراً خفيفاً صادراً عمن يريد نداء.

وتكون كليوباترة جالسة على المقعد الرخامي الأبيض تحت ظل الصنوبرة الكبيرة، ويكون الطفل بجانبها بالغاً جيدها، ولا تستطيع النهوض عن وضع ذراعها حوله، ولكنها تبتسم لقيصر فينتفخ فؤاده بما لا يوجبه سلام الجمهور أو تحية الكتائب، وينظر إلى الابن بعد الأم مبهوتاً، ثم يرجع البصر إلى الأم فيجد في الولد ملامحه، لا ملامحها، يجد فيه ملامح قيصر الزمان، لا ملامح قيصر الولد، وما في الطفولة من ذوي يشابه ما شاب فقي قيصر، ويحار الصغير فينظر بعينيه السوداوين إلى هذا الغريب الذي يقبل.

---

[1] الدغل: الشجر الكثير الملتف.

ويذوق قيصر حلاوة تلك الفينة التي أعدتها الآلهة له بعد كثير من المخاطر والمعارك، ويعرف، مقدار قصرها مع ذلك، ويمازجها طعم الوداع كما يقع وقت غروب الشمس حين يسأل: هل يرى الفجر القريب؟ ويشعر، كما حدث يوم سابق افتراقهما، بغرقة في لجة من السوداء، لم يسطع دفعها وإن حاول الابتسام. وهي التي كانت في ريعان شبابها كما في الماضي، وهي التي كانت ظافرة، وكان هذا الرجل القادر الذي رأته اليوم في جلال مجده قاعداً بجانبها في أقصى حديقة غارقاً في نظرة إلى الوارث الذي كانت قد وعدته به، ثم رجع بصره إليها مع تحد صامت كانت قد لاحظته بين مطاوي شفتيه المزمومتين في أثناء الاحتفال الأكبر، أجل، كان ملك رومة، وقد أخذ الحلم يتحقق.

٢

وما كان مواج المجتمع الروماني ليظهر أكثر شراً، وكان الجميع يتقاطر إلى المغنى، وراء نهر التيبر، لرؤية الملكة الأجنبية وانتقادها، وكان بعضهم يعدها مصرية، أى ابنه هذا الشعب العابد للحيوان وإن كانت تتصرف إغريقية كما هي، وكان بعض آخر يهزأ بأصلها ما دامت هذه الملكة المزعومة ابنه لنغيل بطلمي وأم مجهولة تماماً، وتجمع الديون التي تركها أبوها "الزمار" السكير وراءه في رومة، ويسأل: هل أتت لتأديتها؟ وتصبح زوج قيصر، التي لم يعرف قدرها! وتصير أخت كليوباترة الصغرى محل رأفه زائفه أيضاً، هذه الفتاة البائسة التي تنتظر، منذ عام هنا، يوم جرها في موكب نصر الغالب! وأما كون الملكة غير جميلة فأمر اتفق عليه جميع النساء وفريق من الرجال، ومهما يكن من أمر فإنها دون نحو عشرة من أصيلات الرومان، وكل ما أجمع الرجال والنساء على الإعجاب به فيها هو المكر والخالص الذي حملت به هذا البالغ ستين سنة من عمره تقريباً والمعدود عقيماً منذ زمن طويل، على اعتقاد كونه أباً لابن ضابط مرافق لا مراء.

وكانت تتألف بطانة من المصانعين حول كليوباترة، وكان أمر هذه الملكة الشرعية، التي اعترف بها الطاغية حظية رسمياً، غير أمر ملك مبعد كأبيها الذي غرق في الديون إعادة لتاجه! وإذ إنه لا يعرف ماذا يحمل الغد لقيصر فإنه لا يخاض في أمر خليلته، أجل قد تدل هذه العلاقة بامرأة أجنبية على عدم الهدف

إلى العرش، ولكن العكس هو الذي يظهر، فمن يرى الاثنين في حفلة كبيرة، يبصر أنه إزاء زوجين ملكيين فيرتجف المرتابون من المستقبل القريب.

ومع ذلك لم يكن، عند عدم العمى، غير الحيرة من حذق، واعتدال، الملكة الأجنبية التي عرضت لثرثرة الناس كثيرا بحماقاتها فيما مضى! وكانت زينتها تنم على ذوق سليم وهي لم تظهر غير كثيرة الحشمة عن عدم ظهور على الطراز الروماني، ولم يعبها الكتاب والشعراء الذين كانوا يضمرون لها شرا في علمي إقامتها برومة على خلاعة أو حركة أو كلمة تؤدي إلى سوء سمعة، ولا عجب، فقد كانت تمعن في التحفظ، ولا تهدف إلى غير غاية لا تبلغها إلا هنا.

ولم يفرض المجتمع الروماني عليها في ضميره أكثر مما تفرض بنفسها، وذلك لما تعرف من مكايده، ومن الطبيعي أن كان هذا الدرس، همها الأول كمصرية تعودت أن توجه أبصارها منذ الصبا إلى رومة التي هي مفتاح سلطانها، وقد سرها أن تبتاع العظماء الذين كانوا يعتصرون المال من أبيها فتستعين للوصول إلى هذه المصالح بامونيوس الذي تركه أبوها الملك في العاصمة، الذي كان، وهو الجاسوس الشرقي الحقيقي، عارفاً بما في الجمهورية من ألوف المحالفات الخفية والأحقاد الأسرية.

وكان هدفها الأكبر أن تعرف الأهواء التي يمكن أن تؤثر في مستقبل قيصر على لاخصوص، وأن تسبر غور أصوله الرومانية من سهولة حكمه في أمر كل فرد، وكان عليها أن تسير بخطتها العالمية نحو النجاح على الرغم من تحالف أناس كثيرين وتألب مصالح غير قليلة، وكان عليها أن تقوم بهذا العمل مع ابنها! وكان عليها، وهي الكوكب الثابت والشهاب [1] المنفرد، أن تبعد النجم المذنب

---

[1] الشهاب: الكوكب عموماً.

من جاذبية إلى برج، وكان عليها، إذن، أن تعرف هذه البروج وطبيعة جاذبيتها معرفة أساسية.

وتستقبل الزوار في حدائقها برومة في الأشهر الأولى، ويلوح أن المجتمع الروماني قد تعود فتور رقتها، ولكن أنطونيوس لم يظهر بين زائريها، فقد كان يحقد على قيصر لتعزيز قيصر إياه بشهدة فور رجوعه من مصر، ولما اتفق لأنطونيوس من الشأن ما لا يفضي معه على مثل هذه المعاملة، وكان يمكن قيصر أن يعفو عن ألف خطيئة اقترفها باسمه في أثناء غيابه، ولكن ابتياع أنطونيوس قصر بونبي الميت وتماثيله اليونانية وقبوه من غير أن يدفع فلساً هو من الفضائح التي لا ينبغي لأنصار بونبي أن يستغلوها ضد نظام الحكم! ويلح قيصر حول ذلك، ولا يريد أنطونيوس أن يتلقي أمراً، ويتبادلان قوارص الكلام، ويتهاجران، ويترك قيصر أنطونيوس ويختار لنيابة القنصلية دلابلا العدو لأنطونيوس عن قصة نسوية، والآن يزمجر أنطونيوس في رومة ويتوعد قيصر، ويدور بين الناي قول عن عزمة على قتل صديقه ومولاه، وتدرس كليوباترة المجتمع الروماني، ولما دخل شيشرون ساحة الملكة نظر كل منهما إلى الآخر محترزاً، وقد سألت الملكة في نفسها: "أو لا يزال صديقاً لقيصر؟"، وأما قيصر فصار يصمت منذ زمن إذا ما حدث عن هذا الماحمي، وترى كليوباترة أن شيشرون لم يهاجم قيصر في قضية كاتيلينا [1]، وأنه لم يجرو على هذا، وأنه اقترض منه مالاً بعد حين، وتسمع كليوباترة أنه كان قد نفى مع الإكرام ذات مرة، ولكن ما معنى "مع الإكرام" في رومة هذه؟ من ذا الذي لم يبعد، ذات يوم، من جميع هؤلاء الذين يحوكون الدسائس في هذه الحدائق هذا المساء؟ ويظهر أنه نال مالاً في آسيا الصغرى

[1] كاتيلينا: شريف روماني حاك المكايد ضد مجلس السنات (١٠٩ –٦١ .ق..م).

كالآخرين على الرغم من خطبه العظيمة في الأخلاق، ومن ذا الذي يكون قد دفع ثمن مغناه الجميل إذا كان هذا غير صحيح؟.. ولكنها أخذت تضحك، وصار يحدثها بطلاوة عن نصوص أصلية يمكن أن تكون قد أنقذت من حريق مكتبة الإسكندرية فوعدت بالبحث عن ذلك في الحال، ثم تبدو حادة البصر، فقد رأت شابين طويلين يدنوان، وترحب بهما.

وتقول كليوباترة في نفسها وهي تتمالك مدا ليدها إلى الأكثر ضموراً: "هو ذاك هذا الغلام البالغ من العمر ستة عشر عاماً ما دام قيصر يحدث عنه حبيباً، وهو اكتافيوس[١] مع صديقه أغريبا [٢] وما الذي سفتن قيصر في ابن الأهذا؟ وهي تمعن النظر فيه، فتجده سيء الهيئة متسخ الوجه، قشف الجلد، ناقص الغسل، رث الثياب، مع هم حول صحته وولع بالكتب، ومما يقف النظر ما كان من التماع عينيه ببريق من الشهوة ينم على عيوب خفيه فيه، ولو لم يخرج مرابي فلتري [٣] الأكبر، وهو جده، مالاً من جيوب الناس ما استطاع أبوه أن يتزوج بابنه من آل قيصر الأشراف.

وتقول كليوباترة في نفسها: "أعرف رغائبك الخفيه يا أكتافيوس! وإذا كنت لا تستطيع أن ترحث حقل قيصر الآن فإنك ستحاول نيل حصاده على الأقل! ويكون ثمن السلطة الذي تدفعه غالياً!".

وتؤخذ بفكر مفاجئ فتأمر جارية بأن تحضر ابنها النائم وتمسكه تحت أنف أكتافيوس المتنسم، ولا يرى المراهق الكامد ذلك السهم الهائل الذي يرمي به

---

[١] أكتافيوس: هو اسم أغسطس قبل ارتقائه العرش الروماني (٦٣ ق.م – ١٤ ب.م.).

[٢] أغربيا: قائد روماني (٦٣–١٢ق.م).

[٣] فلترى: مدينة في إيطالية.

من العينين الذهبيتين، ولا يوجه أكتافيوس، هذا الغلام الذي كان في السادسة عشرة من سنيه، هذا الابن لأخت الطاغية ومجاره، أبصاره إلى غير ملامح ابن قيصر، ويمر، كما يشعر به، على هؤلاء الثلاثة ظل من الحوادث القادمة الواسعة التي لا تزال مبهمة، مع حسها قبل الوقوع، ولكن مع انتظار أغربيا دقيقة لتقديم نفسه.

وتقول كليوباترة في نفسها ناظرة إلى ابنها: "هو لا يغفر له وجوده، وهو إذا ما طمع أن يكون وارثاً لقيصر العاطل من الولد لم يسطع غير الحقد على ابنه، فليتضاعف حراسة السرادق".

وإليك زائراً جديداً يأتي، إليك رجلاً غريب الطبع تمد يدها اليسري مضطرة إليه ما أمسكت أبنها بذراعها اليمني، وذلك حين ذهاب الشابين، ويتأمل الأجنبي في الصبي النائم رزيناً، وتقول الملكة في نفسها أنها تحفز رومة إلى الكلام لانها تستقبل زائريها حاملة ابنها على ذراعها، وهي تعرف هذا بأحسن مما في أى وقت كان، والحقد الذي تشعر به نحو أكتافيوس هو الذي يدفعها إلى هذه الحركة في هذا اليوم، والآن تطيل هذه الحركة ما أرادتها المصادفة، فالذي يبدو أمامها يعد ابناً لقيصر، ويسمي بروتوس.

وتستقبل بروتوس هذا صبوراً، وذلك لأن قيصر قد حدث عنه، وهو شهم لم تكد يبلغ الثلاثين من سنيه، وهو لابد من أن يروق هذه المرأة الفتاة يعينيه النافذتين، ولكنها ترفضه حينما تفكر فيها يجب أن يكون عليه غراماً ما فكرت دوماً فيما يكون عليه الرجل آنئذ إذا ما أردات الحكم في أمره وما شعرت بإن بروتوس لا يهب نفسه أبداً.

وهي تقول في نفسها مفكرة: "ومهما قيل فإنه ليس ابن قيصر مع تشابه عيونها، أو إن قيصر لم يكن غير وسيط لهذه المرأة كما كنت له ".

وتبدو كمن يريد فصل الاثنين فتسلم الولد الجارية وتصغي إلى بروتوس، وفي هذا المجتمع لا تبصر من يتكلم عن المبادئ سوي بروتوس، واليوم يبين ضرورة تربية ابنها وفق آراء، فيثاغورس [١] لكي يتعلم محاسبة ضميره في كل مساء من حياته، وتلوح الملكة ملقية سمعها إليه، فتقول "نعم "برأسها حيناً بعد حين، ولكنها لا تري أمامها في الحقيقة غير غيور سلك سبيل الصواب تجاه ما لا يعرف من غرائز الشوم.

وتقول في نفسها كابنه إغريقية: "هو واحد من غلاظ اللاتين! وما الذي لا يفسره خلقياً! وهو يكون مع بونبي، مع قاتل أبيه هذا، في بدء الأمر لأن النظام والحق يسيران مع بونبي كما يقولون! ومما يؤكد أنه كان يقرأ بوليبوس [٢] قبل المعركة بدلاً من أن يدفق في سروح فرسانه، ومع ذلك فإن قيصر أمر باستبقائه إذ ما أسر، ولما انحاز مغلوباً إلى قيصر، أحسن قيصر قبولة، وهو ينتحل الرحمه فيبحث عن المرأة لدى أعداء قيصر الزرق فيتزوج ابنه كاتون التي هي أرملة عدو لدود!.

ولكن بروتوس يحدث الملكة عن فارون [٣]، ويسأل: هل قرأت الكتاب الذي ألفه احتجاجاً على لاتبرج الشرقي وإشادة بذكر البساطة الرومانية القديمة؟ كلا، لم تقرأه، وليداوم بروتوس، فهي تفكر بدلاً من أن تستمع إليه: "ويا لقلة

---

[١] فيثاغورس : فليسوف ورياضي يوناني ظهر في القرن السادس قبل الميلاد .

[٢] بوليبيوس: مؤرخ يوناني مشهور (٢٠٤ – ١٢٢ ق.م).

[٣] فارون: عالم لاتيني (١١٦ – ٢٧ ق.م).

الذوق! ويا لكفاية النسب! ويا للصلاح المصنوع! ويا لإقراضه رجالي في قبرس بفائدة ٤٧ في المائة حينما كان حاكما فيها! وقيصر.... أجل، قيصر يغفر له كل شيء! فكأنه يشعر بأنه مبجل من قبل هذا الغطريس النصير لبونبي، وقد قال حديثاً إنه يريد نصبه قاضياً! وقد تبسم عندما أبصر حيرتي وصرح لي بأن على الإنسان أن ينسي عداوته السابقة! حياة بلا انتقام.. يا له من شقاء! هذه هي أحسن وسيلة لتأييد المؤامرات! كان لنا ما يكفي منها في الإسكندرية! يظهر أسوأ المؤتمرين من هؤلاء الخلقيين! يحب تحذير قيصر.. ولو كان هذا ابنه الخاص!.. وما الذي يثبت أن هذه ابنه؟ كان لسرفيلية الظمئة هذه فؤاد واسع جدا فلا يعرف هل كان بروتوس ابناً لقيصر حقاً.. يعتقد قيصر أن بروتوس منه، ولكن بروتوس الذي يرى وجوب شرعية كل شيء، لا يعتقد ذلك ويا للعداوة في كل مكان! ويا للأحقاد! أو لا يزال يوجد صديق لقيصر؟

٣

كانت كليوباترة تتخذ في مغناها، في كثير من الأصباح وضعاً نموذجيا للنحات أركلاوس [(١)]، وبما أن التمثال قد زال فإننا لا نعرف كيف كانت الملكة تلبس في تلك الأحيان، ولكن بما أن قيصر هو الذي أمر بصنع الأثر فإن ثوب النموذج يكون قد جعل على شيء من الإيجاز، وليس لدينا غير تمثال نصفي صحيح وقطعة نقود قديمة رديئة لتمثل جمال الملكة في ذلك الزمن، وكان لكليوباترة مثل نصيب الإسكندر لافتقاره إلى شاعر كبير، ولافتقارها إلى متفنن كبير، ولذا يكون الخيال في الأمر أكثر انطلاقاً، وهل بدأ بالتمثال بعد الأوان؟ وهل كان عمل المعلم يقطع، غالباً، بالزيارات أو بأهواء مثاله؟ إن الذي لا ريب فيه هو أنه لم يعرض للأنظار غير ناقص وفي أحوال غريبة.

وكانت رومة تغلى بحمى الانتظار في تلك الأسابيع الأولى، مع أن من طبيعة حر الصيف أن يخلى شوارعها، وكانت الملكة تحب الخروج متنكرة متبوعة ببعض الخدم، وكانت تعرف أن قيصر يجعل من الحفظة من يحيطون بها، ولكن مع إظهار عدم الظنة، وكانت في مدينتها الإسكندرية تجهل كل الجهل حياة الفقراء والعبيد، فيذهب بالها حتى وجودهم، وأما هنا فتدرس أمور الصغراء لتوقف سلطان قيصر على أصواتهم، أو على مزاجهم على الأقل، ولاستطاعة

---

(١) أركلاوس: نحات يوناني عاش في رومة منذ زمن كلوديوس.

خصوم قيصر السياسيين أن يحولوهم عنه، وكانت تنزل إلى الناحية من الشارع بعيدة من أعين الحراس فتوغل في الأحياء الغامضة مع جارية واحدة، وبالظهور كل شيء ضيقا ملتويا وعرا لها! وهنالك جمع كثير من الغلمان مزروبون في ذمى[1]، ولم يكن في العاصمة غير ثلاثة شوارع صالحة لسير العربات، ولم يكن للعربات أن تمر منها في غير الليل نظرا إلى شدة الزحام، ويقصف صوت العربات بعد الغروب، وتعرف الملكة ما يحط من خشب ورخام مع بعاق وعلى نور مشعل ضئيل، وتدهش من أعصاب رومة التى تصبر على هذا الضجيج نائمة، ويا لكثرة ما يملأ بلدها من مخازن السلع في هذه العاصمة الطلوب!

ويا لزجاج الإسكندرية ونسجها! ويا لبيوت البردى الذي نبتت أليافه على ضفاف النيل!.. ولكن يسمع خرير ماء رومة العجيب بين هذه البضائع التجارية كما كان أبوها قد قال لها، يسمع فيض الحياض، يسمع هذا الماء المائج الذي يلوح تعطش القوم إليه فيجلبونه بالقنوات حتى موائدهم.

وترى مساكن الفرسان الخربة بين المخازن، وقد سقطت في أثناء الحرب الأهلية بين أيدى مغامرين مثرين، وقد أخذ أعظم الخبازين برومة يقيم من الولائم السياسية في قصره ما يغرى صداه حتى قيصر، وقد علمت من كان يشرى من سورية ليدخل إلى بلاد الغول، ومن كان يضارب دائنا على الفدى، ومن كان يعطى حقولا محاولا تسكين طبقات الجنود القديمة التى لا يروى لها غليل، وقد أبصرت القصر المرمرى للفارس مرمورة الذي كان يريد أن يصنع أحسن مما صنع لوكولوس [2] فمدت أما منزله ألف مائدة وقدم حزب قيصر عليها مائة بقرة طعاما

---

[1] الذمى: الرائحة الكريهة.

[2] لوكولوس: قائد رومانى أشهر بترفه وأناقة موائده.

لمجامع الشعب، وقد بدا لها كل شيء يعج بالناس في رومة الشديدة الحر، والمعابد وحدها هي التى كانت تظل مهجورة.

والواقع أنها اكتشفت في شوارع رومة ما كانت تعلمه متفرقا أو ناقصا من المجتمع الرومانى الراقى، والواقع أن أنفها وعينيها النافذتين كشفتا عن تلك القصور بأحسن مما تكشف الخطب الطويلة، فأبصرت تداعى الجمهورية وكذب الديمقراطية وتعفن المبادئ القديمة وغرق كل شيء في الفساد، وعادت مساواة بناء الوطن لا تكون غير ظل ذابل، وصار كل أمر يقضى بطائفة من الأفاقين، فإذا ما قابلت بين قيصر وهؤلاء الرجال بدا لها عظم قيصر.

وتسأل الملكة في نفسها: "أولا يزال يوجد آلهة في رومة ؟"، أجل، إن الشعب هنا قد أضاع إيمانه الدينى القديم كما أضاعه في عاصمتها، غير أن ضربا من الاتفاق الضمنى كان يمسك الطقوس التقليدية، وهنا في شارع رومة، كان ميترا [1] يلاقى إيزيس، فبينما كان المؤمنون بالإله الفارسي يقومون بشعائرهم كان إيزيس يمر ناشرا قطرة قطرة لبنا يسأل من صدره الذهبى.

ومن المحتمل أن سمعت الملكة في دار التمثيل هذه الهتافات الصاخبة التى كانت تحيا بها، دوما، أشعار إنيوس [2] القائلة إن الآلهة لا بتالى بهمومنا أبدا، ومن المحتمل أن كانت هنالك أيضا حينما ألقى متعوقا في الأخلاق من أعلى دريجته قوله إلى هذا المثل الذي كان يحدث عن جرائم ديانة [3] متهانفا[4]: "أدعوا الآلهة أن تهب لك ابنه تقترف جميع الكبائر!".

---

[1] ميترا: إله الهند في العصر الويدى.

[2] إنيوس: شاعر لاتينى (٢٤٠– ١٦٩ ق.م).

[3] ديانة: من إلهات الرومان كما جاء في الأساطير.

[4] تهانف: ضحك باستهزاء

وكان كل واحد في زمن الانحطاط هذا يشعر بأنه جبرى ما كانت الآلهة لا تحرك إصبعا لمساعة أنصارها.. والأمور التى لم تزل محل اعتماد هي النجوم المذنبة والأحوال الجوية والحوادث الغريبة والهزات الأرضية، أولم يقل الحبر الأكبر قيصر نفسه في مجلس السنات إن كل شيء ينتهى بالموت؟ حتى إن هذا يعبر عن رأى الرومانى المتوسط، وهو القائل: "اصنعوا مثل قيصر، فتمتعوا بالساعة الحاضرة، وألقوا بأنفسكم في نشوة الفينة، وذلك لأن قيصر يعرف في الأعياد، وإذا ما فعل في سبيل الجهورية أمرا فضلا عن المتجرة [1] أطلنا سلطانه المطلق، وقيصر أكرم من يوني وكراسوس وسيلا مجتمعين".

وما أذكى قيصرا! فقد حكم على التبرج بقانون لم يزعج أحدا، فتزيل الهيفاء درة من الثوب أو سنتيمترا من الأرجوان، وكان العامل راضيا، وكان قيصر يتخمه بألعاب السرك [2]، وكان يريه التماسيح التى جلبها من النيل، وقد بلغ من هتفوا عشية لمصرع مصارع بخراطيم الأفيال من شدة التأثر ما دمعت معه عيونهم.

وتعود كليوباترة من نزهها في أحياء رومة مبهوتة، وتشعر هذه المنشأة في بيئة من السم والخنجر والغريبة بعيدة من الأفلاطونية بنفر من هذه المهزأة الرومانية، ولم يعتقد هذا الشعب وهذا المجتمع أن من الضرورى أن تطلق أسماء قديمة كريمة على مختلف أهوائنا؟ ويا للخداع! وكان قيصر يلوح لها أنه الوحيد الذي يشاطرها براءتها الماجنة، ولو لقيته هنا للمرة الأولى من حياتها لأحبته من أجل استقلاله النفسي، وهو الذي لا يضعفه ارتياب، وهو الساحر فطرة.

---

[1] المتجرة : موضع الاتجار

[2] Circus, Cirque

ولكن بروتوس، هذا الذي يشعر بضرورة تزكية نفسه أمام ضميره كلما قلب سترته، كان على العكس مكروهاً عندها لهذا السبب الخلقي عينه، ولما أطلعت كليوباترة في الكايبتول على الجد الذائع الصيت لهذا الرجل الفتي، على هذا الذي كان قد قتل آخر ملوك رومة، أخذت تنفر من منظر الكابيتول.

ومع ذلك فإن نصر قيصر بإشارة أخافت هذه المرأة، الولوع بالفؤول.

كانت العربة في الأسفل تتقدم على مهل بين هتاف الجمهور، وكان الظافر يسيطر على الشعب من علي قابضاً بإحدى يديه على أعنة عربته ومحيياً الجمهور بيده الأخرى على الطريقة الرومانية، وكانت ملامحه تبدو غبراً هرمة تحت الشمس مع إبداء ذراعه العاري عضلاً ورديه، وكان ناظره لا يبحث عن غير ناظر، عن غير ناظر الملكة التي كانت جالسة في الشرفة قريبة من امرأته، وإن الأمر لكذلك إذ تبصره من مسافة مائة خطوة يرتج ويطفر على الأرض من فوره، ويجأر الجمهور محيطاً به، فقد كسرالمحور ! ويسرع ويهرع ويزعق، وينتظر مضطراً عربة أخرى فتكون العربة هنالك حالاً ويمر في هذه المرة أمام الملكة التي أخر من أجلها موكب نصره فيبصرها ويضحك بين هذا الجمهور الذي ينظر إليه منشوقاً، ثم أراها من فوق عربته الرجل الذي يتقدمه متزن الخطأ، فيلوح كمن يقول: "هل أراد الملك المقهور أن يكسر قيده؟ اليوم لي العربة، وغداً له الموت، "ويبلغ من زهو البصر ما خبت معه هواجس كليوباترة كجدرة تهرس بالرجل، وينعق الشعب سروراً، ويتحول بعاقة إلى هذيان حين وصوله مساء إلى الفورم متقدماً في عربته أربعين فيلاً حاملاً مشاعل وهاجة.

ولكن تعطش كليوباترة إلى الانتقام لم يرو تماماً إلا في موكب النصر الثاني، وذلك لأن قيصر، الذي لم يقم مواكب أخرى قط، نظم أربعة متتابعات في شهر

أغسطس ٦٤، فكان الثاني من أجل نصره في مصر (أى النصر الذي تم له على الحزب المغلوب) وتكريما للملكة الشعرية التي حضرته في أماكن الشرف وكان أول ما تروي كليوباترة غليلها منه صورتا عدويها المذبوحين . أشيل، وبونتينوس اللذين كانا قد طرداها من عرشها، ثم رأت أمام عربة الظافر أختها الثانية الكفور أرسينويه مقيدة، وهي ما انفكت تسير كليلة، وما أسرع مرور هذه الدقائق... ولم لا يقف الوقت قليلاً؟.. هي كانت تتملأ بذلك المنظر الفظيع الذي شاهدته منذ هنية فتروي غله انتقامها، وهي تبصر في الرقم القدم تتابع الزرائف التي تعرض للمرة الأولى على الجمهور الجذل في ذلك النهار، وهي لم تفكر في غير أختها المكبلة.

وإنها لكذلك إذ تبصر صورة عمها القبرسي الذي فضل السم على الانسكار، وإنها لفي الرابعة والعشرين من سنيها إذ تشعر للمرة الثانية معنى الفخار والعار ومدلول الانتصار والانتحار، وهي بما فطرت عليه من طبيعة ألمعية مضاعفة، أبصرت في تلك الساعة مصاير بعيدة مع الارتباك، أو لم تسمع، وهي سابحة في رؤاها ما كان يزجل به قدماء الجنود في الموكب من أهازيج ماجنة لذعاً للظافر والملكة فيضحك الناس، وعلى رأسهم قيصر، منها فرحين؟ ما كانت لترى غير عنق أختها الملعونة الملعونة الملتوي وعينيها المرتدتين ورجليها وما تبذله من جهد عظيم تخلصاً من نظر الجمهور، ولما أنبأها قيصر في الغد بأن من الحكمة عدم قتل الفتاة لم تدرك كنة عاشقها.

وتحمل في الموكب صور هزلية لكاتون في الأخير من أم النصر، وتوجب بين الأشراف همس كره، ولكنها تسر إذ ترى قيصر غير "حكيم" كما كان عشيه لجرأته على ازدراء هؤلاء الآدمين الفاترين دوماً، ويبلغ وجدها غايته عندما احتقر

العوام متوجاً نصره بسيره لابسا خفاً ليلقى خطبته الرسمية، وينم احتقاره للجمهور هذا على ملك حقيقي لدى كليوباترة، وذلك لأن كياسة الملكة السياسية كانت تتحول أحياناً إلى حرص على قيادة الناس، على سياسة الكبراء والكهان والوزراء، على أخذ القوم من أربنة الأنف فيكون عضو السنات كالبهلوان والمصارع كالمحامي، ولا تفكر إذ ذاك في غير دوس الغول الشعبي وإراءاته مروضة.

وتجد تلك الأهواء سبباً للنظلاق في شهر سبتمبر، ويقيم قيصر معبداً لـ"الزهرة الوالدة"، لجده آله، فيفتحه بأعياد أزهي من جميع سابقاتها، وعاد لا يكفي بمبارزات المصارعين، فحمل على اصطراع الناس والضواري، وأعاد، بعد فصل تمثيلي، حلقة الحيالة إلى فارس فقير مصفر كان قد انحط إلى دركة السؤال بالدفوف، وأمر بتمثيل مآس في جميع أحياء المدينة بأربع لغات، ثم عرض منظر معركة مراكب على بحر مصنوع خارج رومة وفق زخرف مرفاً مصري بما لم ير من قبل، فبهذا الثوران دشن معبد فينوس.

وماذا أبصر الجمهور الذي حضر حفلة الافتتاح؟ وماذا رأى سراه الرومان هؤلاء؟ رأوا تمثالاً لكليوباترة كما لفينوس، وذلك أن قيصر أظهر لأكبر هذه الجمهورية خليلته ملكة مصر محاطة بضروب من التكريم كالتلي تبدي في أفريقية لابنة آلالهة هذه، وهو، لكي يتمتع بهذا المنظر ويرى مرؤوسيه إياه، قد أضاع فضيلته الأصلية، أضاع فضيله الصبر، فالتمثال لم يتم صنعه بعد، ومن العبث أن أبدي المثال الجميل له عذل امرأة على ذلك.

وتصفع هذه الحركة جميع التقاليد الدينية والدنيوية، وهل هذا غير دعابة من كليوديوس إذ ينكر دلالة في تمثال للحرية ليوضع أمام باب شيشرون عن عار؟ وهل هذا غير مجون من بونبي إذ ينصب فلوراه إلهة من مرمر؟ واليوم يدرك

جميع الناس، ومعظمهم مذروعون، معنى هذه الملكة المؤلهة في معبد آلهة قيصر الأسرية! وقيصر أراد ألا يضل أحد في الأمر فحمل على اداول وسام مشتمل على الزهرة حاملة ابن غرام على ذراعيها، فتدل الزهرة على كليوباترة ويدل ابن الغرام على قيصرون.

وهذا الهوى الذي ينم على الشاعر، يدل الأهلين على ما يجب أن يفكروا فيه حول خليلة مولاهم ويوجه أبصارهم، ويقدم، بعد قليل، قانوناً إلى مجلس السنات يبيح له نوعاً من تعدد الزوجات وفق عادات الشرق، وما بلغه من عمر، أوجب فيه تحرزاً عنه الفراق من نتائج مكدرة، ويتخذ من التدابير ما يضمن عد ابنه شرعياً في رومة كما في الإسكندرية، فيبني من الأعلى ومن الأسفل مما أسساً لسلطان ذريته من حيث الدن والقانون.

وذلك لأنه كان يهدف إلى هذا، وكان تأسيس أسرة مالكة له أشد رغائبه، وكان يفصله عائق واحد عن الهدف قبل موته بثمانية عشر شهراً.

٥

تـصير كليوبارتـة غيـر صـبور مقـداراً، ويزيـد حـذرها علـى قـدر، وهـي كلمـا أبصرت قيصر يجرو خفق قلبها وكثرت ريبها، وهل بقي للجبار أصدقاء؟ لقد لاح اتساع الهوة التي تفصلهما عن المجتمع بسرعة في أثناء هذا الخريف، ويجهز تمثال فينوس جميع الساخطين بسهام النقمة، ويبدو الوضع واضحاً، فقد اختار الجبار أجنبيه أما لنسلة بعد أربعة زواجات رومانية لم تسفر عن غير ابنه زالت منذ زمن طويل، وأى شيء أقرب إلى الطبيعة من أن يتوج ملكاً لهذه الملكة؟ هو قد ظل القنصل الوحيد سنة ٤٥، وقد حمل على إطالة حكمة المطلق عاما آخر! حتى إن سيلاً نفسه لم يجمع سلطات بهذا المقدار! والخوف يجعل الانتظار أشد حدة، والانتظار يجعل الشك أكثر شمولاً، وتتوتر الأبصار، وتلتهب الأدمعة، وتذعر رومة أمام الخطر الملكي.

ولم تكن رومة وحيدة في ذلك، فقد تجمع الجنود الساخطون تحت إمرة ابن بونبي، ولذا عدت الحرب الأهلية غير منتهية مع دوامها أربع سنين من بداءتها، وبينها كانت خطط الطاغية العالمية سائرة نحو التنفيذ اضطر هذا الطاغية إلى مقاتله رومان برومان، وكانت فترة السير إلى العرش هذه تستلزم فصلاً بين قيصر وكليوباترة، ويسافر قيصر، وتظل الملكة عطلاً من الحماية الأدبية في رومة، وتعرف أنه تعود النصر لا ريب، ولكنه إذا ما قتل بسهم أورمح! أو لم

تعلمه السنون صيانة نفسه في المعارك؟ أو لا يزال على شيء من القوة؟ ويشتد الشتاء كثيراً، وتشتمل جبال الأبنين [1] على طرق وعرة، وكان قيصر قد مرض بالشنج فجأة في المعركة الأخيرة بتبسوس، ويفترق الحبيبان مع ضيق صدر، ولم يكن ليملأ ما يفصل بينهما من فرق كبير في العمر إلا بالتقائهما كما يظهر، وهما إذا ما تباعدا لا حت له حلماً في الكري ولم يبدلها غير رجل مسن؟

ويحاولان الاتصال بالبرد دوماً، ولكن كلا منهما يعلم أنه أحيط بعيون من قبل الآخر فيلهو بالتفكير في هذا على ما يحتمل، أفلا تخاطر الملكة الحسناء في وقوعها موقع الرضا لدى شاب روماني؟ أولا تغوي الطاغية القوي أميرة أخرى؟ غير أن الروح كفت لشغل بال قيصر في البداءة، فقد ألف في طريقة إلى إسبانية "معارضة كاتون "مصاولا النظام الجمهوري فأنثي شيشرون عليها كثيراً. ثم أخذ يكون قائداً للجيش فتوارى في المعارك مؤقتاً.

وتناضل الملكة من أجله في رومة، وهل بقي له أصدقاء أو لم يقترف خطأ كبيراً بنسيانه أعداءه دوما؟ أخذ أنصار بونبي السابقون، الذين كان لدى الغريبة ما تشعر معه بفتورهم، يجتمعون سراً، وذلك لأن كل واحد كان يأمل ما ظل مصير الحرب الأهلية الجديدة أمراً مشكوكاً فيه، وكان عمال كليوباترة منتشرين في كل مكان، فإذا ما تكلمتم في الشارع سمعتكم آذانهم، وإذا ما صممتم تعقبوكم في بيوتكم، وتطالب الملكة بإيضاح كل شيء، ولم يكن من الأهاجي الدقيقة باللغة الدارجة مالا تستطيع نفوذه، وتقضى وقتها في رقابة رأى الأحياء الشعبية ومقابلته برأى المجتمع الراقى.

---

[1] الأبنين : سلسلة جبال واقعة على طول إيطالية.

وفى المجتمع تحاول مع الحذر اكتشاف تحول المزاج، وفيم في كل وقت، والآن يهنئه، وينال الكتاب الأخير الذي وضعه قيصر نجاحا، ويود هذا الكاتب الكبير أن يبدو شهماً للقائشد الولوع، ولكنه ينتحل وضع أرسطو الزمن تجاه هذا الإسكندر الثاني فيحثة في رسالة على بقائه ابن الدولة الرومانية الأول، وتعد هذه الرسالة كتاباً تاريخياً ألف للمجد والأعقاب، ثم رأى هذا الكاتب المشهور، في اللحظة الأخيرة، حبسة وحفظة في جيبه وفق نصيحة مالي بصير.

وتكتب كليوباترة، العارفة بكل شيء، عن الأمر إلى قيصر الذي كان محبا للإطلاع كطاغية حقيق الذي كان يتلهى في المعسكر العام بهذر عاصمته، وتعلم أيضا أن بروتوس صار لا يترك صهره كاسيوس [1]، فماذا تستطيع أن تحوكه من المكايد زوجتيهما اللتين تعيشان في ظل خليلة قيصر السابقة سرفيلية؟

ولما أتى كاسيوس إلى المغني عن عدم تردد إلى الحدائق، حيث يصد الشتاء عن القعود، لما أتى كاسيوس ذو الملامح الجافية والصوت الجازم، تبادلت عيونها بروقا، ومن المحتمل أن كانت كليوباترة تروق هذا الرجل الحديدى، وإن كانت تفتنه بظرفها المرن لو لم ينتصب ظل قيصر بينهما، وقيصر هو الذي تجاهد في سبيله سرا، وكاسيوس هو الذي تعرف حقده على قيصر منذ زمن طويل، وسبب هذا آساد! والأمر هو أن المدينة اليونانية ميغارة أبت فتح أبوابها لرسل قيصر بعد انتصاره في فرسالوس فعاقبها بوابل من القذائف، وهنالك أطلق الأهلون الذين مسهم أقصى الضر زوجين من الأسود كان كاسيوس قد جلبهما من إفريقية وتركهما في ذلك المكان انتظارا لأخذهما وجعلهما يصطرعان في السرك الرومانى باسمه، ويقبض عليهما رجال قيصر ويقولون إنهما ملك لهم،

---

[1] كاسيوس: أحد قتلة قيصر، مات سنة ٤٢ ق. م

ويمتنعون عن إعادتهما مطلقا، ويعد كاسيوس سيدهم مسؤولا، وكيف يجرؤ هذا القنصل، كيف يجرؤ قيصر هذا، أن يسلبه رمز السلطان، وقد استنقذ كاسيوس بقايا الجيش الوطني في فارس مع أن قيصر ضحى بحياة الألوف من الرومان في بلاد الغول على غير هدى! ولن يغفر له ذلك!

وتقول كليوباترة مفكرة إذ ترى كاسيوس واقفا عند قاعدة عمود: "ذلك عدو آخر منسي! ذلك رجل من أنصار يونيي قد عفا عنه سريعا! أو لم يحرق كاسيوس ثلاثين سفينة من أسطول قيصر في مسينة [1] متظللاً براية بونبي؟ او لم ير قيصر أن الغيرة تشع من عيونه؟ يجده هؤلاء الشباب قد بلغ من الكبر ما لا يجوز معه أن يحور هذه الأشياء الكثيرة، وما كان أحدهم ليغفر له خيللته، وما كان البخر ليغفر له ابنه، وما كان الثالث ليغفر له أمر الآساد!.. يرفع الجميع عيونهم إلى السماء على نمط واحد عند ذكر الحرية.. حرية أبناء الوطن!.. وماذا قالوا لبونبي عندما داسها بونبي بقدمية؟ بدوا له ساجدين!.. لقد قاتل كراسوس قيصر في فرسالوس! وقد عامل بحلمة من مال إليه من جنود العدو! لو أبادهم جميعاً بدلاً من العفو عنهم ما كان عليه أن يحارب الآن في إسبانية، بد أن طموحه إلى الغد أنساه عدو الأمس، وقد بلغ من سرعة الحياة ما لا يحقد معه، والخلاصة أن غير منتقم، وهذا هو ضعفه الوحيد الذي يميزه منا نحن الملكات والملوك".

وها هو ذا كاسيوس يتقدم نحو وجيه طويل بالغ من العمر أربعين عاما فيحترز منه كما تحترز من كاسيوس، نحو بروتوس الثاني، نحو بروتوس الآخر الذي هو أكثر الناس حظوة لدى قيصر، الذي قد جعل قيصر منه أمير بحر مع شبابه، لما ظهر من حسن سيرة في البحر حين السفر إلى بريطانية ثم حين

---

[1] مسينة : مدينة فى صقلية.

الزحف إلى الفنيت [1]، والذي نصبه قيصر حاكماً لبلاد الغول مرتين فنال مالاً كثيراً، وما الذي يمكن أن يجعله ظنيناً إذن؟ زهوة، أجل زهوة الذي يزيد بلا انقطاع، وفي المجاز تفاجئ عين كليوباترة النفاذة، ذات مرة، ما يتعقب به رئيسه من نظرة ناقدة مزدرية، وما صدر عن الأصغر هذا من شرر هزئي ينم على هذه البغضاء للعشيقة فيلهبها ضد الرجل الذي تحول حظوته لدى قيصر دون انتقامها منه.

ولكن قادمة أخرى تحول انتباها عن جمع الرجال، فقد أتت لتحيتها امرأة طويلة مختالة المظهر سوداء الشعر، وتوتر كليوباترة رقبتها بغريزتها ما وجدت أمامها ابنه أخت قيصر أكتافيه التي تمقتها قلبياً كما تمقت أخاها الأصغر أكتافيوس، هذا المراهق ذا المظهر الرديء والعينين الفاترتين، وتتحدثان عن مصارعات السرك عشية، وعن نطح المريس [2] مجرماً، وتضحك كليوباترة من ذلك مخلصة، غير أن التقية أكتافية تضع يدها على عينيها، ومع ذلك فإن كلا من المرأتين تسأل في نفسها عن كون الأخرى هي الأكثر شباباً، وعن كون الشعر الأسود أو الشعر الأسمر أو الشعر الأسمر هو الأعظم جمالاً، وكل شيء في هذه المصرية، كما يسميها أعداؤها، يبدو غريباً لا كتافية الفخور لا ريب، وكل شيء في أكتافية هذه يغيظ كليوباترة لا ريب، وكلتاهما مختلفة المشاعر.

وهنالك في الأعلى، في الطبقة التي يتحدث فيها، يتساءل الناس عن آخر أنباء إسبانية مع ابتسامات كاذبة.

---

[1] الفنيت : سكان المنطقة المعروفة اليوم بالفان من بلاد الغول.

[2] المرميس : الكركدن.

٦

عاد قيصر في الربيع ظافراً، وظنت كليوباترة زوال الغيوم، ولا عجب، فقد سحق العدو في مندا [١] ولاح رجوع شبابه إليه، وكثيراً ما قص على ملكه مصر خبر ابنه للملك المغربي سببه أحبها.. فإذا صح هذا النبأ وجب أن تنساه سريعاً، لتركها إياه عند سفره عاشقاً عابساً كامداً ووجودها بعد رجوعه إليها بين ذراعي فتي! وما أمر مندا؟ معركة حامية على الراجح، وقد علمت كليوباترة من أحد المقربين لدى السيد أنه أخذ مضطراً برأس الكتائب المترددة وأنه قال وقت المساء بصوت رخيم [٢]: "لقد قاتلت نيلاً للنصر في الغالب، وأما في هذه المرة فمن أجل حياتي".

ومع ذلك فإن الحادث العظيم الذي يشغل الفوروم والمجتمع الروماني هو إصلاح بين الرئيس وأنطونيوس أكثر من النصر بمراحل ما عود قيصر الرومان إياه.

وكان أنطونيوس في الأيام الأخيرة قد حمل على الكلام عنه بما يحتمل فكان لهذا صدى كبير كليوباترة، وكان قد انتقل من حزب القيصرين المعتدل إلى الجناح الأيسر الجذري النشيط حارماً الشاخطين التقليديين آخر، دعامة يعتذرون

---

[١] مندا : من مدن إسبانية.

[٢] الصوت الرخيم : الرقيق الين.

بهـا لـشد أزر الدسـتور، وممـا رأتـه الملكـة، علـى مـا يحتمـل، أن أنطونيـوس كالخليلات المنتصرات اللائي يلحقن بالعذال للوقوع على ظهر عاشقهن ما دام حاضـراً، فـإذا مـا ذهـب للحـرب لـم يعبـأن بـه تاركـات أنـذال النقـاد يتنـاولون كـل واحدة من حركات الغائب، ثم طرن ليرتمين بين ذراعي من يعبدون، وقد امتنع انطونيوس عن الاشتراك في غزوين، وقد أثارته جميع الأنباء في ذلك الحين، وكان لوم قيصر نصيب الزعيم [1] الذي يقترف أقل خطأ، وكان يمكن انطونيوس أن يجتنب هذا الخطأ، ولم يحضر انتصارات قيصر.

أو لـم يكـن عليـه أن يـدور وراء الظـافر؟ وراءه تقريبـاً؟ وأمـا اليوم! يـا لـذلك النصر الحديث في مندا! يا لذلك العود الجديد المجيد! في ذلك مبالغة! طار أنطونيوس إلى رئيس الأمس مذكرا بيوم الروبيكون حينما اشتركا في أكبر مغامرات حياتهمـا، والآن تتحـدث رومـه عـن كـون قيـصر اسـتقبله فـي عربتـه فقـضيا نهـاراً باجمعه معاً.

وقيصر، الأكثر انفرادا والأكبر سناً والمدرك أن دلابلا يتبعه عن غير حب لا ريـب، لـم يكـسب أقـل ممـا كـسب أنطونيـوس فـأنطونيوس يجـد الرجـل الوحيـد القادر على إنقاذه من تردده، وقيصر ينال صديقا.

ولما أنبأ الملكة بذلك رقب أثر الخبر فيها مغموماً، إذا كان قد شعر فيما مضى، منذ السفر على قصر عائم فوق النيل بأذى عن غيره من الصديق الغائب، عن غيرة ترجع إلى الماضي، فإنه في هذه المرة، وهو أكثر استبداداً وأعظم مجداً منه في أى زمن كـان، وهـو غيـر المحـاج فيـه للمـرة الأولى مـن حياتـه بالحقيقيـة،

---

[1] colonel

يشعر ببلوغه من القوة ما يستطيع أن يحجب معه كل منافس بحضوره، ثم كيف يفرق بين شخصين يثق بهما؟ كان عليه أن يوفق بينهما، وقد صنع ذلك.

وكان الربيع قد جاء حينما التقى الرجلان بالملكة، وراء نهر التبير، في وسط رواق السرو المؤدي إلى بابا المغني، وكانت تهز هذه النفوس الثلاث مشاعر شديدة.

وينظر قيصر إلى كليوباترة بعين المتصرف المطمئن، وتلوح له زيادة سعادته بإعجاب الرجل الشاب، ويبدو أبوياً نحو أنطونيوس.

ولا يشك في كون هذا يكن له احتراما حتى في مغامراته، ولكنه يتذوق طرفة الوضع ويتلذذ بتمثله عدم تأثير العمر فيه، وهو يبلغ من الشعور بحس الاتزان ما لا يفكر معه حتى في جس الآخرين: الرجل والمرأة.

ولم ير أنطونيوس أمامه غير المرأة التى يتنورها في رومة من بعد في جميع الأحوال الممكنة، من بعد، من قرب أحيانا، من قرب أكثر مما تظن، فيمكنه اليوم أن يتجرع منها النظر والابتسام والعطر، وكانت بنتا صغيرة جدا منذ عشر سنين، حينما كان في الرابعة عشرة من سنيها حول مائدة ملك مصر، وهى الآن أحب إليه مما في ذلك الزمن، ولكنه، وهو الذي لا يراها غير امرأة، وهو الذي كان فيه غير خليلة، لم يعن له أن يجرب حظه عندها، فقيصر حاضر، ولم يبح لنفسه تغيير نظام السيد قط، وقيصر حاضر، فكان يحترم امرأة الرئيس.

وكانت كليوباترة، التى يظهر ظرفها طبيعيا للزائرين فيروقهم حالا، وحيدة في إدراك أمر الاثنين، وذلك لأنها تنسى نفسها حين توتر زوجها النسوية كما في مساء البساط السحرى، وأمامها رجلان مختلفان أشد الاختلاف، وهى تقابل بينهما.

ويبلغ الزعيم [١] الجميل أشده، وهو في الخامسة والثلاثين من سنيه تقريبا، وهو جبار أكثر مما كان عليه حينما عرفته حول مائدة أبيها مزرفن [٢] الشعر لحيم الخدين، أسمر اللحية مطمئنا بادى الوفاق مع الآلهة والناس، وما ورثته عن أجدادها من خلو بال كان يفتن هذا الرجل الذي ينم منظره وحده على مسار لم يحاولها في غير أيام الحر الشديد لوقت معلوم، ولكن الآخر، الجاف والأكثر طولا والأظهر عظما والأصرم منظرا الذي صلته المعسكرات ودبغته، وذلك مع خدين ضامرين وذقن قاس وأنف مستقيم وصلع يتقدم به عشرين عاما إلى الأمام، كان يسطع قوة وعتوا فيلوح أنه بالغ من الغرائز المبدعة تجبرا لا تشك المرأة فيه طرفة عين على الرغم من كل فضول، وهو الذي تشعر بأنه المليك من الاثنين.

ففى ذلك الحين نال قيصر، وهو لا يدرى، أعظم نصر على صديقه وخليلته، على الرجل والمرأة اللذين اختارهما.

---

[١] conoel

[٢] زرفن شعره: جملة كالزرافين، وهى الحلق الصغيرة، واحدتها "زرفين".

٧

بيد أنه جاء نبأ بوجود امرأة لهذا الصديق الجديد، ولا تطيق الملكة فولفية[١] والملكة لا تدرك إمكان بحث ابنة من الطبقة الوسطى عن السلطة العليا، وبينها هي ترتقى بطموحها من حال البنت الصغرى إلى حال الملكة المطلقة، وبينا هي تعمل الآن لتصير سيدة العالم، وتبلغ من وضع نفسها فوق الشعب بما يساورها من روح السلطان ما يبدو لها ابن الوطن والعبد معه متساويين ضعة دخلا، وقيصر وحده هو المستثنى من هذا، ولكن قيصر يقول إنه سليل الزهرة، ولم يبال الجميع في هذه الجمهورية بقدم أسرهم؟ أو ليسوا كلهم أقرباء؟ أجل، إن أشهر الرجال والنساء أصهار وأنسباء، أو أزواج طلقاء عادوا إلى التزاوج وفق مصالحهم السياسية، ولم يكن عدم الأخلاق في هذا المجتمع هو الذي يثير حيرة الملكة بعد عام من وصولها، وإنما قصص الغرام التي تحاك بالمال والطلاق بين الفرق.

ولم يكن في فولفية، على حسب تعبير أحد القدماء، "من الأنوثة غير بدنها، وهي لم تفكر في غير السيطرة على سيد وقيادة رؤساء الجيوش"، ومع ذلك لم يكن الرجال الفاترون أو ذوو الطموح، هم الذين يجتذبونها ما تزوجت ثلاثة خلعاء بالتتابع وغدت والدة لأربعة أولاد من هذه الأفرشة الثلاثة، ولم تزل

[١] فولفية : زوجة أنطونيوس، وقد ماتت سنة ٤٠ ق.م.

في الخامسة والعشرين من سنيها، وأي واحد من زوجيها الأولين كان أكثر عيبا؟ هذا ما كان الناس يتساءلون عنه في المجتمع برومة، وكان كوريوس، الصديق المخلص لأنطونيوس، وقد أضاع ثروة في بادئ الأمر ثم خسر فولفية، ولم يأخذ أنطونيوس زوجه هذه إلا بعد أن اغتصب منه زوجته، أنطونيا، دلابلا الذي هو ثالث أولئك الثلاثة الشرابون الأقوياء، وكانت لهذه الحوادث نتائج عظيمة، وذلك لأن المرء يصير ناظرا أو قنصلا بسهولة عند مصاهرة هذه الأسرة أو تلك الأسرة كما أنه يصوت ضد العدو في مجلس السنات بعد الطلاق أو الخداع.

وكلما استبرت الملكة غور حياة الأحزاب الرومانية ازدرت مصدر سلطان يقوم على أوراق تصويت يمكن شراؤها دوما بتركات وزواجات وطلاقات وتبنيات، وكانت تعلق سياستها الخاصة بانقلاب يعطل قيصر به الدستور ويقيم به نظاما ملكيا.

ومع ذلك فإنها كانت من الدهاء ما لا تعتمد معه على آخر غير قيصر، وهي قد قبلت صداقة أنطونيوس وفولفية لازدرائهما أعداء عاشقها قيصر ولاحترازهما منهم كما هو أمرها، وهي قد أبصرت حسن شعورها حينما رأت أنطونيوس يمقت شيشرون، هذا المحامي الذي كان قد حكم بالموت على الزوج الثاني لأم أنطونيوس، وذلك فضلا عن أن هذا الخلقي الكبير كان يضاجع عبده المفضل تيرون.

وأما أنطونيوس فقد كان قيصر يعرف ألفا من القبائح عنه، ومن الفضائح إفراطه في السكر، ومن ذلك أن قضى ليلة زفاف الممثل هيياس في الشرب، فلما كان الصباح قاء في الفوروم، حينما كان يلقى خطبة على الشعب، ومن ذلك أن أرسل مغنيات إيقاظ أكرم الأسر في رومة بأشد الأناشيد مخالفة للأدب، ولكن

أنطونيوس في ذلك اليوم الباخوسي كان يروق كليوباترة أكثر من بروتوس وشيشرون، وما كانت لتخفي ذلك عن قيصر، فيبتسم قيصر قائلا، وعن خنو أبوي، إن بروتوس فيلسوف عميق وإن أنطونيوس قاد جناح الجيش الأيسر إلى النصر في فارسالوس، وكان لا يحدث عن أكتافيوس وحده، فقد أبصر من خلال صمت الملكة أنها لا تحب ابن الأخت هذا فيتقي، عن حسن ذوق، كل انتقاد يوجه إلى أسرته الخاصة، ولو من قبل كليوباترة نفسها.

ولكن هذه الأسرة لها الآن منافس بالملكة وقيصرون، ويبلغ هذا الصغير العام الثاني من عمره فيقول كاتب قديم: "إنه يشابه أباه بما يثير السخرية"، ولما رأت الأم قيصر يرعى ابنه بعينه وثقت بالمستقبل، ولو لاح من أحاديث الحزب وجود ما يعرقل ذلك، وتحاط كليوباترة ببحر من الدسائس، ولكن مع حماية يد قيصر لها، وتنفرد في جزيرة لا يوصل إليها، ويرقبها حاسدون عاجزون على غير جدوى، وقلما يفتح مغناها وحدائقها للزائرين، وعادت رومة لا تستقبلها، وصارت هي التي تستقبل رومة، ويدعوها قيصر في رسائله ب"الملكة" فقط.

وعليها أن تتخلص من زواجها النظري في خريف سنة ٤٥ لاريب، وتنتظر الانقلاب القيصري الذي لا يقاومه شيء، ونعرف توارى أخيها، بطليموس الشاب، في خريف عامها الثانى ذلك، من غير أن نستطيع إثبات ذلك، ولا يرى أنه كان يسهل نكاح زوجته الشرعية بتطليقها، بل كان يحدث العكس فيظهر على رأس أعداء كليوباترة في مصر ورومة، ولم تستبقيه؟ إنه لم يشاطرها ألعاب صباها ولا فراشها، وقد كانت في الثانية عشرة من سنيها عند ولادته، وأمه غير معروفة وأبوه غول، وحس الأسرة بين البطالة مفقود، وأي وسواس كان يساور كليوباترة فيقعدها عن الخلاص من الصبي الذي يقف في طريقها؟ أصلات الدم؟، ولكن ما

هـو المبـدأ الخلقـي الـذي يردعهـا مـن تـذابح الآلهـة الإغريقيـة والمـصرية التـى هدهـدتها بأسـاطيرها، بـسهولة كـالتي تقـع فـي هـذا المجتمـع الراقـي برومـة حيـث تعيش الآن؟

إذن، يزول بطليموس، ويمهد السبيل لها.

٨

ومع ذلك لم يزل يرى ظلا بين العاشقين، ظل كانت تلوح زيادته بما يخالف المنطق كلما دنت الشمس من السمت، وكان هذا ظل الإسكندر، وكان قيصر يريد اتباعه.

ولا جرم أنه اتخذ الإسكندر مثالا له في كل زمن، ولكنه لم يكن ليقدر على تقليده عندما كان شابا، وما فتئ بطله يبدو بعيدا منه كثيرا ضمن نطاق أسطوري، وقد اختير قنصلا في رومة مع آخر لسنة واحدة، وماذا يصنع في عام خاطف؟ إذا ما فتحت ولاية، أو ثلاث ولايات كما فعل قيصر، احتفظ بالحكم فيها لبضع سنين، ثم ثم سلكت السلطة المركزية سبيل العزل عن خوف، أو يمكن أن يقال إن سيلا ويونيي كانا صاحبي حول وطول؟ أو لم تستحقهما الأحزاب؟ ما كان رجل كالإسكندر ليستطيع أن ينشأ في جمهورية.

ولم يلتفت قيصر في سياسته، في سياسة الرجل الرشيد، إلى أخيلة شبابه إلا بعد انقضاء الحرب الأهلية الطويلة التي أخضعت الحلة للسيف، إلا بعد معركة فرسالوس التى جعلت قيصر أقوى من أي حاكم روماني ظهر قبله، وما انفك قيصر في السنين الثلاث الاخيرة يحلم بالإسكندر مقدارا فمقدارا، وقد لاح على ضفاف النيل، عند لحد الإسمندر، في القصر العائم، أن روح سلفه

تناجيه، تدعوه إلى إتمام العمل الذي لم تكن معركة فرسالوس غير مرحلته الأولى، وقد سار قيصر على أثر الإسكندر حين جاب الرمال راكبا لاستشارة هاتف أمون، فأنعمت هذه المغامرة عليه بأجنحة، وقد أدرك المرتاب قيصر أمام هذا المثل الأكبر ماذا بقي ممكنا في دور النور، وقيصر، إذ أبصر عاصمة لمملكة شرقية قائمة في أقصى حدها الغربى، دار في خلده أنه لا يخدع نفسه إذا ما رأى مستقبل رومة في الشرق، ولم يشغل الشمال باله إلا كرها، إلا عن قدر جغرافي.

وفى الجنوب كانت فتوته! وفي الجنوب خاض معاركه الولى ابنا السادسة عشرة من سنيه حينما كان في معسكر الملك نيقوميد الذي ما فتئ يلام على ما لقي من أنعمه، وهل من العجيب أن يملك فؤاده هذا الشرق الجنوبي الآن، في أواخر عمله الطويل، مموها بسرابات الذكرى، أن تفتنه روح البحر المتوسط الحارة الزرقاء التى تدفي فيه أعضاء الجندى الشائب التعبة ورأسه الأصلع؟ يسأل نفسه مبهوتا، على ضفاف النيل، في أغنى بقاع الدنيا، عن سابق قضائه عشراً من أحسن سني حياته في الغابات التوتونية [١] وفي السكن عند الآلي [٢] الغليظ وفي مكافحة البريتاني الكئيب بجزيرة الضباب! وهنالك، في الجنوب، وتنعم أفسوس وطرسوس [٣] الزاهرتان بعون الآلهة وهنالك جزر مشمسة تبرد أذرعها بموج بحر فاتر وهنالك قبرس وأقريطش وأنطاكية وأثينة تدعو الفاتح الخشن بصوت روحاني إلى تذوق ثمرات من الذهب لحضارة أكثر نضجاً، والحق أن الإسكندر والبحر المتوسط كانا يدعوان الروماني الشائب إلى الشرق.

---

[١] التوتونية : الحرمانية.

[٢] نسبة إلى جبال الألب .

[٣] طرسوس : مدينة على نهر "قره صو" ببلاد كيليكية، وفيها توفى ودفن الخلفية العباسى المأمون.

وذلك لأن الراحة حرام على الفاتح، وليس من غير عقاب أن يقتطف جندي جريء شاب انتصارات وشعوباً، وتبعه ظلال انتصاراته كاتباع النساء لدون جوان [1] فلا تدعه يشبب وديعاً في أي مجتمع بشري كان، ويحب عليه أن يستل سيفه دوماً ما قام سلطانه على الحسام، وذلك لأن العالم يطالب أبطاله باستئناف ما بدأوا بلا راحة ولا انقطاع، ولما ينل قيصر، البالغ من العمر ستين سنة تقريباً، من الانتصارات ما يكفي لكسب تاج وجمع إمبراطورية عالمية وتأسيس أسرة مالكة كما صنع الإسكندر، ويشعر قيصر بأن الجمهورية لا تضحي بحرياتها الكبرى إلا ثمناً لانتصارات باهرة، وبأنها لا تهب نفسها لغير من يفتح فارس شان العذراء التي ورد في الأساطير القديمة أنها لا تنقاد مع غلبها إلا بعد مطالبة بطلها الهائل بأشد المغامرات هولا.

وإن فارس هذا، وإن ميدان حرب الإسكندر هذا، هو المنافس الوحيد، هو العظيم الوحيد، هو غير المقهور الوحيد، الذي مازالت رومة تصبر عليه منذ خراب قرطاجة، ولم يزل الصراع قائمة منذ خمسين عاماً، وإذا كان سيلاً وبونبي قد ظفرا في البداءة فإن لوكولوس غلبا أخيرا وقتلا، ويعيش في رومة عشرات الألوف من الناس الذين لهم قتلاهم وأسرارهم في أثناء هذه الهزائم الأخيرة، ولم تمض ثمانية أعوام على ذلك بعد، وفي ذلك الحين ضل الشائب كراسوس بفعل انتصارات بونبي فانقض على بلاد فارس المجهولة، الأمر ظانا أنه يفتحها بأربعين ألف رجل، ويا للحماقة! لقد أبصر رأس ابنه على طرف رمح أمام العدو الغالب وقد صرع بعدئذ مستخفاً بالموت أيضاً، غير أن الرايات والشعارات ظلت هنالك مع قتلى الجنود، وصار لا يرى ما هو أحسن من الاستعداد للانتقام من آسية نيلاً للحظوة لدى الشعب.

---

[1] دون جوان : رجل اسطورى من أصل إسبانى ، اشهر بإغوائة النساء.

والحرب الأهلية وحدها هي التي كانت تستطيع أن تقطع هذا العمل، واليوم ينتظر الشعب قيصر ما دام صاحب السلطان الوحيد الذي يتم هذا العمل، وقيصر هو الذي يتمنى قيامه به من صميم فؤادة، أولا يكون لهذا الحاسب الماهر كل غنم من وراء ذلك؟ لم تزل كتائبه المكللة بالمجد تنتظر فروضها [١]، وكان الذهب يجري متموجاً هنالك، في تلك البقاع الأسطورية، وهذا ما كان يقال على الأقل، ولا غزو، فالهند مجاورة لفارس، والهند هي إلدورادو[٢] ذلك الزمن، وكل شيء من سياسة وخيال وضرورة أسرية وغير ذلك كان يدل قيصر على طريق فارس على عدو رومة التقليدي هذا.

وقد درس هذا القائد زلات كراسوس كخبير فني، فوجد أن كراسوس أفرعته الشائعات، وأنه حدث عن أقواس عظيمة يرمي الفرس عنها سهامهم إلى مسافة لا تصدق في ذلك الزمن، وعن صولات فرسان لا قبل للرومان بها، وذلك في أثناء زحف لا نهاية له صد عدو لا آخر لبلده فيقدر على الارتداد دوماً إلى أبعد مدى، وذلك في وقت كانت الشمس شديدة الحر فيه، ويمهل قيصر، الذي لم تدم، معاركة الأخيرة غير بضعة أشهر، نفسه مدة ثلاث سنين ما كان برنامجه لا يقف عند الفرات، ولا عند الهند، وما كان على هذا الفاتح أن يجوب هرقانية [٣] بعد أن يخضع شرق الإسكندر ويسير على طول بحر الخزر ويوغل بين السيت[٤] الذين كانوا جيراناً للجرمان، ويغير على الجرمان أنفسهم، ويعود إلى رومة من بلاد الغول لغدو البحر المحيط حداً للإمبراطورية، وصار قيصر يجمع

---

[١] الفروض : جمع الفرض، وهى ما يعطى للجند.

[٢] إلدورادو : بلد خيالى فى أمريكة يطفح بالذهب.

[٣] هرقانية : إقليم يعرف بجرجان، ويقع بين طبرستان وخراسان بالجنوب الشرقى من بحر الحزر أى بحر قزوين.

[٤] السيت : قوم من البرابرة كانوا يسكنون شمال أوربة الشرقى وشمال آسية الغربى.

الأموال ويبيع الأرضين وينظم مستودعات السلاح في جميع أنحاء البحر المتوسط لكي يقوم بتلك الخطط الكبيرة، وتهتز إيطالية بأسرها من فورها، ويكون أولها، وتقتضي هذه الخطة العالمية إظهاره جميع قدرته مرة أخرى، ويقول بلوتارك بأسوبه العجيب: "وجب على قيصر الغيور من نفسه أن يجاهد نفسه في ذلك الحين، فأعماله القادمة تفوق مآثر ماضيه سناء".

وتنظر كليوباترة إلى هذا الاستعداد بفؤاد حائر مرتاب، وإذا كان قيصر يهدف إلى توطيد آلة بفتح العالم كله بدلاً من أن يبصر العكس فإن لدي أقل النساء وجلاً ألف خطر يخشي، وقد صارت المرأة المترجلة أماً، وهي تعلم أن قيصر لا يسأل، وهي أقل من غيرها إقداما على ردعه مع ما يوحي به إليها من الثقة، وهي تعرف غاية عشيقها العليا، وهي تدرك أن الأمر يدور حول التاج وقيصرون، ولكن مع بصرها، أحياناً، كون قيصر لم يعين نظام أعماله القادمة بعد.

ويشاهد الرومان، حائرين مع غم، طوفاناً من الأوامر يصدر عن غرفة قيصر فيعم حتى أبعد الولايات، وهل كان قيصر يحس أنه لا يعيش أكثر من سنة، أو كان يشعر، بعيد قهره أواخر أنصار بونبي، وللمرة الأولى، بإمكان حكمه ملكاً أو وفق ما يمليه خياله الخاص؟ يلوح أن ما يساوره من عدم صبر مثير للحيرة يحفزه إلى القبض على ناصية كل أمر: على المالية والإصلاح والتعمير وعلى الحرب العالمية، ويعلم في رومة، ذات صباح، أنه يهدف إلى تحويل نهري الأنيو[1] والتيبر إلى أبواب المدينة ثم جعلهما يصبان في البحر بتراسينا، ويعلم في يوم آخر أنه عازم على تجيف مناقع بنتينوم وسيسا نيلاً لأرض خصيبة توزع بين الألوف من أبناء الوطن، ويعلم مرة أخرى، أنه يريد البناء في ميدان مارس، ويعزي

---
[1] الأنيو : من روافد نهر التيبر بإيطالية.

إليه قرار إنشاء مسرح أمام صخرة تربيان [1] أعظم من مسرح بونبي، ويفوض إلى فارون في الأسبوع التالي بتحهيز جميع أحياء المدينة بمكتبات مشتملة على كتب من كل لغة، وعلى المهندسين أن يقيموا في أوستي [2] مرفأ جديداً مع أسداد وأن يبنوا أحواضاً ويمهدوا القعور الخطرة.

غير أن تفكير يوليوس قيصر كان يفيض على ما وراء رومة، غير أن لديه خططاً عظيمة، وقد نوى وضع مجموعة لجميع القوانين فكات أول مدونة قانونية، وقد رأى إنشاء طريق من خلال جبال الأبنين، وقد طمح ببصره إلى البلوبونيز [3] فأراد حفر برزخ كورنثوس وتجديد بناء هذه المدينة، وكانت تصاميمه تسع أفريقية المقهورة أيضاً، وكان يرى بعث قرطاجة التي خرجت هي وكورنثوس ههذ في زمن واحد؟ ويعرض علماء مصر الذين أحضرتهم كليوباترة لوضع تقويم جديد على سيد العالم سنة مؤلفة من خمسة عشر شهراً سيراً مع الشمس وقضاء على الفوضى الفلكية في القرن الأخير، ويجعل قيصر من سنته الأخيرة أطول جميع النسين وصولاً إلى هذا التقويم الذي لا يزال معمولاً به عندنا وقطعاً للقرون به، ومما قيل إن التاريخ لا يقدر على تركه بعدئذ.

---

[1] تربيان : صخرة فى رومة كان المجرمون يرمون من فوقها.

[2] أوسى : مرفأ صغير عند مصب نهر التيبر.

[3] البلوبونيز : شبه جزيرة المورة الواقعة جنوب بلاد اليونان.

٩

نـشأت تلـك الخطـة عـن خيـال صـاحب دمـاغ مبـدع، وكانـت وليـدة روح سياسـة، ولـيس قيـصر قيـصر إلا لأنـه جمـاع للأمـرين، ويريـد الحـصول علـى خبـز للألـوف ممـن لا عمـل لهـم بحملهـم علـى العمـل فـي المـشاريع العظيمـة، وتأتيـه صـنوف العمـال إرسـالاً منـضوية إلـى راياتـه تـارة وذاهبـة إلـى مـصانعة تـارة أخـرى، ويفـرض قروضـاً علـى المـدن، ويـدول [١] جميـع المكـوس ويلـزم الأغنيـاء بابتيـاع الأملاك العامة قانوناً ليدفع إلى أربعين ألفاً من الجنود ما وعدهم به من المال والأرض، ولا عجب، فقد كان مديناً لكل واحد منهم بثلاثمئة سترس[٢] بعد معركة فرسالوس وقبلها، ولكنه، وهو المليك، يضيف إلى كل واحد مائة فائدة نسيء[٣]، وهو، لكي يثبت للأهلين إنهاء الحرب الأهلية وأنهم يعاملون أميراً بالغ الكرم، دفع الإجارة عن جميع الناس لسنة واحدة حتى بلغ ألفي سترس "خمسمائة فرنك من ذهب".

والواقع أن المال لم يكن هنالك! والواقع أن المال في فارس والهند! وبما أن نتيجة الحرب الأهلية لـم تـرض أحداً، والحـروب الأهليـة ممـا لا يرضـى عنهـا

---

(١) Etaaiser

(٢) ضرب من نقود الرومان الصغيرة.

(٣) النسيء : التأخير والتأجيل.

أحد، فقد كان الغالب محتاجاً إلى فتوح جديدة، وهو كلما تحول نحو السلطان لاح حريصاً على دوام حظوته لدى الشعب، وهو يمكنه أن يستغني عنها إذا ما لبس تاجاً في نهاية الأمر وتبصر كليوباترة هذه المشاريع الفخمة حائرة فلا تدري أيسير قيصر عن غرام بالشعب أم عن ازدراء له.

وقد أذهل آخر موكب نصر أقامه احتفالاً بانتصاراته في إسبانية كثيراً من الناس، ومن العوام أيضاً، وذلك لأنه ينم على رومان قهروا رومانا، وهو ما فتئ بعد معركة فرسالوس يجتنب تنظيم احتفالات بالنصر عامة، وأما في هذه المرة فقد أقيمت مأدبة مؤلفة من ٢٢٠٠٠ مائدة مع خمر من إيطالية خلافاً لكل ما صنع حتى الآن ويرتب في رومة من الألعاب والمصارعات ما لا عهد لها بمثله سابقاً، ويدخل خمسة آلاف جندي إلى السرك، ويوسع ميدان الصراع لهذا السبب، ويحمل على عراك أناس من الحرس حتى الموت، ويرقص أبناء لأمراء من آسية الصغرى رقص الحرب، ويثير ذلك المقدار من الزهو بعض الاستياء في سواء المجتمع الروماني، ويعفو عن أنصار بونبي السابقين، ويعيد ثرواتهم المصادرة إلى أرملهم وأبنائهم، ويبلغ من الصنيع ما يقيم معه تمثالاً لبونبي في أحد المعابد، لهذا العدو الأزرق الذي نال مؤخراً نصراً مؤزراً عليه في صميم عقبه، وقد كانت هذه الفكرة من السمو ما قال معه شيشرون، آئنذ، إنه وطد نظامه بنصبه هذا التمثال.

ولكن هذه الأفكار نفسها هي التي أدهشت الملكة تماماً، وما كان من عصمتها الكلبية وتعودها منذ صباها ما تزاوله وراثة من انتقام منظم لتحافظ على حياتها جعلها تخاف كل شيء على حبيبها عندما تراه يغفر بلا انقطاع، وبلان، عشية ذهابة إلى القتال يدع وراءه هنا هؤلاء الساخطين الذين لم يأتوه إلا لنيل

أموال ومناصب! وهو يعين بروتوس هذا وكاسيوس هذا حاكمين سلفاً بدلاً من أن يقصيهما كنائبي قنصل إلى بعض الولايات البعيدة على الأقل!

وتعزم على تحذير قيصر، ولكن من غير أن توسط أنطونيوس الذي لا يذهب عنه الغضب الذي تعوزه الكياسة، وكان هذا في مساء في أمسية الشتاء كالذي عرف كثيراً قبل عام في المعسكرات الشديدية البرد بإسبانية الذي يقضيه الآن متلذذا في مغنى ضفة التبير الأخرى، وهو يتوق، بعد ضوضاء النهار وعرض ما لا يحصيه عدد من الرؤوس التي تمر أمامه عابدة عابسة واهمة ضارعة، أن يجد صوت خليلته وناظرها الأسمر الذهبي الذي يترك التامعة في تلك السعة مجالا للبريق، وستورها وعطورها وسرجها وسررها وكل ما يسكره من النفائس، وهو يرى ابنه دقيقة، ثم يتذوق مرتشقاً على مهل نعيم هذا الموقف، وتنتظر زمناً طويلاً قبل أن تخاطبه جالسة في هذه المرة أيضاً، ويضجع أمامها، وتنذره بضع كلمات فاترة، ولو لم يكن هذا التحذير بصوتها لذهب إلى أنه تلاوة لتقارير عسكرية.

وينصت لها من غير أن يحرك حاجبيه غضبا، ثم يلقى جواباً مما يرويه عنه شيشرون وأبيان في ذلك الحين فيقول: "لقد عشت طويلاً، ولأن أموت مرة خير من انتظار الموت دائما".

ومع ذلك فإن هذه الكلمات لا تعبر عن غير انحطاط مقدر فيمن يود أن ينال انتصارات خارقة للعادة على زمن والموت، وما كان من ثقته بكليوباترة يتيح لنا الذهاب إلى أنه أوضح لها حدود الخطر الذي يحيق به، وهل من المحتمل أيضا أن يكون قد اتخذ وضع رجل شاب فحدثها عن المؤامرة التى حاكها مه كراسوس وصديقين آخرين له فيما مضى؟ لقد عزم هؤلاء على دخول مجلس

السنات ليقتلوا بالخناجر جميع أعضائه المذكورين في القائمة عندما تصدر إشارة عن قيصر، عندما يخلع قيصر حلته عنه بغتة، غير أن الجبان كراسوس لم يحضر في اللحظة الأخيرة!

وكانت المؤامرة ضد قيصر نفسه في مرة أخرى! وذلك حين قضية كاتلينا، وذلك حينما طلب شيشرون أن يحكم عليها بالموت، فقد هجم عليه أعضاء من مجلس السنات شاهرين سيوفاً، ولم يكن حاملا سلاحاً في الحقيقة، ولم ينقذ إلا بتوسط من كانوا واقفين بجانبه، ولكن مع امتناعه مضطراً عن الظهور ثانية في مجلس السنات، ويعرف، عن تجربة، جميع أساليب المؤتمرين إذن، ولا ضرورة إلى تحذيره من قبل كليوباترة إذن.

وتسكت الملكة، وأى دليل لديها؟ غريزتها فقط، وغريزتها التي تسبق بها أفكار الرجل غالباً.

ويتذكر قيصر الرجال الثلاثة الذين هم موضع ارتياب الملكة، ويتمثل وجوههم وأخلاقهم وماضيهم، كاسيوس! يا للعمل الباهر منذ ثلاث سنين! يا لروعة تلك المراكب المحترقة! قد يكون كثير الاصفرار، حقا إنه شديد الشحوب، حقا إنه صديق حميم لشيشرون، حقاً إنه منكد لأنه لم يكن أحسن حالاً في البلاط، وهل يصلح هذا سببا للعدول عنه؟ سيصير حاكما في العام المقبل! وبروتوس الآخر؟ لقد قام بالخدم صادقاً عشرين عاماً! هو يملك نفسه دوما حتى بين الأمواج الجارفة، وقد وجد وسيلة لتأنيب الجنود عندما كنست الأمواج كل شيء عند الشاطئ البريطاني، ولابد منه قائدا، ويلي أنطونيوس درجة، ولم يشاهد ثملاً، ويعد مولوداً قنصلاً؟ ويبدو في قوائم الـ٤٢!

وأما بروتوس.. هلا لا تدرك أمره، شاذ! أغيره يرجع أمرها إلى الماضي؟ "ولم تكن قد ولدت حينما كانت لي هذه القصة مع أم بروتوس، أو يمكنها أن تدرك من خلال ولد معنى الشعور بالابن الذي ينجب به من غير أن يكون يقين بـ...؟ كانت كورنلية فتاتي الأولى، وكانت أم بروتوس فتاتي الثانية، وكليوباترة هي فتاتي الثالثة.. تعاودني اختلاجاتى في الغالب.. يمكن كل يوم أن يجلب الموت إلى..".

١٠

زاد قلق الملكة في أواخر الشتاء، وهي كلما رأت قيصر يستهم ويستعجل، كثيرا ما يساور نفسها من خوف وأمل، وإمبراطورية العالم هي الموضوع، وعمر قيصر هو العدو الوحيد، وهل يمكن رجلا ناهز الستين أن يستولى على العالم بأسره مستعينا بامرأة في الخامسة والعشرين مسنيها وفي سبيل صبى يتعلم الكلام؟ وهل كان لديه من القوة ما يتغلب معه على ضعف صحته وغير أركان حربه وغضب ضحاياه وعناء حرب في البلاد الحارة؟ وعندا يبصر قيصر شعور ضباطه السود ويقابل في المرآة رأسه الأصلع بها يظهر له أنه أكبر رجال رومة سناً، فلا يستطيع أن يعيد إليه ذلك الشباب ذا الشعر الكثيف والأسنان البيض والخطو القوي والنفس الطويل على الرغم من جبروته، وهو عندما يمر يده من خليلته القاتمة ويلاطف شعر ابنه الحريري يحقد على جوبيتر[1]، وذلك لأن الآلهة وحدها هي التي تستطيع أن تجدد شبابها إلى الأبد. وسيقوم بعمل أجرأ من عمل الإسكندر نفسه لقيامه به بعد تقدمه في السن كثيراً، ومن العبث بحثه عن قدوة أكثر ملاءمة لحالة، فلن يجد سواه، ولم يحمله أحد على مغادرة رومة ليعيد إليها الرايات المدنسة على الفرات بعد أن نال السلطان المطلق نتيجة جهد ثلاثين سنة، ولا يوجد ما يمنعه من الحكم هنا عشرين سنة أخرى مجاراً بكتائبه

---

[1] جوبيتر : سيد الآلهة لدى الرومان ، ويقابله زوس لدى اليونان.

تجاه أعدائه في، ولا أحد يهدده في الخارج، وهو يمكنه أن يتزوج الملكة ويربي ابنه وينتحل لقب الملك الوراثي منتهزاً فرصة تثار.

وأسطورة الإسكندر هي الأقوى، هي الأقوى لأن شخصين يحلمان بها، لأن قيصر يشعر بأن الأمر ليس موضوع أجنبية تحاول إغواء أقوى رجل في رومة لتصبح ملكة أكثر مما هي عليه، بل موضوع امرأة غذت روحها بالأساطير فلا تزال تبحث في النجوم عن الزمن الذي يستفيد فيه بدنها جميع نعم الدنيا، وكلا الشخصين، قيصر وكليوباترة، رضع في صباه أساطير قومه، ولا يزال لبن ثقافة اليونان، الذي امتصاه في صباهما على شواطئ مختلفة من البحر المتوسط، يجري في عروقهما ويغلي في دمائهما، وقد كان المجد لكل منها رسالة من الآلهة.

ولم يظلاً أقل إيجاباً في الحقل السياسي، وهما، على ما يعتورهما من انحطاط في القوى، يقدران ما يمكنهما اجتناؤه من الفوائد باتحادهما وفتوحهما، ويعرف قيصر جيداً مقدار ما ينال من عون بمال البطالمة وبالأسطول المصري على قهر الفرس، ولكن ما بلغه من رشد ينم على أحلام شباب كامل في مضمار التاريخ، وكان يريد تعيين نصيبه ونصيب الملكة بعظمة تناسب التقاءهما العجيب وما تم لها من ضروب الفوز، وعادت فارس لا تعد قطراً بسيطاً عنده، بل رمزا كبيرا لهذا العالم الشرقي الذي يدركه الغرب الذي لابد منه ليسبغ على لقب الملك الذي يطمع فيه قوة أسطورية، وهو إذ قامت حياته عفن، كان يجعل من هذا التتويج أمراً عظيماً.

وحق لكليوباترة، ملكة واما، وأن تخشى تعريضه هذا التاج للخطر في حرب تدوم ثلاث سنين كما كان يرى، وكان لها ما هو خير من معاهدة ما دام قيد

الحياة، وكان لها أقوى ود بالطفل الذي يكتب الخلود لقيصر بوجوده، ولا داعي إلى خوفها من خيانة عشيقها لها ما دام شائباً وما دامت باهرة الجمال، ولكن ألفاً من السهام الفارسية تصفر، ومائة نهر تجري، وأوبئة تشتد ودسائس تحاك، بين سفر الجندي وعودة الفاتح وتزيد الخصومة منذ عام ونصف عام، وتغلي الغيرة في قلوب المعاونين الأولين، وتنصب حبائل الفساد عن حسد بفعل نساء الرداة السياسية، وتتذمر الشبيبة التي تجد في هذا العهد الكلبي أن جوائز التكريم تعوزها لتقوم بخدمة رجل يتعالى، ثم إن ملامح قيصر كانت تهرم، فكان جميع هذا يثير ريب كليوباترة حول بلوغ الهدف الأعظم.

وكان قيصر يعترف بأن قيصرون ابن له، وكانت رومة بأسرها تعرف هذا، غير أن هذا كان غير مرقوم في وثيقة، ومع ذلك كانت تهدف إلى أكثر من تأييد رومة لزواجها ما دام قيصر زوجاً شرعياً لها وفق الفقه المصري، وكان قيصر قد وضع في الشتاء الأخير مشروع قانون يبيح له تعدد الزوجات، ولكن هذا المشروع لم يصبح قانوناً بعد، وكان يمكنها أن تسأل في نفسها: أو كان هذا من عدم اكتراث من قبله؟ أم أن موانع سياسية تعترض قراراه من حيث هذه النقطة أو تلك؟ حقاً كانت كليوباترة تجعل أن قيصر وصينته حديثاً فأضاف إليها تبنيه ابن أخته اكتافيوس.

والخوف من الموت بغتة عن مرض أو في أثناء قتال هو الذي أملى عليه ذلك الأمر من دون أن يبصر عواقبه التاريخية، ولا ينبغي أن يرى في ذلك غير حذر غني بصير يوزع ثروته الشخصية، غير وثيقة بعيدة من السياسة، غير عزم رجل كبير راغب في فتح باب عريض لآلة في الدولة، وذراع قيصر اليسرى هي التي كانت تمد، هنالك، نحو الماضي، نحو آلة، نحو أبناء بلدة وطبقته، وذراع

قيصر اليمنى هي التي كانت تمد نحو المستقبل، نحو تاج لم يعد قط لابن الأخت، وما كانت كليوباترة لتذكر في وصية فترة ما قبل الزواج أو التاج، وما هو السلطان أو الجاه أو المقام الذي يمكن طاغية رومانياً لا حقوق وراثية له أن يوصي به لملكة مصر الغنية؟ هي لم تبد في غير جملة واحدة من دون أن تسمى شخصياً، وذلك أن قيصر، إذ يفكر في ولاة ابن له بعد موته، يعني في هذه الجملة بنصب كثير من الأوصياء لهذا الولد، ولكن من تكون الأم؟ وهي ليست كالبرنية [1] التي كانت تتقدم في السن كثيراً ولم تحبل قط، ومن ينظر إلى الوثيقة يدرك أنها من الوصايا التي يأمل الموصى أن ينقضها ذات يوم.

وما التدابير التي اتخذها قيصر في سبيل وراثته؟ هو قد حمل على تعيينه قنصلاً، لعشر سنين، أى نال أمراً جديداً في تاريخ رومة، ولكنه، إذ يدبر نصف الأمر بعدم انتحاله لقب ملك، يكون قد حكم على نفسه بعدم حل نصفه البخر الذي هو معضلة وراثة الملك، وكما أنه كان يساور شعب رومة حقد خرافي على النظام الملكي منذ طرد ملوكه السابقين، وكما أن كل شيء كان يؤدي إلى هذا النظام، كان يدور هنالك فكر غريب، وذلك أن الخبثاء زعموا اكتشافه في كتب العرافين نبوءة قائلة إنه لا يمكن فتح فارس إلا من قبل ملك، ومن ثم عزم على منح قيصر هذا اللقب في جميع أنحاء الإمبراطورية خلا إيطالية، بيد أن أحداً لم يجرؤ على قول كلمة حول وراثة الملك.

أو يمكنه أن يفكر في ترك ملكة أجنبية تقوم مقامه في شؤون الدولة في سنين الحرب وأن يحاول تعويد رومة تمجيد ابنه ولى عهد حتى توجد وسيلة لفرض آل ملك؟ أو لا تثير هذه المرأة المصرية، إذا ما صارت وصية على

---

[1] كالبرنية : زوجة قيصر الرابعة .

السلطان، غيظ الرومان الخلص الساكن تحت الرماد فيشتعل عند إعلان نهاية الجمهورية؟ ولكن الزمن يلح الآن فلا يجوز تأخير الحملة الفارسية، وقد بلغ الاستعداد الحد، وزاد التوتر العام كثيرا، وليس لأعداء الداخل غير الغنم من ذلك.

وكان قيصر لا يعرف ماذا تحسه الملكة حول تجمع أعداء الداخل، هؤلاء الأعداء الذين زادهم غيظاً في أوائل سنة ٤٤، أى في الأشهر الأخيرة من حياتة، وذلك لأنه تكلف الملك على غرار كليوباترة وإن لم يناد بنفسه ملكاً بعد، فضرب نقواد حاملة صورة جانبية له مع وضع غصن من الغار الذهبي على رأسه الأصلع، وصار يجلس على عربة مصرية في الأحوال الرسمية، وحما على تقديم مقعد ذهبي إليه في مجلس السنات وعلى نصب تمثال له بجانب الملوك السبعة السابقين في الكابيتول.

وقد حفزته قدوته المصرية دوماً، فعرض تمثاله النصفي بين صور الآلهة في الساحة البهية، ونصب سرير راحة رائعاً في المعابد الكبرى، وأدخل صورته الرمزية إلى الصلوات العامة، واعترف له بحق الدفن داخل المدينة كالإسكندر، والخلاصة أنه كان في تلك الأشهر الأخيرة يشابه رجلاً لا يفصله غير جدار عن المراة التي أولع بها زمن طويل، فعاد لا ينام.

وكان ألوف الحساد يرون مسوررين تحول هذا الرئيس البالغ الفتور والصبر إلى متكبر جامح، وتوضع في رومة قصص جديدة كل يوم، ويعين في أحد الأيام أناساً من النكرات، ومن الغوليين أيضاً، أعضاء في السنات، حتى إنه ينعم بخدم مهمة على أبناء المبعدين، ومما صرح به، ذات مرة، كون سيلاً من البله حين تنزله عن الحكم المطلق، ومما قاله ذات مرة: "إن كلامي يكفي، ولكلامي قوة

القانون، فالجمهورية موجودة بالاسم فقط، ولما ظل أحد خطباء الشعب قاعداً عند مروره غزرة جهراً".

ولكنه لم يتفضل بالوقوف حينما جاءه مجلس السنات كاملاً مع القضاة والقناصل، لعرض الحكم المطلق عليه مدى حياته؟ ويكون لهذا الوضع سيئ فيغادر الردهة كثيرا من أعضاء السنات، ويروي بلوتارك، إنه حاول أن ينهض فأمسكه بالبوس [1] وقال له: "اذكر أنك قيصر، أفترغب عن قبول خضوعنا، أنت الذي يعلونا؟، والذي لا ريب فيه هو أنه حمل على أخذة إلى منزله وطرح ثيابه وصرخ قائلاً: "والآن يمكن كل واحد أن يقطع عنقي!" وقد اعتذر بنوبات مرضه فقال: "لا يمكن من هو في حالي أن يخاطب، وهو واقف، جمعاً زمناً طويلاً، فهو يشعر بدوار وتشنج ويغشى عليه".

وتلاحظ كليوباترة حائرة، مذعورة أحياناً، تردد الوضع هذا فلا تبصر فيه غير ضعف في الحيوية التي اتقفت لقيصر عن نفس مطمئنة في البداءة، وهي، عند ما سألت أنطونيوس، لم تنل غير أجوبة مرتجلة، غير كلمات جندي مسرع، من هذا الذي كان في الذروة من الحظوة لدى قيصر، من هذا الذي يتمتع بكل أعياد لديه، وكان مطلعاً وحده على خططه الحربية، ويعين انطونيوس قنصلاً مع قيصر، ويصبح أخا له قاضياً ويصبح أخوه الثاني محامياً للشعب، ولما سرق أصدقاؤه خزينة الدولة أحجم قيصر عن الكلام، وكان أنطونيوس يود الإسراع في الانقلاب، وقد وضع حتى مشروعه، وذلك لأن الأزمة بلغت الذروة في شهر فبراير بسبب ثلاث حادثات:

---

[1] بالبوس : قنصل رومانى وصديق لشيشرون.

ففي المرة الأولى كان ماراً من شوارع المدينة في موكب فحياه بعض الناس ملكاً، فأجاب عن ذلك بقوله: "لست ملكاً بل قيصر"، وفي المرة الثانية زين مجهول تمثاله بتاج فأزال محامو الشعب هذا الزخرف الفاتن فعزل أحدهم مع نعته ببروتوس الجديد عن هزوء، وذلك لأن بروتوس القديم أسقط الملكية.

وفي المرة الثالثة حضر عيداً للوبركوس [1] في الفوروم، وجلس على كرسي مذهب وينضم أنطونيوس الذي تسره هذه القرص دوماً، إلى "الرعاة" الشبان نصف عار وذا ذنب فرس، ويتناول إكليلاً من غار، ويهرع مع الآخرين أمام عرش الطاغية ويرفع الإكليل نحو قيصر مسميا إياه لوبر كوس داعيا إياه على ما يحتمل "ملكا" فقط، أي ملك العيد، وهل كان هذا فكراً مباغتاً لاح لهذا الباخوسي أو هو أمر متفق عليه؟ إن ما يقع في كل حين أن يهتف أنصار قيصر له مع بقاء الجمهور ناظراً صامتاً، ويرفض قيصر، ويهتف الشعب لرفضه في هذه الحال، ويكرر أنطونيوس عمله ويصر قيصر على رفضه ويهتف الشعب مجددا، ويحمل قيصر التاج إلى الكابيتول ويكتب في التقويم أنه رفضه مرتين في هذا اليوم نفسه.

ولم يسع كليوباترة غير استنكار هذه المغامرات ما كانت موضع لعب برمز مقدس لديها وما كانت ملكة مولداً، ومما سمعته أيضا أن قيصر قال لها كلمة تعد انعكاسا لغسق [2] هذه النفس، وهي "أن الموت أقل هولاً مما يتصوره الناس، ومهما يكن من أمر فهو رزء لا يقع غير مرة"، وهذا ارتياب غريب، وهذه هي حكمة المحكوم عليه.. وليفكر في الكلمة التي وراها بلوتارك أيضا، فبذلك يفهم الأمر خيراً من قبل، وذلك أن بعضهم حذر قيصر من كاسيوس فقال: "لا أحب منظره الشاحب".

---

[1] لبركوس : الإله الحامى للمواشى من الذئاب كما جاء فى الأساطير الإيطالية القديمة.

[2] الغسق : ظلمة أول الليل.

إذن يتمثل قيصر الموت ويعرف إمكان تقلب الأحوال، ويبدو أن الملكة تبصر تسريحه لحرسه فلا يرافقه غير بضعة حملة فؤوس، وهي إذ نشأت بين الخنجر والسم كانت تعلم ماذا يفوت أنطونيوس وأن الحوادث الصغيرة هي التى تعد المؤامرات.

والذي لم تعرفه هو أن المؤامرة كانت قد نسجت.

١١

لـم يكـن المـؤتمرون وحـدهم هـم الـذين تحتـرز مـنهم، بـل الزعمـاء الـذين يمـسكون الخـيط أيـضاً، وكانـت المـؤامرة تـشتمل علـى نحـو ثمـانين عـضواً مـن مجلس الـسنات، وذلـك لأنـه كـان يـراد إطلاع الـشعب بعـد الـضربة على وجـود سـخط واسـع علـى الحـاكم المطلـق، وبمـا أن البرنـامج كـان يقـوم علـى إنقـاذ الجمهورية والحرية القديمة اللتين تقاومان بعد نصر يتم على الفرس فإن الضرورة تقتضي بأن يستعجل في التنفيذ، والواقع أنه كان على قيصر أن يغادر رومة في اليوم السابع عشر من شهر مارس، وتلوح الفرصة قبل يوم لمجلس السنات الذي دعا إلى الاجتماع للمرة الأولى منذ زمن طويل، ولا ريب في أنه كان يوجد بين المؤتمرين أناسا عاملين في سبيل الحرية عن حسن نية، ولا ريب في أن هذا لم يكن أمر الزعماء الثلاثة.

أجل، إن قيصر غمر بالإحسان هؤلاء الزعماء الثلاثة الذين هم من أكابر الدولة والذين تترجح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين والذين هم أبناء أسر قديمة، غير أن الطموح كان يقرض أفئدتهم من دون أن يوجد ما ينتقمون له، فكان قيصر يعفو دائماً ولم يحكم بانفى أو القتل على أحد من آبائهم أو أبنائهم.

وما كان بروتوس الثاني الذي أنعم قيصر عليه وعامله كابن له فصار بفضله وتحت رعايته ذا خطر، ليدفع إلا عن طمع من هم في الصف الثانى أن يصبحوا

من الأوائل، وكان يحتمل الأمر الواقع ما دام قيصر قائدا له أو قنصلا له، وما توقفت الأمور على القدم وصار لكل دوره، واتضحت الطريق، بيد أن قيصر السائر قدما نحو التاج يتقدم تقدماً بالغا، ويسد آله دونه السبيل.

وما كان كاسيوس المريد ليونسي والمقهور الحاسد الغيور ليطيق أنعم الرئيس الأعظم الذي عفا عنه.

وأما بروتوس، بروتوس الآخر الذي تحافظ المؤامرة على حرمتها بفضل زهده الخلقي، فهو، كما هو ظاهر من رسائل شيشرون، من الذين يخلطون العوامل الأدبية بمشاعرهم الكثيرة الإنسانية ومن الذين يجلبون ملاذهم تزييناً لها بإكليل الذين يعرفون أن يزخرفوا شهواتهم بمظهر رسالة، وهو إذا ما أقرض مالاً بفائدة كبيرة في الأقاليم كان ذلك في سبيل منفعة الوطن، وهو إذا ما طلب منصباً مهما دعا هذا تضحية بدراساته من أجل مصلحة الدولة، وهو عندما أراد قتل قيصر كان هذا إجابة لنداء روح بروتوس السابق، بروتوس الشائب اللحياني الصعب المراس وذي الأذنين الكبيرتين الدالتين على غطريس متصلب يمكن تبنيه بين تماثيل آل تركن الذي ضحى بأولاده ليسقطهم.

والحق أن بروتوس كان يمقت في شخص قيصر الرجل الذي يدعي أنه أبوه، وما كان يساور هذا الشريف حول الأسرة من رأى لا يلائم سوء سمعة أمه الشائبة التى لا تزال تقيم قريبة من منزله، وما كان ينبغى لرجل كبروتوس أن يكون غير ابن شرعي، وهو لهذا السبب سليل قاتل الملك المشهور، سليل المنقذ الأعظم، واليوم صار ما بين لأمه وقيصر من غرام أسطورة منسية بعد أن كان موضوع ثرثرة رومة بأسرها، وكان يمكن بروتوس أن يكون ابنا حقيقياً لقيصر مع نفس أكثر طيبا ونظر أعظم استقامة وروح أشد وضوحاً، وإذا كان قيصر قد تبنى

ابن أخته مع عدم أصالة هذا الابن كثيرا، فماذا عليه أنه يصنع للرجل الذي يعده ابناً له وقد أظهر له إعجاباً ووداً يعد مديناً بهما لعبقرية أبيه وسجيته!

بيد أن بروتوس الذي كان عليه أن يبرر نفسه دوماً، يحفزه خلقه إلى مقت أبيه الطبيعي، وإن خان أباه الشرعي نتيجة لهذا الحقد! وذلك لأن ذكرى هذا الأب الشرعي الذي قتله بونبي كانت تدعوه إلى صفوف قيصر فحدث عكس هذا! فقد انحاز الابن إلى العدو عند رمي القرعة بين الحكومات الثلاثية، وحارب قيصر عامين، حاربة حتى فرسالوس، وتدور رحى هذه المعركة، وينضم بعدها إلى الفريق الأقوى بدلاً من أن يتبع أبناء أميناً صادقاً ويحسن قيصر قبوله، ويجد بروتوس أن يغسل هاتين الخيانتين بدم المنعم عليه استرداداً لمكانته الخاصة.

ولا جرم أنه كان يشعر جيداً بأنه إذا ما قتل قيصر يقتل في شخص قيصر من أحسن إليه وثأر بأبيه، غير أن هذا الشعور كان يسكن عند تفكيره في إغواء قيصر لأمه وصله إياه عن نسبه المجيد، أفلم يكن أحسن دليل على أن قيصر ليس أباه في الوجه الذي يعامل به الحرية؟ وهذا الرجل يمشي على الأرض، ولا معضلة هنالك، والمسألة تحل، ويثبت بروتوس بحركة يد أنه بروتوس، أنه سليل قاتل الملك.

وليكن ذلك، ولكن ماذا عليه أن يفعل؟ أن يدخل مجلس السنات، وأن يصرع الرذيل باسم الحرية، ولا يجعله هذا العمل بطلاً بل رجل على الأقل، وماذا يصنع؟ أن يكون في عداد عشرين جباناً يطعنون بالخناجر جندياً أعزل من السلاح، يطعنون هذا المنصور في مائة معركة من ظهره، وهكذا يعدو القاتل نذلاً، ولا يوجد فيما أباح قيصر لنفسه من غصب للحرية ما يسوغ فعلاً خسيساً كهذا الفعل الذي أتاه بروتوس حتى بعد انقضاء ألفي سنة.

١٢

كان قيصر عند الملكة ذات مساء قبل منتصف شهر مارس، وكان يشعر بروحٍ مرحة، ولا أفكار سوداْ تساوره، فالطبل يضرب في طرق إيطالية، ويسوق الجنود إلى المرافئ بعد أن تصيدتهم الصنوج، وتحقق خطة بعد تفكير طويل وإحكام دقيق فيجدد كل شيء شباب القائد الذي كانت له سعادة في ميادين القتال أكثر مما بالراحة على الدوام، حتى عندما يريد أن يعتقد العكس في ساعات تسليمه، وتهيجه فكرة السفر وخاتمة هذه القصيدة العالمية وميعاد أمر آخر مسكر، وكانت خطة كليوباترة أن تعود إلى مصر بعد سفر قيصر وأن تظل متصلة به بواسطة الكتائب السورية وبرد جيش عشيقها القوي، وتحسب تلك آخر ضربة يعدها الرجل العظيم، ثم يحقق الحلم.

وكان هذا حلم كليوباترة، وحلم قيصر أيضاً، وكان يلوح أنه في ساعات فراغه النادرة يجهز الغرفة والزوايا، ويرتب الزرابي والوسائد التي ركمها هنا بلا روية، ومن المحتمل أن ذكر العاشقين الإسكندرية السابقة في ذلك المساء هنالك فيصحح كل منهما متما ذكريات الآخر، وذلك كما يصنع المتحابون عشية أحد الأخطار تلطيفاً لوقعة بتذكر انتصاراتهم، وفي هذه المرة يشغل قيصرون بالهما أعظم مما شغل في أى زمن مضى، ويحوم شبحة حول خيال الإسكندر.

ولكن قيصر يلاحظ في ذلك المساء ما ينم عليه ابتسام كليوباترة من جزع أذهلها منذ أسابيع كما يظهر، وكانت قد سمعت كلاماً عما يتطير به، وقد كانت رومة مملوءة إشاعات، ومما قيل إن الطيور مرت ليلاً وهي تنعب [1] فوق الفوروم، ومما قيل وجود قرابين بلا قلب ووجود بروق عجيبه، فتؤيد هذه النذر هواجس الملكة، ولم تكن لتستيطع أن تخبر بها من يستعد أن يمتشق الحسام، وقيصر هو الذي أخبرها أموراً، فقد قال لها إنه يعلم أن الخيل المنذورة للآلهة صارت لا تقطم على ضفة الروبيكون منذ حين وإن منتصف مارس شؤم عليه وعن سرباً من الطير أتت بغصن من الغار إلى قاعة بونبي، أو ليس هذا ما يحدث عنه؟ وقيصر يضحك منه.

وتظل الملكة عابسة، ويحاول إلهاءها بألطف الوسائل، أو لم تذكر أن الكلدانيين أرادوا رد الإسكندر عن عزمة على دخول بابل ناصحين إياه أن يتمهل حتى الغد؟ ولأى سبب ينتظر؟ وهل أظهرت أقل خوف في أسوأ الساعات بالإسكندرية؟ إن الجو الأجنبي هو الذي أوهنها! وقد غنى أريبدس [2] بالمقطعة: "هو أعظم ناظر يبدي آراء موفقه"، وقد وعدها قيصر بقضاء الليلة الأخيرة معها.

وفي مساء اليوم التالي يتعشى قيصر عند ليبدوس [3]، ويكون بروتوس الثاني معهما فيتذوق صامتاً ما يعلم مما يحل بسيد العالم إذاً، ومن المحتمل أن يكون هو الذي حول الحديث إلى نقاش حول الموت لاشتمال المحضر على كلام عن الموت، ويمضي قيصر أوراقاً أتى إليه بها أمام المائدة، وبينما كان يقرأ إذ سمع سؤالاً عن أعذب موت فقال: "أسرعه" واضعاً توقيعه على الورقه التي أمامه.

---

[1] من نعب الغراب إذا أنذر بالبين .

[2] أريبيدس : شاعر يوناني مشهور – (٤٨٠ – ٤٠٦ قز. م.)

[3] ليبدوس : من أركان الحكومة الثلاثية مع أنطونيوس و أكتافيوس مات سنة ١٣ ق . م.

وفي صباح الغد كان يرتجف ثمانون رجلاً حاملين سيوفاً قصيرة أو خناجر تحت الحلل، وأما قيصر الأعزل من السلاح فكان لا يرتجف، ولكنه كان يشعر بانحراف في المزاج، وذلك أن كليورنية قصت عليه أحلاماً كثيرة رأتها في المنام، أحلاماً هائلة حقاً، فابتهلت إليه ألا يخرج من المنزل فأبقته في البيت قبل الاجتماع بيوم، ثم أتاه بروتوس مرسلاً من قبل المؤتمرين ليقنعه بألا يغيب عن الاجتماع، ويسأل بروتوس: ماذا يقول مجلس السنات الذي دعاه إلى الانعقاد إذا ما علم أنه استمع لأحلام امرأة فغير رأيه؟ بينما كان قيصر يقاوم، على حسب رواية بلوتارك، إذ لاح لبروتوس أمر مغر آخر، إذ عن له فكر محتمل الوقوع، وهو أن مجلس السنات، يريد عشية الرحيل أن يعرض على الرئيس وفق المعلومة لقب ملك لجميع الإمبراطورية الواقعة وراء حدود إيطالية، وكان هذا عاملاً في فضل الخلاف، وكان هذا موافقاً لخطط قيصر.

ولم ينتبه قيصر، حينما كان محمولاً على شجار [1] حتس السنات، إلى عبد كان يقوم بإشارات كبيرة طالباً أن يكلمه، ولم يقرأ أيضاً رسالة سلمها إليه عالم يوناني كان بين الجمهور اسمه أرتميدوس راجياً إياه بحرارة أن يقرأ ما فيها حالاً، وفي هذه الرسالة عرض لخطة المؤامرة، وفيها ذكر للأسماء، وهي الورقة الوحيدة التي كان يمسكها بيديه حين دخوله السنات، وهي التي رأى أن يقرأها بعد الجلسة، وذلك لأنه تأثر بروع الفليسوف، ويناديه أحد أعضاء السنات عند المدخل ويكلمه مخافتاً بعض الزمن، ويرى المؤتمرة أن أمرهم افتضح فيود الفرار كثير منهم، وأما أنطونيوس الذي أرادوا إبقاءه فقد وقفوه تحت الرواق الخارجي.

---

[1] الشجار : مركب أصغر من الهودج مكشوف .

وكان سنبر، في الردهة أمام الكرسي الأعظم الذي يحمل على التفكير بعرش، أول من تقدم ليطلب العفو عن أخيه المبعد، فأخر قيصر الجواب إلى ما بعد قاصداً الانتقال إلى المسائل المهمة، وهنالك يحيط به جمع من المؤتمرين ويلح عليه بقبول ما التمس سنبر، ويعانقه بعضهم ويضمه من الصدر عن إخلاص ظاهراً وكشفاً لعدم وجود درع تحت ثيابه باطناً، ويرى قيصر أنه محاصر فيريد صدهم عنه بإشارة كبيرة من يده اليمنى، وهنالك يجتذبه توليوس من حلته، وتزحل الحلة، ويبدو الصدر من خلال القميص الرقيق، وهذه هي الإشارة المتفق عليها، ويصرخ قيصر قائلاً: "هذا عنف!" وينهض واثباً، ويقول أبيان: "وهنالك طعن كسكا نحره بالسيف فزلق السلاح وجرح الصدر، وينزع قيصر ثوبه من يد كسكا القابض عليه، ويمسك هذه اليد وهذا العدو بشدة، وإنهما ليتصارعان إذ يطعن مؤتمر آخر خاصرة قيصر بخنجر، ويجرح كاسيوس وجهه ويصيب بروتوس كليتيه"، ويقول بلوتارك: "ويدافع عن نفسه تجاه الآخرين متحركاً نحو كل جهة، ولكنه ألقى رداه على رأسه واستسلم عندما أبصر بروتوس يشهر خنجره عليه".

ويسقط بعد ثلاث وعشرين طعنة، ويحاول اثنان من أعضاء السنات مساعدته ذات دقيقة، ثم يفر الجميع ولا يرغب أحد في سماع خطبة بروتوس، ويسر المؤتمرون إلى مغادرة مكان الجريمة على غير هدى.

وتظل جثة قيصر في ردهة خالية، والرجل الوحيد الذي ينظر إليه عند قدميه هو يونيى المصنوع من الرخام الأبيض، هذا العدو الأكبر الذي كان قد قتل قبله، ثم يحضر اثنان من عبيد قيصر للبحث عن جثمانه نقلاً له إلى منزله، ولم يبق في الردهة غير تلك الرسالة المشتملة على أسماء المؤتمرين.

١٣

من المحتمل أن كليوباترة الساكنة وراء نهر التبير لم تعلم النبأ إلا بعد رومة بضع دقائق، وقد كانت تنتظر حدوث نكبة، وتقع المصيبة، وتدرك الخطر، ولا تقضي وقتها في العويل والتأنيب، بل تنتقل إلى دور العمل إنقاذاً لابنها الذي كان اسمه قيصر أيضاً، وفى هذا الحين يسطع نور طبيعتها الفولاذية بأشد النيران بطولة، فبينما كان مئات الأقوياء يتركون رومة على عجل بقيت هذه المرأة التي لا حامي لها، التي يمكن قتلها في كل دقيقة، مقيمة بها شهراً آخر، وكان لأنطونيوس الذي تعول عليه، مثل مصالحها.

وإذا ما عرف أنطونيوس، مع ذلك، أن يحول في أربعة أيام ما يحيق به من الخطر إلى حظ غير منتظر كان مديناً بهذا لامرأته فولفية على الخصوص، لهذه الزوج التي وجدت بروحها المبدعة التى لا تكل ميداناً للعمل مناسباً لإقدامها، وقد تكون فولفية الرومانية الوحيدة التي تعدل كليوباترة في المعركة المقبلة.

ولم يحدث غير شيء واحد في بلبلة البداءة، هذه البلبلة التى ضاعفها عدم تقدير المؤتمرين للعواقب، وذلك أن أنطونيوس الذي فر من مكان الجريمة وحصن بيته بالمتاريس دعا في الغد القاتل كاسيوس إلى العشاء على حين كان بروتوس يأكل عند ليبدوس الذي هو صديق قيصر أيضاً فتظاهر أنطونيوس بقوله:

"آمين" لكل ما يراد ووافق على براءة مجيدة للمجرمين مبيحاً هذا لنفسه ما حاز طلسماً حقيقياً، وأنه ذهب في الليلة التى عقبت القتل إلى منزل قيصر سراً مع حرس مؤلف من بضعة عبيد ونال من الأرملة الحائرة نقود الميت وأوراقه حفظاً لها في مكان أمين كما قال، وأنه ذهب إلى معبد سيبل [1] وأخذ منه صندوق بيت المال المشتمل على مبلغ يعدل خمسة وعشرين مليون فرنك من ذهب، ولم يملك الآخرون الذين أفزعتهم جريمتهم فيختلفون، غير الحرية وتوجد وصية بين أوراق قيصر.

ويطالعها أنطونيوس، ويرسل من يبحث عن الملكة، وكانت الشوارع منارة بالمشاعل، وكان كل شيء يمر بسرعة بالغة، وتغلق الأبواب سريعاً بعد أن تفتح، ولا يعرف أحد ما هو الخنجر الذي ينتظره في زاوية من الشارع، ولا ريب في أن تلك المترجلة اليونانية هي المرأة الوحيدة التى كانت في تلك الليلة تخاطر بنفسها في المدينة، وها هي ذى في بيت أنطونيوس، وها هي ذي تقرأ أن أولاد الأخت الثلاثة يرثون أموال قيصر، وأن أكبرهم أكتافيوس ينال ثلاثة أرباعها وحده، وأن نصيب أحدهم يعود إلى بروتوس الثانى إذا لم يأخذ ميراثه أحد أولاد الأخت هؤلاء، أن قيصر يعين أوصياء لابن يولد له بعد موته.. وأن بين هؤلاء كثيراً من القتلة بالأمس، وأن الحدائق في الناحية الأخرى من نهر التبير، ومنها منزل الملكة، وتكون ملك الشعب الروماني، وأن كل روماني ينال أكثر من ثلاثمائة سسترس، وقد جاء في ملحق الوصية أن قيصر يتبنى أكتافيوس.

وليتمثل تسار صديق قيصر وزوجته المصرية حول هذه الوصية التى لا مكان لها فيها! وبما أنهما لم يكونا، حيث هما لصب الشتائم على الميت، وبما

---

(1) سيبل: بنت السماء وإلهة الأرض وزوجة إله الزمان كيوان كما جاء في الأساطير.

أن همها كان مصروفا إلى إنقاذ نفسهما، فإنه لم يكن عندها من الوقت ما يفكران معه في العوامل التى أملت على قيصر هذه الوثيقة وما يشعران معه بالسخرية المرة حول انتفاع بعض القتلة من نصوص الوصية، والجملة الوحية التى استوقفت نظرهما هي الخاصة بأكتافيوس.

ولم لا يزيلان الورقة؟ ولم لا يضعان وثيقة أخرى في تلك اللية ويختمانها؟ لقد لفق سكرتير قيصر الخاص، فابريوس، كثيراً من الكتابات من أجل فولفية في الأسابيع القليلة التي حلت بعد موت ذلك الرجل العظيم، وقد انتفع أنطونيوس بها في انتزاع مراسيم ومغفرات من مجلس السنات وفى تنظيم ديون وقبض دراهم ونيل ثروان، وأما في تلك الليلة فلم يستطع هو وكليوباترة ألا يتركا الحظ المنقطع النظير لأكتافيوس، لهذا الزعيم لحزب معاد، ويلوح، إذن، إن هذا نتيجة احترام يحملانه أمام إمضاء قيصرذلك بعد موته ببضع ساعات.

وتبدو فولفية أريبة جداً في بضعة الأيام التى عقبت ذلك فيدعو أنطونيوس أثناءها كثيراً من المؤتمرين إلى وليمة ويريهم الوصية الصحيحة، ويسألهم عند حدة الأقداح أن يراضوا بتلاوتها على الشعب يوم تشييع الجنازة، ويكون بروتوس وكاسيوس من البله ما يوافقان معه على ذلك، وكان أنطونيوس يفكر في عبارة الوصية التى تجعل من كل رومانى وارثا لقيصر فتثير غضب الناس على القتلة، وكان يبني تاريخ السنين المقبلة على هذه الكلمة.

ولك تفكر كليوباترة في غير قيصرون عن اضطرار، فقد انتهى حلمها، وكان عليها أن تشعر بهذا منذ الدقائق الأولى، ولكن الغلام الصغير، الذي هو رهن الميت الثمين، حي، ولابد من إطالة الفكر بعد الآن في تمهيد الطريق التى يجب عليه أن يسلكها ذات يوم ولو لم يبق له سوى السحر الأدبي الذي هو كنز كبير،

سوى كونه سليل قيصر، وهل يكون أنطونيوس منافساً له؟ هذا ما انتظرته عندما أنعمت النظر في فولفية، بيد أن أنطونيوس وكليوباترة منافسان لأكتافيوس الشاحب قبل كل شيء، وماذا يصنع؟ كان في أيولونية [1] مع بضع كتائب أرسلها قيصر إلى بلاد اليونان لتسبق الجيش، وكان محاطاً بأساتذة يتمون نشوءه الفلسفي، وكان ضابطاً صغيراً مع ذلك، وذلك لأنه كان هكذا في أثناء الحرب الأخيرة حين راق قيصر الذي يقوم عنده بأعمال مرافق عسكري، ولو كان في مصر لأرسلت كليوباترة لدعوته رسلاً يقتلونه في طريقه إلى إيطالية، ولو وقع هذا لكان للتاريخ العام مجرى آخر.

وتعزم مع أنطونيوس على قتاله، وكان قيصرون البالغ من العمر ثلاث سنين محتاجاً إلى أنطونيوس، وكان أنطونيوس محتاجاً إلى قيصرون، وذلك أنه كان يجب جعل هذا الغلام الصغير ابناً شرعياً ليمارس وصاية عرش عليه ضد أكتافيوس الذي كان في السابعة عشرة من سنيه.

وهكذا عقد حلف صامت بين صديق قيصر وخليلته، بين أنطونيوس وكليوباترة، في الليلة التى أعقبت القتل، ومن المحتمل أن تكون الملكة قد فكرت آنئذ في ليلة الصيف التى جلب الرجل العظيم فيها نجيه هذا إليها، وتنشأ مشاعر عميقة في جو من السكوت بين ذينك الشخصين المملؤين حياة عندما افترقا متصافحين، ويصحب أنطونيوس كليوباترة بكتيبة أخرى من الجنود لحراستها حتى منزلها وسهرها على حمايتها في مغناها المنعزل.

ويتوطد وضعه في بعضة أيام كثيراً بفضل مهارة فولفية، فيغدو قادراً على مواجهة مجلس السنات، وقد كان قنصلاً كما هو معلوم، ليصرح رسمياً بأن قيصر

---

[1] مدينة قديمة فى إيليرية.

اعترف بابن ملكة مصر ولداً له، ويستند في ذلك إلى شهادة مستشار مالية قيصر القوى أيبوس، ويكون مصير أنطونيوس المدني والعسكري مرتبطاً بذلك في وجود ابن قيصر الروائى، هذا الابن الذي أخذ منه السلطان وصيا عليه، يتكلم أحد عن أكتافيوس.

ولكن أكتافيوس قد أتى! ولم يكد يخبر بقتل قيصر حتى أهرع إلى رومة، ويكون عند باب أنطونيوس بعد بضعة أسابيع، وينتظر هنالك بعض الوقت، ولما استطاع في آخر الأمر أن يوضح بصوته الرقيق الخادع أنه جاء ليجمع تراث قيصر، ويطلب الأوراق والمال أجابه الآخر الذي هو أسن منه مرتين بلهجة القائد الذي يرسل ملازماً: أو يرى أكتافيوس أن غراً [1] مثله يرث قيصر! وهنالك ترك الشاب وغادر الغرفة على رواية أبيان.

والخطأ هائل، وليكفر أنطونيوس عما اقترف!

واستطاع أكتافيوس أن يزور الملكة قبل أن تسافر، وكان يعرف جيداً أن قيصرون منافس له، بيد أنه لم يكن ليبحث بعينيه الجميلتين الفاترتين عن غير تفكيرها فيه، ويلاقي نظرة مستقصية، فقدكانت لها عينا صائدة، فقدكانت تريد أن تبصر في ملامح الشاب أثراً لدم قيصر، ولكنها لم تر غير دم رجل آخر، دم مرابي فلتري كما كانت تسميه.

ولم يكن قد انجلى شيء عندما ركبت البحر مع حاشيتها الكبيرة، وكل شيء يدعوها إلى بلدها، يدعوها إليه عدم الاطمئنان إلى حياة ولدها، وعيون السوء التي تلاقيها في الشارع حيث يقال، عن سخرية، عن الحدائق التي تسكنها

---

[1] الغر : الشاب الذى لا خبرة له .

هي الآن ملك الشعب كما جاء في وصيه قيصر، وما قد يثيره أعداؤها في مصر من الارتباك منذ افتقاد الرجل العظيم.

وتكون ذات صباح من أواسط أبريل في مقدم سفينتها، وترى تواري هذا الساحل الإيطالي الذي تتعقبه بعينيها حتى اللحظة الأخيرة، وتستبصر آخر دقيقة نظرت فيها إلى قيصر يوم المأتم، وتستبين الجمهور وهو يجيب دعوة رجل مجهول فيهب بأسره ويكدس الوقود في شان دومارس [1] بدلاً من أخذ الجنة إليه، ويلتقط الجنود والملاحون والأولاد ومئات الألوف من الناس كل شيء صالح أسلحتهم والموسيقيون مزاميرهم ليضحوا بها من أجل البطل الذي يحرق اللهب بدنه ويئله روحه، ولم يحدث قط أن كان الوقود هبة شعب على هذا الوجه، وهي لما تبصرت قيام ذلك أمام عينيها ولما تشممت دخان ذلك مجدداً رات، وهي عند تلك النافذة، أنها تقذف شيئاً هنالك.

وذلك أنها، حينما كانت تفكر في ذلك اليوم ناظرة تناقص برج اوستي من بعيد، رمت في النار حلماً كبيراً كتلك الجمرة، حلماً كبيراً كذلك الذي يحترق فوق ذلك، وكان هذا حلم الإسكندر، وكان يلتهم ثيابه الإرجوانية وحليه وعروشه وأكاليله وأبهته نار يضرمها شعب الجمهورية لقنصله الميت بعد أن امتنع عن جعل هذا القنصل ملكاً.

وتخمد النار، وتظل الملكة متأمله مفكرة في حزنها على شعادة ولت وفي الملوك والأسر المالكة مملوءة نفرة من السلطان الشعبي، ويعيب الساحل الإيطالي، ولم يبقَ من سلطة قيصر في السفينة غير غلام نائم، وهنالك تذهب إلى مقدم المركب وتنظر إلى الجنوب، إلى ما وراء الأمواج الكدرة، كما لو كانت تستطيع أن ترى بعينيها شاطئ الوطن.

---

[1] ميدان مارس.

الفصل الثالث

ديونيزوس[1]

"والرجـال لا يتـألمون إلا في المرحلـة الاخيـرة لأنهـم صائلون، "والموانع تحول الصائلين عن طريقهم".

".. وتعـرف المـراة أن تـدور حـول المـانع وتـصل إلى الهدف ماهرة ". "غوتة"

[1] ديونيزوس : إله الخمر كما جاء فى الأساطير.

١

استقبل سراة الإسكندرية ملكتهم غضاباً، فقد غابت عامين لتعاهد رومة، فأين هذه المعاهدة الآن؟ وأين أختامها الرسمية؟ وما هو وعد مجلس السنات والشعب الروماني للمصريين؟ يسود الجمهورية القوية ارتباك، وقد مات الرجل الذي بنت الملكة سعادة المصريين عليه، وصار الابن الذي ولدته الملكة له يتمياً، ويبصر الشر، أولا ينكر المؤتمرون سياسة قيصر إذا ما حافظوا على السلطان، وماذا تصبح مصر آنئذ؟

وتزيل كليوباترة هموم وزرائها وتسرع في الجواب عن براهين خصومها فتظهر لهم موازنات تجارية، وتبين لهم أنه لم يحدث ارتفاع في الرقم التجاري مع رومة كما حدث في العامين الأخيرين، وتذكر لهم اعتراف مجلس السنات ببنوة قيصرون الشرعية، وهي، إذ لم تلاق سوى ابتسامات ارتياب، سألت معارضيها عن الوراث الآخر الذي يجري في عروقه دم البطالمة فيوردونه، وذلك لأن أسيره قيصر، أرسينويه التي هي آخر من بقي حياً من آل الملك غابت في زوبعة الأسابيع الأخيرة ولا يعرف أحد أين هي، وبما أن جميع الناس قد اغتنوا من رومة فإن كليوباترة استطاعت أن تبدد بسرعة ما يساورهم من غم شامل حول المستقبل.

ومع ذلك فقد كانت مملوءة ريباً، وهي قد أخذت ترتعد من غم العزلة حين رات قباب قصرها الطنانة بعد سنتين، فهنا أبصرت أباها ساكن البال أحياناً، سكران غالباً، حاكماً زماراً، وهنا أبصرت تربية أخويها واختيها معها، وهنا، في هذه الأماكن، أبصرت حركة مستمرة مهما أنطوت عليه من أحقاد ومنازعات، وهنا، حول المائدة الكبرى، كانت قد تعشت مع أنطونيوس وأبيها منذ إحدى عشرة سنة، وهنا، بعد حين، أقام قيصر فكانت الليلة التي خرجت فيها من بساطها أمام عيني هذا الرجل العظيم الحائرتين، وهل مضت في الحقيقة أربع سنين فقط على مشاهدتها للمرة الأولى التماع تينك العينين السوداوين في ذلك الوجه السني؟

والين تعود إلى الكوة القديمة، حيث كانت تحب أن تبدو ولدا، فتقعد الأربعاء على الطريقة الشرقية، وتسند رأسها إلى الرخام، وذلك لأن الحر شديد، ولا رياح في شهر مايو، وهنالك، في الميناء الغربي الأكبر، حيث ترى سفناً تذهب وأخرى تأتي وشرعاً مطوية، وهنالك، في ذلك المعبر البحري، كان قيصر، قد سبح إنقاذاً لنفسه حاملاً معطفه الأرجواني بين أسنانه، وهنالك قد رآها، وهنالك قد رأته عند انطلاق سفينته مع شؤال كل منهما في نفسه عن كون هذا هو الوداع الأخير، واليوم قد انقضى هذا الوداع.

وهي إذ لم تحترم أباً ولم تصادق أخاً أو زوجاً، وهي إذ لم تكن محل غرام رجل قبل قيصر، فإنها تشعر بأنها مهملة تماماً، ويا للبرد في هذا اليوم! ويا للجمد! وأين معارك غرامها الأول الكبرى؟ إن مما يبتغي تقريباً أن تذكر، ذات ساعة، طيف الخصي المكار، بوتينوس، أو طيف بطليموس الأصغر، أو طيف الزمار السكير، لتتذكر ذلك العهد المنصرم الذي كان له أثر مر فيها، وبما أنها

عادت إلى منزلها وبما أنها انتزعت من الحلم الأعظم الذي رفعها سنين كثيرة إلى ما هو أعلى من سلطان مولدها وملك أجدادها، فغن صدرها يضيق في مدينة أبائها وترى إمبراطوريتها صغيرة وورنقها غروراً، وليست رومة هي التي تأسف عليها، وهلي لم تحب الجمهورية قط، ولكنها تبكي أول ضياع، يقلص حياتها وأول تدخل عنيف من القدر في أحلامها المسيطرة، ولكنها تبكي ذلك الذي كانت تميل إليه فكان أباها ومعملها وأخاها وعاشقها معاً، ولكنها تبكي قيصر الذي يجب عليها أن تعيش من دونه.

ولكن إليك وقع قدمين على البلاط، ولكن إليك قدمين صغيرتين كانتا غير قادرتين على الوقوف عندما أبحرت إلى رومة، فهما تأتيانها بقيصر صغير كما لو كان بمعجزة، وتذرف عينا هذه المرأة، التي لم تبك قط مدى حياتها، دموعاً عن سعادة، لا عن كرب.

وقد حاولت مائة مرة أن تعرف بالحساب ليلة شهر عسلها الحربي التي حملت فيها ابنها، أو كان هذا في القصر أم في المعسكر؟ وهل كان هذابو الوسائد هنا مع نظرات صامتة؟ وهل كان هذا في تلك الليلة حين سماع صوت النساء ونقر أبواق الجنود؟ وهل كان هذا في ذلك المساء حين توارى العدو فذكر قيصر له قصة المعارك الماضية ورسم حركات كبيرة في الهواء وحلم بالمستقبل بكلمات مبهمة فأبصرها صامتة سابحة في الروي فارتمى عليها بصولة شاب؟

واليوم تذكر سويعات الغرام هذه للمرة الأولى، وما كانت غير شاعرة به جيدا، أيام السفر في السفينة من المكان والولد، والعزلة على الخصوص، يثير فيها ذكريات لم تجددها برومة صلات أناس هادئين، وهي إذ كانت شهاءة غريزية

فإن نفسها تحدسها باحتياجها إلى رجل آخر، ولكنها إذا ما رأت فتيان بلاطها الهيف يمرون أمامها لاح لها من المهارئ أن تجعل أحدهم خلفاً لقيصر ويكون من المناسب أن تفكر في عبد يسهل حمله على الصمت إذا ما رأى أن يثرثر. وهي تبدد هذه الأفكار وفق هواها محركة خصلها القاتمة وتعود إلى ابنها الصغير وتحمله بين ذراعيها، وترية السفن الشراعية، وهو إذا ما سألها عن المكان الذي تذهب إليه هذه السفن أجابته دوماً: إلى رومة.

٢

ما فتى السعادة والوكلاء والعيون والماليون الطمعاء يأتونها من رومة بحوادث يتوقف عليها مصيرها ومصير وطنها، ولا أحد على سواحل البحر المتوسط أحسن استعلاماً من ملكة مصر، وبينما كان رعاياها يقضون أوقاتهم في إرسال السلع إلى إيطالية فيلا يجلبون منها غير المال كانت لا تبعث إليها شيئاً، ولكنها لا تسمع حكاية عن اعتراك الرومان، ولكنه يجب عليها أن تسمع صوت الجرس ألف مرة قبل أن تتمثل الحقيقة التي تنبسط منها مقاصد المتناحرين.

ولم يكن من العبث أن درست رومة، فقد حدثها أبوها، ووكلاؤها أيضاً، عنها كثيراً، ولكن هذا لم يكن غير غيوم لدى تلك النفس المتجهة كلها نحو المحسوس، وهى ترى الآن زخارف الرواية الكبرى التى تمثل وحركات الوجه وأوضاع الممثلين، وهى تسمع ألحانهم، وهى تباغت صمتهم، وهى تبز الرجال في تصور النساء اللائى استطاعت أن تحقق نفوذهم القاطع في مكانه.

خذ سرفيلية مثلاً، خذ سرفيلية التى كانت خليلة قيصر، خذ نيوبة [١] الجديدة هذه، خذ رمز الحرب الأهلية هذه، تجد لها ابنا وصهراً في معسكر المنتقمين لقيصر وصهراً ثانياً مع بروتوسها في المعسكر الآخر، فيتقاتل كل من

---

[١] نيوبة: ملكة أفروجية الأسطورية.

ابنيها هذين ضمن حزب كان عليه ألا يقاتل معه، وما أشد ألم هذه العجوز من قتل ابنها لقيصر وتعرف كليوباترة هذا، وتعود إلى نفسها، وتشعر بقليل من الشفقة الغريبة عن طبيعتها.

بيد أن المرأة التى يرقب لها عمالها أدق الحركات بأعظم همة هي فولفية التى لم يجد حقدها وروح سيطرتها فرصة أكبر من تلك لإرواء الغلة، وهى لم تصنع في فتوتها الأولى غير إضاعة قوة رجل، غير تبديد موج من الأفكار على غير جدوى، وهى لم تنل مع أنطونيوس، آنئذ، نتيجة غير إصلاح ما بينه وبين قيصر، وهى، في السنين الأخيرة قد مثلت بدلاً من ذلك دور رفيقة فعالة مستبرة غور الناس دراسة كل شئ لتحذير زوجها من أصغر شرك ولحفظها له حظ المفضل لدى الرئيس الأعلى، ولكن اللعب الأكبر بدأ بموت قيصر على الخصوص، وذلك لأنها الشخص الوحيد الذي استطاع انتزاع أنطونيوس من الماذ حفزاً له إلى الطموح وقفزاً به من الصف الثانى إلى الصف الأول، وكانت قد استمالت أخا أنطونيوس، لوسيوس، إلى غرضها، فعهدت إليه في تحويل مستمتع إلى رجل ذى هدف، ولم يكن الهدف غير قيصر حتى ذلك الحين.

ولم يكن أنطونيوس ليجهل قدر نفسه، والجندى الشائب هذا هو الذي كان يسخر من أكتافيوس عاداً إياه غواً، فلم يأذن له قط، كما لم يأذن لليبيدوس أن ينظم له أمراً، ولم يكن المؤتمرون هنالك، كما يظهر، إلا ليحرجوا ثم ليغلبوا، ولا يجد أنطونيوس ما هو أعلى منه إذا ما نظر يميناً وشمالاً، ولكن كانت توجد مسافة من هنالك إلى إتمام دورة التاريخ، وكانت تعوز ديونيزوس هذا قوة زوس لكى يجهز الزمان والمكان براؤاه، وما كان من طموح رجولي في فولفية حاولت به أن تعيد إليه الحياة الصعبة وأن تحمله على ازدراء الملاذ، فأرت إله الخمر هذا

عرش رئيس الألنب [1] الخالى، وتغزي أنطونيوس فيدرك في نهاية الأمر أنه لابد له من تقليد قيصر إذا أن يشابهه.

وتجزع كليوباترة بما يؤتي به إليها من الأنباء عن استبداد فولفية الدافع، وتغدو غريزتها النسوية خطراً يهدد أنطونيوس ويهددها من حيث النتيجة، وكان المبدأ الذي تغذت به منذ نعومة أظفارها يقوم على العيش مع رومة، لا ضدها، حتى بعد زوال الحلم الأكبر، وعادت رومة لا تكون غير أنطونيوس لديها، والواقع أنه لا شيء ينفعها الآن أكثر من أنطونيوس قنصلاً وقائداً ضد المؤتمرين السابقين، غير أن نهوض أنطونيوس مثل قيصر وقيامه بالمغامرة الهائلة وظهوره طاغية قبل أن ينال نصراً واحداً قصة شديدة الخطر عليهما.

ذات خطر عليها قبل غيرها، وذلك لأن فولفية القوية تقصى عنه جميع النساء كما كانت هي قد حاولت هذا، وهى تنظر إلى المصرية في الحقيقة بحذر كالذى تنظر به هذه إليها.

ولم يكن حقد المرأتين على أكتافيوس كافياً، وإن فولفية التى هي فتاة كالملكة، ولكن مع ترملها مرتين ابنة للعشرين من سنيها ومع كلال عن تمتع زوجيها الأولين بالملاذ، وإن فولفية المنافسة لكليوباترة نسباً وتجربة، كانت تعدها الحوادث للقيام بعداء فعال كما يلوح، أو تألو جهدا في إثباتها لزوجها، الذي صار طاغية، كون وراثة ابنه لخلافة قيصر أقرب إلى المنطق من وراثة قيصرون البعيد لها؟ ترى كليوباترة ذلك بعد أن أنعمت النظر في عينى فولفية فأبصرت أن هذه المرأة تفضل الاعتراف بكون كاليونية المتقدمة في السن والعاطلة من الولد أرملة قيصر الحقيقية على الاعتراف بها، أى بملكة مصر ذات الابن المزعج، أى

---

[1] الألنب: مقر آلهة اليونان كما جاء في الأساطير.

كليوباترة الحسناء التى يسهل عليها أن تفتن زوجها، ولداً كانت الملكة ترى أن أنطونيوس هو صديقها الوحيد في رومة، ولكن مع علمها أن زوجة هي العدو التى تتأهب.

ويحدثها جميع ما يأتيها من الأنباء عن نفوذ فولفية القاطع، والواقع أن فولفية ما فتئت منذ أشهر "تصنع"، عن سذاجة، أوراقاً معزوة إلى قيصر موقعة محتومة موافقة للقانون، ومما كان يجب حدوثه أن تنتهى هذه القحة بتضافر المغترين ولو لم يجرؤوا على الكلام بشدة، وكان المزور يضع بالجملة أوامر نفي وعفو فتتحول إلى دراهم، وكانت مراسيم قيصر موضع مزايدة، وكانت ثروة الميت، وتبلغ خمسة وعشرين مليون فرنك من ذهب، كافية لتأدية ديون أنطونيوس ولشتراء ما يقتضيه سلطانه مكن أركان.

ومع ذلك لم يوفق أنطونيوس للسيطرة على الوضع، ويضغط فيقهر في مودين [1] من قبل القناصل الذين كان نصفهم في معسكر المؤتمرين، ويضطر إلى الفرار من إيطالية، تاركاً امرأته عرضة لشكاوى مرهقة يوجهها إليها شيشرون متهماً إياها بالاختلاس مع أدلة دامغة، وكان هذا الخطيب الكبير يعرف شم النسيم، فقال يوم موت قيصر إنه لا يأسف على غير أمر واحد، على عدم دعوته إلى هذه المأدبة الإلهية! ويمضي شهر فينحني بحركات مؤثرة أمام عبقرية أنطونيوس! والآن، بيعد هذا، ويكتشف عبقرية أكتافيوس مقابلاً إياه بأنطونيوس، وهو إذ كان مفتقراً إلى جعل فكره "هيوليا"، وكانت تعوزه الغلطة الخالصة التى تدفع الآخرين إلى العمل فإنه لم يخسر في هذه المداورات عبقريته وحدها، بل خسر جاهه أيضاً ثم خسر حياته.

---

[1] تقع مودين في إيطالية.

وما كان سيئ الأخبار ليؤثر في عطف كليوباترة على أنطونيوس، وكانت كليوباترة أصدق غريزة من شيشرون فكانت لها وقاية من تردد الذهن بالميل الطبيعي، قيصر كان اسمه أو قيصرون، ولم تعرف عدواً منافساً لقيصرون في رومة وفي العالم بأجمعه غير أكتافيوس، ويدوم الحقد، الذي يرجع إلى ما قبل القتل، أربع عشرة سنة، يدوم حتى موتها، وتزيد ميلا إلى أنطونيوس ما بقى عدواً لأكتافيوس، ويفتر هذا الميل ما تدنيا.

وتهتز طرباً عند سماعها الأخبار التى تعلم منها قهر أنطونيوس وفراره ومجاوزته جبال الألب ولحاقه بكتائب صديقه القديم الشاكر ليبدس ولبسه الأسود وتشعث لحيته وتلطخ كل شيء فيه بالوحل وتمثيله أمام الجوند دور القيصري الشائب المضطهد من قبل الأراذل، وعدم وجود شيء هنالك غير جدول لفصله عن هؤلاء الناس الذين كانوا يعرفونه ويحبونه، وأن خطبته بلغت من الإقناع ما لم يجد معه ليبدوس، في أثناء ورطته، حلاً آخر غير النفخ في الأبواق، وأن فولفية خطبت في الجمهور متهمة وارث قيصر، أكتافيوس، الذي لم ينتقم لخالة الأكبر قيصر والذي لم يؤد إلى الشعب ما جاء في الوصية، وبالسوء من يحاول الحملة على أيام أنطونيوس! ويكون لهذه الأنباء من الأثر الخاطف في الملكة البعيدة ما تكاد تحب معه فولفية الشرسة، وهى تتمثل المكر الرومانى جيدا، وهي تنورة من بعيد! وهي تبصر الأحزاب الأربعة محاولة بالمقابلة أن تنحل وأن تختلط وأن تتجمع ثانية وأن يغوي بعضها بعضاً ويضرع شيشرون إلى الرومان بأنغام مكررة لينة ألا يقوموا بحرب أهلية سادسة مع عدم ارتياحه إلى بعض الحروب الأهلية الخمس السابقة مطلقا! وأما أكتافيوس، وأما الفاتر أكتافيوس الذي يمثل دور فتيان الورثة، فإنه يفتح أبواب دار قيصر الكبرى تملقاً لجمهور

يمقته، ولكن مع احترازه من إطلاق دراهم الميراث الوافرة! أوليس هذا من طبائع جده المرابي؟ ويا للذين يدورون حول مسرحي الجنود ابتياعاً لذرعان أقوياء الوقت وسيوفهم! حقاً لقد وجد في هذه الحوادث ما تتسلى به المصرية!

وتعلم بعد قليل أن الجنود عازمون على التوفيق بين رؤسائهم ليحولوا دون احتراب الأصحاب، فيصفر وجهها، وذلك أنها كانت تشعر بانفصالها مدى الحياة عن فريق قتلة قيصر، وماذا يبقى لها إذا ما صالح المولود منتقماً لقيصر ابن قيصر المختار؟ ومع ذلك كان الوضع هكذا بعد هزيمة أنطونيوس بستة أشهر، ويجتمع الخصوم بليبيدوس في الشمال لتأليف حكومة ثلاثية جديدة، وقد اتخذت الحكومة الثلاثية السابقة، التي أقامها قيصر منذ أربع عشرة سنة مع خصمه الأكبر يونيي والغنى كاسيوس، نموذجاً لهذا الحلف المتحرز بين الرجال يريد كل منهم كسب الوقت وغش خصومه بأوراق خادعة خنقاً لهم فيما بعد وختلا [1] لأتباع طيبين بهذا المنظر المؤثر وجمعا لجنود وممولين منهم إشباعهم لمطامعهم.

ولكن ما أكثر اختلاف الحجم! ترى ابن أخت لقيصر شاحباً بدلاً من قيصر! وترى جندياً أشمط بدلاً من المولى العظيم يونيي! ومع ذلك فإن كل واحد من هؤلاء الرجال الثلاثة الذين يبعثون الاسم القديم لنقابة أصحاب السلطان الثلاثة كان يرى نفسه قيصر الغد، حتى إن أكتافيوس كان يبدأ إمضاءه بجميع تواقيع خاله الأكبر قيصر، فتكفى ثلاثين سنة ليتساءل جميع أبناء وطنه عن وجود إنسان آخر يحق له أن يوقع قبله.

---

[1] ختله: خدعه.

وتغص كليوباترة بنبأ عقد الحلف الجديد، وتجتمع الجيوش بالقرب من لولوني [١] لتكون شاهدة على المعاهدة ضامنة لها، ويمر ليدوس بسفينة إلى جزيرة ويشير إلى الشاطئين، وهنالك أيضاً يأتي كل من أنطونيوس واكتافيوس في زورق من ناحية ويلتقيان مع هتاف كتائبهما ويتماسان ليطمئن كل منهما إلى عدم تسلح الخر في الحقيقة، ويقترح الجنود اللذين لا يزالون يؤمنون بما ينشأ عن المصارهات من صلات، عقد حلفا جديدا عن جذل وبالوفادة أحياناً، فيلزم اكتافيوس بأن يخطب ابنه فولفية من الفراش الأول التي لم تبلغ التاسع من عمرها بعد، وتعانق فولفية، التي كانت في السادسة والعشرين من سنيها التي كانت تصلي وصولا إلى موت اكتافيوس فكان كل أملها يقوم على نحوله، هذا الغلام صهراً لها! ويفكر اكتافيوس الذي لا يزال حدثاً في العشرين من عمره في أن الزواج بالأم هو الأملح!

ويكون لكليوباترة أمل بهذا الزواج الحائل، ولكن لأسباب أخرى، ولم يكن عليها إلا أن تتمثل هؤلاء الرجال الثلاثة في وسط هذه الجزيرة لتبصر قصر اتحادهم، إلا أن تتمثل المكسال ليدوس ذا الغضبات المباغتة الذي يجدر عدم إزعاجه، والمبذر الجائر أنطونيوس، والفاتر اكتافيوس الذي يترجح دوماً بين اعتدال خادع ودعر ماجع [٢] فكان عصبياً جباناً قاسياً عن سقم، وكان هؤلاء الرجال الذين هم دون فولفيه مستوى الذين لم يكن عند أي واحد منهم نار قيصر ولا خصب ذهنه، يقتسمون إمبراطورية "كأنها ميراث أبيهم"!

ولم تكن كليوباترة لتخشى قائمة ألفي الاسم التي وضعوها من فورهم للقاضي على أغنى أعدائهم، وهي لم تشعر بغير الارتياح لنبأ قتل شيشرون، وهي

---

[١] بولوني: مدينة في إيطالية.

[٢] مجع: تماجن وقل حياؤه.

قد شعرت بعطف على الجندي الذي جر رأسه خارج الشجار قطعاً له على مهل، ولكنها كانت من الملك العريق ما لا ترضى معه عن تفل فولفية على هذا الرأس المقطوع معاقبة هذا الجزء من الجسم ثاقبة هذا اللسان الممقوت بدبابيس الشعر، وتقرأ كليوباترة كل أمر بين سطور الأخبار، تقرأ حال من يحاولون النجاة، ووضع أعضاء مجلس السنات المتنكرين عبيداً فينظفون المراحيض فراراً من سيوف الهائجين، وتوزيع آخرين للذهب في اللحظة الأخيرة لئلا ينال الجلاوزة[1] منها شيئاً ومنظر أزواج يسجلن في القوائم أسماء من ببعضن من الأزواج.

وتزيدها هذه الجداول نفوراً عند تمثلها عدم بحث الغضابي عن غير الفلوس بدلا من الانتقام الباهر، وعند تبينها، بين مناظر هذه المذابح، وجوة مائتي ألف جندي ومائتي ألف مرتزق يحتاج إليهم للحكم.

ومهما بلغت كليوباترة من حب الانتقام فإنه لم يرقها أن تقطع فولفية رؤوساً بغيضة، ومنها رأس جار المنزل الغني روفوس الذي كان قد بخل بيته على زوجه الحاكم الروماني الذي هو أحد أركان الدولة الثلاثة، ولما أتى بهذا الرأس في أثناء مأدبة لم ينظر إليه أنطونيوس قائلاً إنه لا يعرفه وإن الأمر خاص بزوجه، وتنتاوله هذه الزوج متهللة وتأمر بغرسه فوق مزراق أمام المنزل الذي أمرت بقتل هذا التعس من أجله، وما فتى سلطانها يزيد في رومة مع ليدوس الخاضع لها على حين يذهب الحاكمان الآخران إلى بلاد اليونان لقهر قاتلي قيصر.

ومهما كان من بعد شاطئ كليوباترة وجب عليها أن تجمع أمرها في ذلك الصراع الذي زلزل الإمبراطورية بأسرها، وما كان فؤادها ليعرف غير واحد، ولكن الخطر حاق بمصالحها عند دنو الحرب من بلادها، وماذا تصنع إذا ما عزم قاتل

---

[1] الجلاوزة: جمع الحلواز، وهو الشرطي الذي يخف في الذهاب والمجيء بين يدي الأمير.

قيصر كاسيوس الذي كان له في سورية سبع فرق، أن يأخذ من مصر مالاً يعدل ما كان صحيته قيصر قد أخذخ سابقاً؟ أجل، مال أحد خصوم كاسيوس إلى إجارتها، غير أن دولابلا هذا كان عدواً لأنطونيوس بمقدار عداوته للمؤتمرين، وتلبي الملكة نداءه فترسل للدفاع عن مصالح رومة أربع فرق كان قيصر قد تركها في الإسكندرية، ويقبض كاسيوس على الرجل الذي جاء للبحث عن هذه الكتائب (وهل خان الملكة؟)، فيقع اثناعشر ألف جندي، بين يدي قاتل قيصر.

ويا لهول الوضع! أوليس على كليوباترة أن تخشى وصول أعدائها، كان كاسيوس قد أوصاها بإرسال سفن إليه، ويمتثل حاكم قبرس فيرسل إليه بعض المراكب، وتجد في تقوية أسطولها، ولكن من ذا الذي يحمي مصر، والمدينة المفتوحة الإسكندرية، إذا ما سلك كاسيوس طريق المغازل التقليدية، أى الطرق الآتية من سورية مارة من الصحراء، أى الطرق التي اتخذها جميع فاتحي مصر، أى الطرق التي سار منها الإسكندر؟ هي تتمثل كاسيوس أمامها، هنالك في ساحتها بالجهة الأخرى من نهر التبير، مستنداً إلى عمود ناظراً إليها بعين تفكر في صديقه قيصر، وإذا ما عن له في نوبة غرور أن يأتي ليرى عن كثب خليلة الرجل الذي قتله! لم يحدث أن هبط مستوى النيل بذلك المقدار، وتعم المجاعة، ويعقبها الطاعون، ويخرب البلد.. ولا توافق كليوباترة كاسيوس إلا كسباً للوقت.

ويلوح أن الآلهة ليست مع الذين طعنوا قيصر بالخنجر، وبينما كان كاسيوس يضغطها كان بروتوس بدعوة على عجل وستقع المعركة الفاصلة ضد الحكومة الثلاثية في مقدونية، ومن ينصر فيها؟ لا تعرف كليوباترة أى الفريقين أكثر عدداً وأيهما أحسن قيادة.

ولم تقع المعركة حاسمة في قلبي [1]، ويلتفي القائدان فيسأل عن أيهما يكون عصبياً أكثر من الآخر، ويقوم بروتوس بحملته قبل الأوان عن عدم صبر جبري فيقهر أكتافيوس ويكرهه على الاختفاء بين الحلفاء خائفاً، وكان النصر يكتب لبروتوس، قطعاً لو أعان بكل قواة جيتس كاسيوس الذي يغلبه أنطونيوس، وكان لابد من انقضاء وقت كبير قبل أن يستطيع أنطونيوس كسب المعركة ضد حليفه المغلوب اكتافيوس اللذين أقدما على شهر الخنجر فوق قيصر، ويوحد هذا النبأ فيما وراء البحار بين فؤادي كليوباترة وفولفية من شعور واحد، فتدهشان وتشتاطان غيظاً من لين انطونيوس الذي كان عليه أن يهتبل فرصة التلخلص من اكتافيوس، غير أن واحدة فقط تلذذت في قرارة نفسها بفكرة شهر بروتوس على نفسه ذلك السيف الذي كان قد علا به قيصر الأعزل منذ عامين، ويلوح هذا الانتحار، الذي عقبته انتحارات كثيرة في معسكر المؤتمرين، انتقاماً حقيقاً لدى كليوباترة، وكانت الآلهة قد انباتها بذلك.

وذلك لأن كليوباترة لم تنس النجم الأفل قط من خلال منظر المستقبل المتحرك وتقلب الحظ وتغير حدسها، وقد استطاعت بعد اغتيال قيصر أن تبصره في السماء بعينها على شكل مذنب ساطع.

---

[1] فليي: مدينة في مقدونية.

٣

ترى الإسكندرية ذات يوم، وكان هذا بعد معركة فلبي بستة أشهر، نزول شاب روماني بالغ الهيف لم تعرفه الملكة سابقاً، وهذا الشاب ملغز نصف فليسوف نصف ديوث، وهو دليوس المرسل من قبل أنطونيوس.

وقد احتفظ أنطونيوس بالشرق لنفسه منذ اقتسام الإمبراطورية، وقد انجذب إليه بطبيعته الإغريقية وبذكريات الصبا وبوارث قيصر، وهو لم يرغب في قتال الفرس من فوره، وهو ليس كالإسكندر حتى يقوم بهذا، وإنما وجد بين أوراق قيصر التي ذهب للبحث عنها ليلة القتل طائفه من الملاحظات والأرقام والخرائط والخطط كالتي يكتبها على الورق قائد يفكر في غزو، ولم يكن غير مثير للوارث كثيراً ما اشتملت عليه من أسماء المرافي والطرق وحسابات الخيل والبقر والعلف وما لاحد له من الأمور، ويكون للتراث العجيب الذي وقع بين يدي الضابط الأول سحر قوي سرى في نفسه، ويجد في ذلك مثل إنذار، ويصنع بذلك شيئاً ذات يوم، ولكنه يريد في البداءة أن ينال ساحل آسيا الجنوبي الغربي وشبه جزر شبابه وجزائرة، وذلك المكان هو الذي يميل إليه قبله، لا برابرة بلاد الغول الباردون، ويذكر متأملاً ما صدر عن قيصر أخيراً من اعتراف ألمع فيه إلى مقدار ما أعوزه الجنوب في قسم من حياته وما أكثر ما ينتظره من كنوز هنالك! ويا للقيان الحسان ويا للراح الحلو هنالك!

وفي هذه المرة ترى أميرات أيضاً، وذلك لأن ملوك كيدوكية وأفروجية الصغار يتسابقون قرى نحو القائد الباخوسي، ومع ذلك فإن حملة أحد هؤلاء الملوك الصغار على الانتظار أمام خيمته حادث! وأجمل من ذلك ألا تكون إحدى تلك الملكات نفوراً! ويجاوز أنطونيوس الجزر اليونانية، ولم يجد أنطونيوس فيها عدوا رومانياً أو غير وماني، وكان عنده من الفراغ ما يقضيه في هذا العالم المدوي من الراقصين والمعازف والمزامير.

ومما حدث ذات يوم أن غضب صاحب هذا المزاج الشهواني من تشبيه نسائه بخليلة قيصر فعزم في هذا الفصل على المجيء في الصف الأول أيضاً، ومع ذلك كان سلفه العظيم يكسف صيته كثيرا، أو لم يدع قيصر كليوباترة إلى محكمته قبل أن يراها؟ والتي أو لم ترسل فرقها الأربع إلى كاسيوس؟ لقد أمكنها نشر كل ما توده من الإشاعات حول هذا الموضوع، وقد ظل موقناً أن هذا المدد أضاع كثيراً من جنود انطونيوس في معركة فليي نتيجة خطأ الملكة.

ولكن اتهامها مجرداً كما تستحق أمر ينطوي على تجن كثير لما توحي إليه من احترامها، ويترك لرسوله الظريف إيجاد صيغة إليه من احترامها، ويترك لرسوله الظريف إيجاد صيغة متوسطة بين الأمر والدعوة، ولم يكد دليوس يمثل بين يدي كليوباترة حتى انحنى وأبصر المستقبل، ولم يوفق لغير ملاءمة الأحوال ببيت من الإلياذة قائل للملكة كما قال نيتون [1] لهيرا[2]:

"خذي أجمل حليلك وأحسن ثيابك واذهبي إلى كليليكة".

---

[1] نبتون: إله البحر وأخو جوبيتر كما جاء في الأساطير.

[2] هيرا: زوجة جوبيتر وإلهة الزواج كما جاء في الأساطير.

وتبتسم وتبطئ في الاستجابة، وتصل رسائل كثيرة، ولا تقول: لا، ولكنها تبدي بحلال وضعها أنها إذا ما ذهبت لتزور أحد أركان الدولة الثلاثة كان ذلك سفر نزهة.. ولتتدبر الأمر وتجد نفسها وحيدة مرة أخرى، وذلك كما وقع منذ سبع سنين عند مادعاها قيصر، ولكن لا إلى خيمة هزيلة على طرف رمال الصحراء، بل إلى قصر ذي رداه مبررة، وتفكر فيما تصنع: كان أبوها "الزمار يقول لها عند ما يكون على الريق: "لا تعادي رومة مطلقاً".

وهل من القدر ألا يروقها رجل من الإسكندرية زمنا طويلاً؟ وهل هذه مسألة ذوق؟ وهل تبتغي رومانياً ثانياً؟ لم يكن أنطونيوس قيصر، عادت الدنيا عندها لا تحتوي مثل قيصر، عدا ما يتجلى في قيصرون، ولكن ألا يتصف الباخوسي اللحياني، بأمور كثيرة كانت تعوز قيصر؟ وإذا ما جعلها تجول بجانبه من خلال شوارع "المصر" مجرورين بأسدين؟ أجل؟ أنها لم تجرب أموراً كثيرة بعد، ولكن دمها وما يدور في رومة من أشعار لاذعة كانا يثيران حب إطلاعها فيدلانها على الطريق.

وكانت تؤمن بنصرها إيمان قيصر بنصره قبل المعركة، ولكنها ما كانت لتقاوم أنطونيوس يإيمان قيصر بنصره قبل المعركة، ولكنها ما كانت لتقاوم أنطونيوس طويلاً إذا دعاها لتكون ضيفة في مرفأ أجنبي ما دام بالغ القوة وما دامت باهرة الجمال، ومن الأهداف الأصلية إغاظة فولفية، ويكفي هذا وحده لحملها على السفر، وهذه هي النتيجة التي انتهت إليها مقدماً فسافرت في آخر الأمر مختارة وقامت بسياحة قد تنتهي بمغامرة، وقد كانت تعلم قبل كل شيء، أن أنطونيوس هو الرجل الوحيد الذي أحب قيصر حقاً، وأن من غير الممكن، إذن، ألا يبالي بابنه قيصرون.

ولكن كيف تبدو له؟ لا يمكنها أن تخرج من بساط مرتين بعد أن صارت أما بين الأمرين، ولابد من أن يعن لها فكر، وتستعد ريثما يحدث هذا.

وتحسب معتدلة الطبع فترى من الحكمة أن تروق حاكم شرق البحر المتوسط وغربه الروماني، وتحل المسألة بهذا، وذلك لأن مما يصعب على كبريائها أن تركب البحر قاصدة رومانيا لأنه استدعاها فقط، ولم تر أن تشعر بأنها ملكة الآن أقل مما كانت عند إبحارها إلى رومة، فجمعت ذهباً وعبيداً وحلياً وحجارة كريمة وآنية ثمينة وملأت بها مئات من الصناديق أنزلت ببطء من درج القصر الكبير إلى السفن بين ذرعان موال سود كثيرين وعلى أكتافهم اللامعة عرقاً، وتملأ اثنتى عشرة سفينة ذات ثلاثة صفوف من المجاذيف بذلك فلا يجد كتاب ذلك العصر من الكلم ما يصفون، أو يسمون، به جميع ما أخذت الملكة معها إلى طرسوس بحراً.

وبينا كانت كليوباترة تقوم برحلتها البحرية إلى آسية الصغرى كان يقع في خاطرها مكرراً ماذا تنتظر من هذا الرومانى الثانى، وقد عملت مما سمعت من قيصر ومن أعدائه ثم من عمالها أن أنطونيوس طيب كما كانت أمه وأنه غافل كما كان أبوه، وتدرك أن تاريخ أسرته نسيج من إسراف أبيه ودموع أمه الحزينة، ولم ينل أنطونيوس قسطاً وافراً من المعارف، وفر أنطونيوس من دروسه بأثينة مفضلاً حياة المغامرة في سورية كقائد فرسان، وهذا ما جاء به يوماً إلى مائدة الملك، أبى كليوباترة فألقى في ذلك اليوم المشهور نظرة جد على هذه الأميرة الصغيرة، البالغة من العمر أربع عشرة سنة، لم تنساها، وهو لم يكتشفه قيصر إلا مؤخراً حينما كان الثلاثين من سنيه.

وإذا كان قيصر قد ميزه وجعله موضع ثقته فلشعوره بأنه أهل لذلك، فهو لا يعرف الغيرة، وهو يتصف بإخلاص منقطع النظير من نبوغ عسكرى وبأس لا يعرف الحذر، وهو، لذلك، يبدو لكليوباترة غير مخادع، وهى تعجب بما عزم عليه من الإنتقام لقيصر منذ ليلة قتله، وهى ترى اختلافاً بينه وبين الوارث المختار والمنتقم المنتخب، أكتافيوس، الذي كان يزدلف في الحين بعد الحين إلى شيشرون وأعداء قيصر لأسباب سياسية!

ومما فكرت فيه كليوباترة، وهى على سفينتها، وجود ناحية روائية في هذا الرجل لمعاشرته الممثلين، وهى لا تزال قادرة على تسمعه كما سمعته في موقد قيصر وعلى تنوره، كممثل ماهر ينصب تمثال الميت الشمعى إلى الجروح الثلاثة والعشرين الهائلة، وهو ينشر حلة الميت المضرجة بالدماء موجهاً أنظار الحضور ولكن هل كانت دموعه مصنوعة؟ أجل، كان محباً لقيصر، أجل، إنهما وحدهما شعراً عند جثمان قيصر بأنه لن يرى رجل مثله أبداً.

ويا لهذا الود الكبير أنطونيوس! وكيف يبصر ما يمكن أن يخرج من رأسه؟ إنه عند عودته إلى بلده على أثر مصالحته قيصر وإشاعة خبر موت قيصر وكون الجيش القادم هو جيش العدو انتحل زى عبد وألقى على رأسه ثوباً أسود، حداداً وذهب إلى امرأته، كما روت كليوباترة عن فولفية، حاملاً كتاباً من أنطونيوس، وتصرخ فولفية قائلة: "ألا يزال حياً؟"، ويكون جواب أنطونيوس إشارته إلى الكتاب، وتفتحه وتقرأ فيه وعد أنطونيوس بقطع كل علاقة مع سيتريس الحسناء، وهنالك يضع الغطاء عن رأسه ويذرع البهو معها راقصاً!

ويهب لأحد أصداقائه نصف مليون سسترس من الذهب الرنان حيناً آخر، وينظر وكيل خرجه إلى ذلك بعين الغضب مع صوت لائم، ويقول أنطونيوس له: "إن المبلغ قليل، فأذهب وأحضر له ضعفيه، ولا تتأخر!".

وفيما كانت كليوباترة تذكر هكذا كل ما تعرفه عن أخلاق الرجل الذي تجلبها سفينتها إليه كانت تردد في نفسها كون هذه القصص لا تطبق على قيصر، فأنطونيوس أقل منه ملكاً وأكثر تمثيلاً وولودية وتبذيراً، وهو يروق النساء لهذا السبب.

النساء؟ كانت العقدة هنالك، كانت فولفية أكبر عائق، وبما أن أنطونيوس متقلب فإن نفوذ فولفية القاسية يلقى ظله عليه فيحول دون إحداثه علاقات أخرى ما دامت حاضرة حاضرة ن وتسأل كليوباترة نفسها عن مدى ذلك النفوذ عند غيابها، ولكنها تذكر ثانية مقت فولفية لأكتافيوس، وهذا هو الأمر الذي يجمع عليه الثلاثة، وإذا ما أمكن انتزاع أنطونيوس من مزاجه الخمرى وإيقاد نشاطه الحربى أمكن صنع كل شيء معه، قد كانت فولفية تعرف هذا منذ زمن طويل، وقد كان العالم النفسى يلوتارك يدرك هذا جيداً فكتب الأسطر الرائعة الآتية بعد مائة سنة: "كان أنطونيوس قد تخرج على مدرسة الحكومة النسوية قبل أن يقع بين يدى كليوباترة، وكان لدى هذه الملكة كل سبب لشكر فولفية التى سلمته إليها مروضاً".

ولو وقع نظر الملكة على هذه الكلمة الفاصلة في البلد الذي يرويه نهر ستيكس [1] لسجل لها ذلك المترجم العظيم ابتسامة رضاً.

---

[1] نهر جهنم.

يجلس أنطونيوس في ميدان عام حاملاً حسامه الكبير على جانبه، هذا السيف الذي لا يفارقه مطلقاً، والذى يظهر نجاده مسترخياً، وذلك لأن كل شيء يذكره بالبزة العسكرية لا يلائم ذوقه، ويتكى على كرسى عاجى، على مقعد رومانى، يلازمه في المستعمرات، ويقيم العدل لمن يطلبه، ويتمتع بحق الحياة والموت ركناً من أركان الحكومة الثلاثية، بهذا الحق الذي منحه إياه مجلس السنات المؤلف من دمى وإقدامه الشخصى الذي جعل نصف الإمبراطورية الرومانية قبضته مع استثناء قليل كان من نصيب ثالثهم ليبدوس.

وكان أنطونيوس في طرسوس، الميناء الزاهر الواقع على خليج إسكندرية والمقابل لجزيرة قبرص وإنطاكية القديمة، ولو نظرت إلى جميع الجيوش التى أرادت أن تسير من قاعدة سورية فتفتح بلدان الشاطئ الآسيوى الكبرى وأرمينية وماديا وفارس، أو بلاد الفرطانيين كما كانت تسمى في ذلك الزمن غالباً، لوجدتها قد اتخذت ذلك المكان مفتاحاً، وتقع طرسوس على سفح الجبل، وعلى من يود أن يدنو منها بحراً أن يتوجه نحو منبع نهر كودنوس [١] الصغير المملوء قصباً وبردياً الذى يتسع متحولاً إلى بحيرة في أعلاه فتنال تلك المدينة هنالك منظراً رعائياً أليياً [٢].

وكان ذلك وقت الغروب تقريباً، وذلك لأن السيد أنطونيوس كان يختار للعمل أقل ساعات النهار حراً، وأنه ليقوم بأعماله إذ يلاحظ حركة عند قاعدة عرشه، فقد عم الجمهور هياج، وقد انطلق فتيان ثم نساء ثم رجال حتى جنود من الرومان، ويستحوذ عليه حب الإطلاع كجميع الطغاة فيسأل عن الأمر، ويجيب

---

[١] هو نهر البردان بقرب طرسوس، واسمه بالترية "قره صو".

[٢] نسبة إلى جبال الألب.

المسؤول عن ذلك قائلاً متلعثماً إن معجزة حدثت، إن أفروديت أتت فسارت نحو مجرى منبع البردان لتنزل إلى البر.

وكان أنطونيوس جندياً وممثلاً هزلياً معاً، فلا يؤمن بالأساطير، ويأمر بأن تمثل تلك السيدة الغامضة الأمر أما محكمته حالاً، ويزيد الهرج، ويركض الناس ويصيحون، ويلوح أن الموسيقى تطفو في الهواء، ويسير السعاة هنا وهنالك، ويخطف الجنود أسلحتهم وتسرج الخيل وتركب، ويكون لدى كل واحد نصيب من الخبار، ويتفق الجميع على أن الغيبة وخدمها لا يبدون حراكا، وماذا يصنع الفاتح آنئذ بين الغضب والفضول؟ ينزل من كرسيه ويذهب إلى الشاطئ.

ويقول يلوتارك، وقد استوحاه شكسبير: "إنها وصلت إلى البردان على مركب ذى شرع أرجوانية ومؤخر ذهبى ومجاديف فضة، فيبرز ذلك بين أنغام المعازف والنايات والمزامير، وتبدو الملكة ضاجعة على فراش من ديباج محاطة بغانيات مروحات وبنيات منكرات، فيلقد بعضهن الجدافين وتلقب الأخريات بين الأشرعة، فتشابه الملكة أفروديت كما في التصاوير، وتنتشر الروائح الزكية من السفينة فتعم الشاطئ، ويتجمع ألوف الناس لمشاهدة الملكة".

والآن يفسح الجمهور طريقاً للسيد أنطونيوس، وتشير كليوباترة فتصعد وتهبط عصى مقوسة حاملة مصابيح فتتألف من النوار زخارف عربية ليلاً، ويمتزج نور الشفق بنور المصابيح الممنوع امتزاجاً بديعاً فيظل من الضياء ما يكفى لتبين ابتسام الملكة، وترفع الملكة يدها الدقيقة البيضاء بتؤدة لتمسك أصابع الجندى السمر الغليظة، وتحيى نصف ملكة ونصف إلهة هذا الرومانى الذي يتذوق هذا المنظر المسرحى بغريزته الروائية.

وتبدأ الأعياد في ذلك المساء، ويقول كاتب يونانى عن الوليمة الأولى التي أقامتها للرومان: "كانت جميع الآنيه من ذهب، وكانت مرصعة بالحجارة الثمينة مصنوعة من قبل أمهر معلمي ذلك الزمن، وكان يزين الجدر نسائج أجوانية مطرزة بالذهب، وقد أعدت اثنتا عشرة سفينة ذات ثلاثة صفوف من المجاذيف لاستقبال السيد الروماني، ويقضي أنطونيوس العجب من روعة هذا الاحتفال الذي هي بسرعة سحرية، وترجو الملكة منه متبسمة أن يعفو عما يراه فيه من نقص، مع انتظار ما هو أبهج من ذلك في الغد، ومع الالتماس منه أن يقبل جميع ما يبصره هدية منها إليه، ويكون أمام مأدبة أبهي من تلك في اليوم التالي، وتعطيه في ختامها كل ما وقع نظره عليه، ويأخذ كل زعيم [١] ما اضطجع عليه متكأ حول المائدة مع ما طعم وشرب به من أقداح وآنية ذهبيه كما أخذ شجاراص مع حملته، ويأخذ الضباط اليخرون آنية فضية وخيلاً مسرجة وعبيداً، وتعطي الملكة في اليوم الرابع كل ضيف منا فوق ورد يستر الأرض قدماً واحدة على حين تتدلى ألوف الباقات من سقف الردهة".

ولما غادر آرس [٢] ظهر السفينة متأخرا قالت كليوباترة في نفسها: "إن هذا الروماني أقل من عمره عشرين عاماً، وهو لا يتعب، والأجر على قدر المشقة، أجل، عن خزينة الدولة تضررت قليلاً، غير أن مصر صارت في مأمن".

---

[١] colonel

[٢] آرس : إله الحرب كما جاء فى الأساطير.

٥

يفيق من نومه بعد الظهر فيجلس بجانب كليوباترة المتكئة على طرف قصرها العائم، وبينا ينتظر الوليمة الجديدة يقص عليها سير الأمور في رومة منذ اقترافهما، وبينا كان رأس الملكة مستنداً إلى يدها تمثلت قيصر وهو جالس عند أريكتها كأنطونيوس حينما كانا مسافرين على لانيل سائرين نحو مجراه الأعلي، ولكن من غير أن تقول لأنطونيوس، ماذا رأت، ومما لا ريب فيه أنها لم تذكر له هذا الرجل العظيم ف السنين المقامة إلا لحظة.

ولا ضرورة لمثل هذا الحض في أمور الحب، وبما أن أنطونيوس يضع صورة سلفة نصب عينيه في البداءة دائماً فإنه يشعر عن حسن باطني باحتياجه إلى توكيد رجولته مفرطاً كانه يريد أن يثبت، من هذه الناحية على الأقل، قدرته على بز قيصر الذي لا يقهر، والحق أن حيازة هذه المرأة هي التي انتزعته من هذيانه الباخوسي، وهي كامرأة وملكة أثرت فيه كثيرا عند التقائهما الأول في رومة، ولولا اعتراض قيصر في الطريق ما استطاعت قوة، ولا ممانعه، أن تحول دون ظفره بها، ولكنه الآن طليق، ولكن قيصر ميت، ولكنه يقبض على زمام نصف الإمبراطورية، ويمكنه أن يشابه قيصر فيبدو لملكة جباراً كبيراً، وقد أسرع في صنع هذا، فكان على رأس كتائبة في عرض رائع أقامه أمامها، وتبتسم، ويعرف أنه لا يفتن خيالها إلا بنفوذه الشهواني.

ولا تجد زوجين أبهى منهما في الأرض، أجل، كان أنطونيوس في الأربعين من عمره، ولكنه لم يزل هركوليا قوة مع دعاراته في فتائة، وكانت كليوباترة في الثمنة والعشرين معع سنيها، وكانت يانعة، وما فتئت تكون هيفاء، وما انفكت تكون مترجلة، ولكن مترجلة حملت وأرضعت طفلاً، ويشعر كل منها بأنه في ذروة حياته، وتساور كلا منهما غريزة إظهار نفسه للخر مثالا مختارا ورغبة الجمهور في مشاهدة امتزاج القوة والجمال، وإعجاب الجمهور، الهادي الآن، المنعش الآن، الهائج الآن بفعل الموسيقا العرسية فيقول: يا لالتقاء الجنسين هنا! يا لهذا المنظر أمام آلهة الأمتين! هذه الآلهة هي مع اختلاف أسمائها!

واليوم فقط، أى بعد أسبوع من الأعياد والعرس، يشعر انطونيوس بناه في ذروة الإجلال، ويرطب نفسه في حمام باردة ويرى أن خليلة قيصر هي الشيء الأخير الوحيد الذي كان يه ليكون قيصر نفسه، ويعتقد في سورة الخمر أنه قيض على مفتاح قيصر السحري بهذه المرأة، ويملأ الفراغ الذي شعر به منذ ليلة قتل قيصر، فسار فيه مترددا مع تشجيع فولفيه، حالاً كما لو كان بفعل إعصار، وتتحول إلى وقفة واحدة تلك الوقفات الغربية بين أمرين يصدرهما الجندي أنطونيوس انتظاراً لأمر يتلقاه ما دام قد صار رئيس نفسه، ويبدو لانطونيوس الباخوسي من المفاجآت مالا عهد لأنطونيوس الجندي بمثله، حتى في رومة، إلا نادراً، يبدو من المفاجآت ملا يصدر عن غير الترف الإسكندري فيملأ هذا الجندي حيرة صامته، ويتعلم حتى تأمل جمال في امرأة مع بلوغه الأربعين، ويجد أنه لم يشاهد فماً أجمل منه.

وتشعر كليوباترة بملء فراغ في نفسها أيضاً، وإنما كان دمها، لا ذكاؤها، مصدر الغم وعدم القناعة فيها، وكانت كليوبارتة قد بدأت بألعاب داعرة مهيجة

رغبتها بهوس صبا، ثم قامت بخدمة حواس رجل متقدم في السن فاقد لقوة الاستيطاب، وكليوباترة يعوزها شيء على كل حال، وكليوباترة تجد نفسها الآن في مثل زوبعة انطونيوس، وإذا كان أنطونيوس يدهش مما تقدمه إليه من الأطايب فإنها كانت تلقى نفسها هائجة فيما يشع من صولته البدنية، وإذا ما استقلت منهوكة ذكرت حكاية الأسدين والحياة التي فرضت عليها ساعات أليمة بعد موت قيصر واثبة غامرة هواها، وهنا يبدأ فصل جديد.

ويجب أن يصفي الأول من جميع الحوادث كما هو ظاهر، فلما جلس أنطونيوس بجانب الملكة المتكئة وقت عصر رطيب زارها فيه ووصل في حديثه إلى الجملة "النفسية" التي وضعها كاتهام في بدء الأمر التي حولت الين إلى سؤال بين شفتيه كانت من القدرة واللباقة ما أدارت النرد معه بارهينها، وهل أعانت كاسيوس؟ وهل أمدت قتله قيصر بمراكب وكتائب؟ وقفت الزوبعة ما أرسلته إلى دلابلا! هي قد خرجت بسفنها الخاصة حتى البحر اليوناني مع خطر قبض كاسيوس عليها! هي لم تعد إلا مريضة مدحورة بالعواصف! الشكر هو ما تستحقه! اللوم هو ما يستحقه ! ولم يساعدها رجال أنطونيوس في هذا الوضع الفاجع جدا؟

ولا يعرف هل اعتقد أنطونيوس صحة جميع ذلك، ولكن أبيان كان على حق في قوله عند هذا الموضع: "إنه نظر إليها مع الإعجاب فوجدها ذات جمال معجز وذكاء خارق للعادة فاشتعل غراماً كالشباب مع بلوغه الأربعين من عمره"، وقد أدركت المتهمة المتهمة أن هذه هي ساعة تقديم المطاليب، وقد كان يوجد، بعد، ثلاثة أشخاص يهددون سلطانها في مصر، وهم: أسينويه التي أنقذها

مجهولون بعد موت قيصر فالتجأت إلى معبد أرتميس [1] فيس ملطية [2]، وحاكم قبرص الذي انحاز إلى كاسيوس، والأفاق الشاب الذي زعم أنه بطليموس مع غرق هذا في النيل، فيجب قتل هؤلاء الثلاثة، ويوافق انطونيوس على ذلك، وينتشر جنود في السواحل الثلاثة، ولم يلبثوا أن جاءوا بالرؤوس الثلاثة المطلوبة إلى سدهم دليلاً على إطاعتهم كما هي العادة، ويرى أنطونيوس الملكة إياها.

والين تشعر هذه البطليمة باطمئنانها فوق عرشها، وكان أخواها وأختاها قد قتلوا بأمرها أو من أجلها فظلت آخر البطالمة ولم يكن غير قيصرون بجانبها، ويحملها هذا الوضع على التأمل، ولا تبعد منها فكرة حمل ابن ثان من هذا الروماني الآخر، وذلك لأنه كان يساور كليوباترة شعور امرأة غرام راغبة في البنين مع رقتها بنتاً للإسكندرية.

وهي حينما تفكر في أمر فولفية، وكثيراً ما تسمع من انطونيوس الثرثار الساذج حديثاً عنها، تبصر رومانية نصفاً[3] مثلها قد أنجبت بأربعة أولاد لثلاثة أزواج فقامت بتربيتهم بنفسها أول الأمر، والآن، وقد بلغت فولفية الذرورة من القوة، لا تحلم بغير السلطان والدولة وباكتافيوس وموت اكتافيوس وإن كان هذا صهرها وحليفها النظري، ويمرض اكتافيوس مرضاً شديداً بعد معركة فلبى، ويرجو حزب أنطونيوس الخلاص منه، ويعم صيت أنطونيوس، جميع إيطالية ويتكلم جميع الناس عن هزيمة اكتافيوس وجبنه.

وفي رومة، كما يواصل أنطونيوس، كانت مطاليب الكتائب العائدة من الحرب تزيد بلا انقطاع، وذلك حول ما وعدت به من أرضين، ويصبح الوضع

---

[1] أرتميس : إلهة يونانية تعدل لدى الرومان.

[2] ملطية : مدينة من كبدوكية.

[3] امرأة نصف : متوسطة السن.

خطرا، ويصير حال لبيدوس الذي انقاد لجميع رغائب فولفية بدناءة، صعباً تماماً، وتعارض فولفية أكتافيوس الذي يريد مصادرة الأرضين لأنها خاصة بأفراد حزبها، ويضطر أخو أكتافيوس، لوسيوس، إلى عرض أوامر من انطونيوس كان معظمها مزوراً، وتمسك فولفية، كرهن، كتيبتين كان قد وعد بهما أكتافيوس فيكتب اكتافيوس عنها أهاجي ويذيعها بين الجيش، وتود كليوباترة أن تعرفها، وتقول: "هيا هيا، اسمعني إياها!" وتضحك، ويضحك أنطونيوس أيضاً من خلال غمغمته، وتحمله على تكرار جميع هذه الشتائم الموجهة إلى زوجه، ويبلغن الغاية من القهقهة، وينظر بعض عبيدهم، الجالسين القرفصاء وراءهم، إلى بعض، لأنهم لم يسمعوا سيدتهم قد ضحكت بمثل هذه الشدة فيما مضى.

وفي أحوال كتلك سهل على الملكة الذكية أن تقنع أنطونيوس، الذي أخذ يروقها بعد كل مأدبة، بأن يزور بلدها وقصرها ولم البقاء في تلك الزواية شتاء على الخصوص؟ أجل، إنه أخذ يرسل كتائبه إلى الشمال وإنه يفكر في الاستيلاء على بلاد فارس دائماً، بيد أنه كان لا يتكلم عن خطته هذه كثيراً، وهو إذا ما فعل هذا غيرت الموضوع، وذلك لأنها تدرك بغريزتها كون هذا لا يعدو حد الحركة، حد أمر موروث عن قيصر يرى لزاماً عليه أن يقلده من غير أن يكون وليد ضرورة ذاتية ألهمها، ولأنها ترى من السهل تحويله عنها لهذا السبب، ويقوم الخطر الثاني على قطع العلاقة باكتافيوس، ويبدو هذا الخطر غير ملح كما كان يقول أنطونيوس، وقد كانت فولفية غير قادرة على القيام بحرب من دون زوجها، فعزم زوجها على احتمال حليفه ما أمكن هذا.

أو لم يدفعه العقل والحساب إلى حيث تسوقه مغامرته مع الملكة التي تكملت حول عودتها من السفر؟ أولم يجتذباه إلى مصر حيث يسهل جمع

الكنوز أكثر مما في فارس المجهولة؟ وهو، كعاشق لملكة مصر، كان غير مضطر إلى القتال لينال ذهباص، وهي، كحائرة لهذا الذهب، كانت تغوية به، وإذا ما كان عليه بعدئذ أن يقتفي أثر الإسكندر وينفذ خطط قيصر فأى ظلم أحسن من زيارة الإسكندرية عند هذا المؤمن بالطوالع ويحكم أى آلالة تمنع الملكة من دعوة روماني فقير مع شرف المحتد؟

ويعد أنطونيوس بأن يتبع الملكة إلى الإسكندرية من فوره، وذلك كما قال بلوتارك: "للتمتع بأنواع ألهيات الشباب وللتسلي بضروب الألعاب وقضاء الوقت الذي هو أثمن الأشياء".

٦

عاد قيصر البطالمة القديم يدوي بضوضاء العيد، فصرت ترى سواس الخيل ورجال السلاح وحملة الشجر[١]، ومحركي المرواح وصانعي البراميل وسقاة الراح وظهاة كثيرين في الطبقة السفلي الرطيبة، وصرت ترى سلسلة من العبيد الزاهبين بقدر أنفسهم تجاه من عم دونهم والمرتجفين خوفاً والمترقبين أخباراً والمرتعبين من أصوات في الطبقة العليا، فيشدون ظهورهم ويتلقون جوائز وأمار وأسئلة ثم يركزون هنالك فينتظرون حتى المساء، حتى الغد، عن نسيان رؤسائهم الأعلين إياهم، وذلك إلى أن يجدهم خصى على لوح من رخام نعساً فيوقظهم برجله، وينهضون إذ ذاك على مهل خازرين[٢]، متذمرين فينزلون مع قليل عرج إلى الطبقة السفلى ليكونوا بين إخوانهم المنتظرين نزوات الآلهة في الطبقة العليا.

وذلك لأنه يجب عليهم أن يكونوا متاهبين ليل نهار، ويسأل شاب رئيس الطهاة ذات مرة، ويقص الشاب النبأ على أبي بلوتارك بعد حين: "أعندكم ضيوف كثيرة؟"، ويجيب رئيس الظهاة عن ذلك بقولة: "لا يتناول العشاء أكثر من اثني عشر، ولكن يجب أن يكون كل طبق معدا ف يأية دقيقة كانت، فإذا ما أخر دقيقة رمى حالاً، وقد يطلب الرماني الآن طعاماً، وقد يطلبه بعد دقيقتين، وقد

---

[١] الشجر : جمع الشجار ، وهو الهودج المكشوف.

[٢] خزر : نظر بمؤخر عينه وتداهى.

يطلبه بعد ثلاث دقائق، وقد يطلب خمراً فقط، وقد يلهو على وجه آخر، ويجب تأجيل كل شيء حينئذ، ولذا يجب أن تكون عدة أطعمة عشاء معدة ما جهل الوقت الذي تطلب فيه".

ويتمتع ابن باخوس بعطله، ولم يكن لديه غير كتائب قليلة، ولم تكن عنده أبه بذلة رسمية، ويلبس ثوباً إغريقياً وحذاء أبيض أتيكيا [1] ويجيء ويذهب كما يصنع الأدباء والكهنة، ويصطاد في البر والبحر، أو يجلس بين الفلاسفة في الموزيون فيضع بعض المسائل التي يذكرها منذ أيام طلبه في أثينة، ويصغي إلى النقاش، وينعس ويصحو مرة بعد مرة متتبعاً الحوار، ويساجل ويفصل كل معضلة في السماء والأرض، ثم يدعو العلماء إلى تناول الخمر معه مساء، ولكن الملكة لا تفارقه أينما ذهب، فتكون معه، دائما، على الماء وفوق ظهور الخيل، وفوق متون الإبل عند طرف الصحراء مسايرة أهواءه غير تعبة، ولا متوجعه مطلقاً، ومن يظن أنها كانت تقضي تلك الأصباح، التي ينفذها نوماً طويلاً، في العمل مع وزرائها وفي فصل المئات من المعضلات التي تنتظر كل يوم حلا منها؟ ومن يظن أنها تجد من الوقت ما تعني فيه بقيصرون حتى في دور الحماقة ذلك؟ ومع ذلك فإن شان الولد، هذا الابن لقيصر، صار ثانوياً في حياتها بضعة أشهر لهبتها نفسها لهذا الرجل وهباً تعصبياً، وكانت هذه أول مرة تحاول فيها أن تروق بلا انقطاع، فأرادت أن تحل محل جميع السكرات والعربدات وشد الأسود وكل الفولفيات، وأن تجعله لنفسها وحدها، وذلك لأنها عاشقة.

ولقد غزاها في أشهر الجنون الأخيرة تلك هذا الرجل ذو الصدر القوي الذي يود أن يلقيها في الهواء ويتلقاها كريشة عند ما يكون طيب المزاج، هذا

---

[1] الأتيك : قسم من بلاد اليونان واقع فى شمال المورة الشرقى.

الرجل الخشن الذي ليس عنده في الإسكندرية هنا من الأشاغيل ما يلهيه فكان يرغب فيها دائماً، هذا الرجل الذي يريد أن يمسكها ويتمتع بها في أخطر الأوقات غير مكترث لأعين عبيدها تقريباً، هذا القائد الذي يأخذها من حول مائدة العشاء حالاً ويعود معها باسماً، هذا الفاجر المهمل الذي لاحت فتحته ظرفاً وظهرت شتائمه على لسانه خمراً، هذا الذي أيقظ فيها ما كان راقداً من تراث الزمار.

وقد قضت خمس عشرة سنة من دور نضجها النسوي وهي تتكلف ضرباً من الحمشة الشديدة لعدم وجود رفيق حقيقي لها، وقد بلغت في ذلك الشتاء من الانهماك في شرب الخمر ما لاح معه أنها تريد إثبات مساواتها له بحيوة، ومما حدث، وهذا ما وقع للمرة الأخيرة من حياتها، إن أضاعت في ساعات كثيرة ما فطرت عليه من ظرف وحس جمال فانقضت على هذا الرجل كحصان وحشي واعتصرته وأصابته بدوار، ومع ذلك لم تر سكريا قط، حتى إنه ليرى امتلاكها خاتماً من جمست يمكنها من شرب راح كثير من غير أن تفقد وعيها أبداً، أجل، إن هذه أسطورة، ولكنها من الأساطير التي هي أصدق من الحقيقة.

وتحتفظ كليوباترة بجلالها على الخصوص، ولا يستطيع أحد من الضباط والإسكندريين الذين يشتركون في موائد خمرها أن يزعم غزوه لها، ولم تكن غوايتها لغير رجل واحد، حتى إن هذا الرجل في أوقات سكره كان يأسف على أنها لم تغطس معه في الهيولي الجنسية، وهي التي كانت تزهو فتذكره معتدلة الدم بأنه يعامل ملكة.

ومما يقع أحيانا أن يطوفا في الشوارع يلاً متنكرين بزي الخدم فيوقظا الناس بقرع أبوابهم، ويزعج النائمون فيهرعون إلى النوافذ ويضربونها ولو عرفوا من هما،

فالإسكندرية كما قال بولتارك، "قوم ينفر بعضهم من هذا المزاج الغريب كما أن بعضهم الآخر يتلذذ به، فيقولون إن أنطونيوس يحتفظ بالمأساة لروما ولا يبدي لهم غير المهازئ"، وكانت الملكة تناكد أنطونيوس، ومن ذلك أن كان يصطاد بحراً ذات نهار فلم يقبض على شيء، فاستعمل غواصاص في حال أخرى لينشب سمكة في صنارته، ولما عاد إلى الصيد مرة ثانية اختارت الملكة ما يصاد من السمك سراً، ويصطاد أنطونيوس سمكاً مملوحاً مجففاً، ويغرق في الضحك، وينتشر الخبر في الإسكندرية.

وذلك هو الزمن الذي أقاما فيه "نادي المتفردين"، على المثرين من أهل الإسكندرية أن يدعوا جميع المجتمع الراقي إلى العشاء في بعض الأمسية، ويتنافسون نفائس وخيالاً في تنسيق هذه المقاصف وينفقون عليها أموالاً طائلة مقدرين أن صداقة الملكة تعود عليهم بأضعاف ذلك، ويحب أنطونيوس أن يقص أنباء مستلهماً الخمر الجيدة، وتدهش الملكة من هذر هذا الرجل الذي لا ينضب له معين، هذا الرجل المفرط الذي يتكلم بنسبة ما يشرب ويضطجع على سريرة ويتغنى بجمال أنطونيا التي أخذها اللئيم دلابلا منه، واما هو فقد انتقم باختلاسه فولفيه من صديقه كلوديوس قبل أن يتزوجها بزمن طويلا أجل، مات الاثنان، ولكنه يشرب هنا جرة من خمر رودس المعتقه، وعاد لا يكترث لما يصنعه الآخرون في رومة أكثر من اكتراثه للقطرات التي تسقط في هذا المكان وهذا ما كان يقوله السكران أنطونيوس في بيئة "المتفردين".

وقيصر هو الرجل الوحيد الذي لم يتكلم عنه أنطونيوس.

٧

ومع ذلك لم تكن زوج أنطونيوس الأخرى، فولفيه، أقل حرارة منه في الجهة الثانية من البحر المتوسط، وإن كانت اليوم أقل مبالاة باللباخوسي مما بالحكم الثلاثي بعد شباب قضته صاحبة لثلاثة فاسقين، ويتكلم جميع الناس عن عشيقها زوجها المصرية، ولا تبصر أى الأخطار أو أى المغريات يمكن أن يعيده إلى إيطاليه، وتعرف جيداً أنه غير وفي وأنه يهوى النساء الجديدات، ولا تجهل فتون ملكة مصر، وترى من الممكن أن يقضي أعواما كثيرة في الغربة هنالك، أن يقضي حياة حمقاء مع ملكة أو حسناء أخرى غافلاً عن الزوجه والولد، ولا ترى إذن، غير وسيلة واحدة لعودته وعودة السلطة التي عرضها للخطر، وهذه الوسيلة هي الحرب الأهلية، وهذه هي الوسيلة التي تلجأ فولفيه إليها، وتثير الفتنة انتزاعا لزوجها غير الوفي من بين ذراعي المرأة الأخرى.

ومع ذلك لم تكن هذه فكرة أوحي الشيطان بها بغته، ولم تسفر الغيرة عن غير تعجيل خطة فولفيه، وتقوم هذه الخطة على تزوير نيابة فيؤدي هذا إلى قطع العلاقة باكتافيوس، وإلي إسراع انطونيوس إلى بلده مضطراً ليهزم مزاحمة وليعيد الأمن إلى نصابه، ومهما يكن الأمر فإن هذه الحوادث تحمله على ترك الملكة اللعينة.

وتصل رسائلها ورسائل عمالها قاطعة لقصيدة القصر الإسكندري الغرامية الرائعة، وذلك أن فولفيه تتخذ تدابير حاسمة في النزاع القائم حول توزيع الأرضين بين رجال الكتائب في إيطالية، فتقبض على ثماني عشرة مدينة من الإمبراطورية وتقسمها مستعينة بكتائب أنطونيوس، ويدفع هذا كتائب اكتافيوس إلى التمرد، ثم يقع غير المنتظر، وتغادر فولفيه رومة حفظاً لسلامتها، وتلجأ إلى حصن برينستا[1] مع قطار من أعضاء السنات والفرسان، وتنتحل فولفيه هنالك صفة القائد، وتجمع سلاحاً ومالاً وجنوداً وخيلاً وتلهب كتائبها بخطبها النارية، ثم تحاصر قوى العدو أخا أنطونيوس الذي كان قنصلاً وحليفاً لفولفية في ذلك الحين، في بيروجيا[2].

وتقرأ كليوباترة هذه الرسائل فترجح مشاعرها بين الاستخفاف والغيرة، وتذكر معارك قيصر في مصر، في المصر والصحراء، وكيف أنها قامت له بعمل الكلب السلوقي والمرأة المترجلة، وأن هذه الوقائع حدثت في سبيل عرش واحد، في سبيل عرشها! وأما هنالك، في إيطالية، فما هو الحافز لفولفيه إلى تمثيل دور القائد؟ هو أنها راغبة في زوجها! ولا ينبغي لكليوباترة أن ترجو هزيمة هذه المرأة من أجل أنطونيوس، وقد تمنت ذلك مع ذلك.

ولم يلبث السعاة أن أخبروها بتحقيق آمالها، وذلك أن اخا أنطونيوس قد استسلم في بيروجيا، وأن أكتافيوس قد استبقاه، ولكن مع إحراق هذه المدينة وإغراق الجميع في الدم انتقاماً، ولكن مع قتل أربعمائة من الفرسان وأعضاء السنات أمام معبد رومة يوم ذكرى موت قيصر السنوية، أى بعد عامين من ذبح

[1] من مدن إيطالية، واسمها اليوم بالسترينا.

[2] من مدن ايطالية.

آخر المؤتمرين! ويصل رسل اكتافيوس إلى الإسكندرية في الوقت نفسه لإخبار أنطونيوس بان فولفيه وحدها، لا كتافيوس، هي التي أرادت هذه الحرب، وبان اكتافيوس مستعد للبقاء مسالماً لحليفة، ويعلم أنطونيوس وكليوباترة كلاهما أن مصدر حب أكتافيوس للسلم هو خوفه من بونبي المسيطر على البحر.

ولسرعان ما قام الدليل، فقد فرت فولفيه من برنديزي إلى إلى آثينة مع ثلاثة آلاف فارس ومع أم أنطونيوس العجوز في حمى سكستوس بونبي، ويقع ما هو شر من ذلك، وذلك أن أنباء الحرب الأهلية شجعت الفرس على الهجوم، فأوغلوا في آسية الصغرى، وحالفوا أمراء سورية وهدودا الحاكم الروماني، ودخلوا سورية من الفرات.

ويصحو أنطونيوس من غفلته عند هذه الحوادث، وليسر من فوره! ولا يسع الملكة غير مساعدته، وماذا يقع إذا تم النصر في آخر هذا الصراع لأكتافيوس الذي لا يزال راغباً في السلم؟ وماذا يحدث لمصر الغنية آئنذ؟ إن كل ما لديها هو له، وتجمع كل ما عندها على عجل، تجمع مائتي سفينة، وتغترف له من خزائنها جميع ما يطلبه من المال.

وتعترك المشاعر في كليوباترة، وتأمل كليوباترة منذ زمن، وماذا يصيبها ويصيب اولادها إذا ما زال هذا الرجل إلى الأبد؟ وهل هو موضع ثقتها أو محل أملها بعد النظر إلى أخلاقه؟ لا جرم أنها ترجو أن تطرح فولفيه ورقة لعبها الأخيرة، وهنالك لا يغفر أنطونيوس لفولفيه جعله في هذا الوضع الأخير عن غيره، وإذا ما أفقدت كليوباترة الرجل زوجه فإنها تكسبه في الوقت نفسهس، ولكن النساء كثير، وهو إذا نسي الاثنتين فتنته ثالثة حتى تصبح حاملاً وحينئذ تغدو غير فاتنه له.

وتبصر الملكة من فورها أن المغامرة السارة أخذت تغم، ومن المحتمل أن توجد عما قليل، مع ولدين لأبوين رومانين، بين مصريين معادين، من غير أن تعرف المدة التي يصبر فيها الإسكندريون المترددون عن خبث على هذا الوضع، ومن غير أن تعرف أن أكابر البلاط يرضون بالأمر بعد ذهاب آخر روماني أو أنهم ينتفعون به ضدها، وقد بدأ حبها للأول في الحرب لما كان يجب من النصر أو الموت، وانتهى في العيد، وقد بدأ حبها للثاني في لاعيد، فهل ينتهي في معارك قاسية؟

وتري "أن أنطونيوس لم يبال بقيصرون إلا قليلاً، ولأنطونيوس في هذا لاحين بان في رومة، أو في أثينة على ما يحتمل، وإذا ما وضعت زوجه رأسها عند رأس أمه وكان ابنه وبانته هنالك وبكي الجميع معاً.. فماذا يكون أثر هذا في قلب أنطونيوس الذي يؤخذ بالعواطف؟ لا أمر يقيناً، وكان انتصار قيصر أقرب إلى اليقين وأن أحاط الخطر به من كل جانب!".

ويودعها أنطونيوس، وتخبره بأثر غرامها، ويضحك، ويتمنى لها وللولد حظا مباركاً، ثم لا يبالي بأمرها موجها جميع أفكاره إلى جيشه، ويطوق بالتقارير والأوامر، وقد جاوز البحر بفؤاده ليقهر الفرس ويوضح وصعه لزوجه.

٨

زولما جلست كليوبارتة في كوتها ورأت شراع رومانيها الثاني يمحي في البحر لم تبتسم كما ابتسمت يوم أبحر رومانيها الأول، ولا غزو، فقد دعاها سيد العالم هذا إلى رومة، وقد انتظر ساعة سلامتها، وقد نظر متفرساً في وجه ابنه المغضن، وقد تمثل قيام قبه خيال واسعة فوقه، واليوم يزيد عمرها سبع سنين عما كان عليه، أجل، سبع، سنين، ولكن مع ظهور العالم أقدم مما كان عليه مئه عام! وصرت لا تري ذا عقل راجح يستطيع أن يقضي على الفوضى العامة، والارتباك في كل ماكن، وهي مورطة فيه.

ولماذا؟ هي لم تطلب ذلك الأمر بما فطرت عليه من سلامة طوية ساخرة وهي قد كانت تجهل كل ما خطأ أو قدر أو ابتلاء ضمير جهلاً تاماً، ولم يكن لكلمة وخز الضمير معنى لديها، والأمور عندها هي كما كانت عليه، والتي تراها وحدها جالسة في الكوة بقصر آبائها حاملة من جندي راجع إلى زوجه وراء البحر غير عائد أبداً على ما يحتمل، نعم، وعدها بالعودة معانقاً بحرارة مقسما بآلهته الكبرى، ولكن النساء كثير في الطريق! ولكن يوجد اكتافيوس الذي يجب قهره أو قبوله! ولكن ترى عدة شعوب أجنبية تقتتل عن عدم وجود زعيم لها! وإذا لم كن هنالك شيء من جميع ذلك لاح البحر الذي يلتهم السفن كما يلتهم القدر قلوب الناس.

ولا تلبث أن يكون لها ولدان كما تقول في نفسها، وقد يكون الثاني أنثى، فإذا ما انقضت عشرة أعوام تزوجها قيصرون وفق عادة البطالمة ويكون نصف دم الزوجين الملكيين رومانياً، ولكن ماذا يكون أمر كليوباترة نفسها؟ أتعلم هذه البالغة أواخر العقد الثالث من عمرها عبداً سورياً ناقص الرشد شؤون الحب؟ يجب حفظ استقلال البلد والسهر على الخزينة خشية افتقاد حرية السير كما يراد، ويجب عقد معاهدات جديدة مع أقوي الرومان إن لم يكن ضد رومة، وهل يكون هذا انطونيوس؟

وقد سرها ذهابه في الغالب، وذلك أنه كان ملتهب الرأس فقلب كل شيء كريح السموم التي تحمل الرمال، وقد خاتل بلاط الإسكندرية ومجتمعا ورج الأحزاب القديمة وغر أصدقاء كثيرين برومة، وقد راق الشعب في مقابل ذلك، وقد وجد البلاط عملاً لجميع الناس وأغنى التجار نتيجة استهلاكه كل شيء بما لم يسمع بمثله في غير الأساطير، وكان للجمهور نصيب من نزوات انطونيوس، ولم ينل أنطونيوس في زمن من الحظوة لدي الناس برومة كما نال هنا، في هذه العاصمة العالمية، حيث انغمس بالملاذ، ولم يسطع الموزيون نفسه، وقد سخر من ثقافته، أن يكرهه، ولم يسع كل من ينو منه إلا أن يحبه، ولكن من غير أن يستهوى أحداً، وتقابل كليوباترة بينه وبين قيصر صامته فترى في نفسها أن مشاعر كل منهما تناقض مشاعر الآخر.

ومع ذلك كانت تعرف قدر أنطونيوس قائداً وإمبراطوراً وحاكماً، ومع ذلك كانت ترى من السياسة الرشيدة أن تكون ذات صلات حسنة بسيد العالم الشرقي هذا، وأن الخير في أن تكون صديقته أكثر من أن تكون خيلة له، ولكنها لم تكن غير ذات نقوذ زهيد فيه ما كان غائباً، والأمر الوحيد الذي يجمع بين

الشخصين الخرافيين هو العراف الذي كانت قد أعطته إياه فبدأ ماهراً في جعل سحره المصري ملائماً للسياسة، والآن تلقي السمع إلى ألوف الشائعات التي تأتيها من شواطئ بلاد اليونان، والتي تصل الحوادث منها مضطربة.

ويكون التقاء الزوجين هائلا في أثنية! ويمكنها أن تتنور فولفيه الشاحبة الهزيلة الملتهبة النظر وهي تأخذ بلحية هذا الجبار الأسمر! وأين قضى تلك المدة الطويلة؟ وعم كان يبحث لدى هذه المصرية حينما كان التاريخ يقرر في رومة؟ ولكن كليوباترة تسمع آئنذ انقطاع صراخ فولفية المتوحشة وإرزام [1] الجبار الروماني من ذا الذي فوض إلى فولفية قطع الحلف مع أكتافيوس؟ ومن ذا الذي أذن لها في الاستيلاء على المدن وفي إنشاء المعسكرات وإقامة الحصارات وفرض قتال حاسم على زوجها قبل الأوان، قبل أن يكون مستعداً؟

وتسمع كليوباترة ذينك الصوتين المتوعدين من خلال البحر، وتبصر كليوباترة ذينك الهائجين المستبسلين صارخين هازين جمع كفيهما في الردهة المرنة، ومن المحتمل أن يلوح لها ضربة إياها فعلا، ويجب أن تكون فولفية راضية، ولكنها لا تزال مهمة، وهل يجد وسيلة لطلاقها من غير أن يتقوى الخصم بذلك، أثم لا تسمه إذا ما طلقها؟ تجرؤ فولفيه على كل شيء، وهي مجنونة إذا ما ثارت".

ولكن تظهر امرأة أخرى، وذلك أن كليوبارتة إن لم تعتم عملت خطط اكتافيوس السياسية، وذلك أن سكستوس بونبي، وهو خصم قيصر الأخير الذي بقي حياً الذي حافظ بسفنه على زوج أنطونيوس وأمه حين سفرهما، الذي يكفي نسبه أن يكون حليف كليوباترة يمكنه أن يقوي أسطول زوج فولفيه لانه قرصانا

---

[1] أرزم الرعد : اشتد صوته.

مرهوب! وماذا يصنع أكتافيوس، ابن قيصر الذي قاتله أبناء بونبي سنين كثيرة؟ لقد أرسل إلى سكستوس رسول سلم ليخطب له ابنه أخية سكريبونية! أجل، أن سكريبونية أسن منه، وقد صارت أيما مرتين، ولا تزال حاملاً من بعلها الأخير على ما يحتمل، غير أن سيد رومة ألغى القانون الذي يفرض على الأرامل أن ينتظرن عشرة أشهر بعد أيمهن وقبل زواجهن ثانية، ويطلق ابنه فولفيه من فوره، ويتخذ المرأة البونيية زوجاً له مع ولائم عرس يقيمها في منتصف الصيف فيوجب ضحك المجتمع الروماني.

ويوضح خبث أكتافيوس بورثه السلطان في السابعة عشرة من سنيه من غير إعداد، وهو على ما كان من حيائه وضعف فتائه وغبشه الفلسفي نزل عليه هذا السلطان كصاعقة خفيه، ومع ذلك فإنه لقب بالرجل الباغي منذ ذلك الحين، وذلك أنه كان يغتصب الغواني من بيوتهن وإن لم يرهن بعيينه الفاترتين عند مرورهن مرة خارج منازلهن، وهو الذي صار بعد زمن يحمل على نزع ثيابهن ليطمئن إلى بكارتهن.

وتجرح كرامة أنطونيوس ويفور دمه من طلاق ابنه فولفية ومن رده بونبي، ويخرج من أثينة كالمجانين من غير أن يودع زوجه، ويباغت كتائبه ويحرضها على الانتقام ليروجيا، ويشعر بأن هؤلاء الرجال لا يزحفون لمقاتلة رفقائهم عن رضاً! ويكرههم على القتال مع ذلك، وبينما كان يتقدم ظافراً وينال نصراً إذ يأتيه من أثينة من يخبره بموت فولفيه، وكانت فولفيه هذه دون الثلاثين من عمرها حين وفاتها، ولكن طموحها الذي كان يغذي حقداً وغيظاً، اكثر من ميلها إلى الظهور، قد قصفها في كمال سنها.

وكان طموح فولفيه من النوع الهدام العدمي، وكان طموح قيصر من النوع الإنشائي العاطفي، وكان طموح أكتافيوس يقوم على شوق غير شعوري إلى طرح الدرع الثلجي الذي يكتنفه وطموح كليوباترة وحده هو الصافي تركيباً.

ولم يرضها موت منافستها، بل أخافها، وذلك لأن زوال فولفيه يقرب منطقياً بين الخصمين اللذين يتمنيان هذا التوفيق بلسان الحال ولكن ماذا يحدث لقيصرون، وماذا يحدث لها، إذا ما أقنع أنطونيوس نفسه بأن مصر أينعت وحان جعلها ولاية رومانية؟ إن ائتلاف ركني الحكومة الثلاثية أمر خطر على الملكة، ولم تعتم أن أبصرت ذلك.

وأكثر الجنود رشداً هم الذين يطلبون الآن من رؤسائهم أن يسرعوا في إيجاد حل يسعى إليه هؤلاء الرؤساء بطيئاً بأساليب سياسية، وقد قضى هؤلاء الرومان وقتهم منذ خمس عشرة سنة في مقاتلة رومان سائرين بقيادة هذا القائد المشهور أو ذلك القائد الغامض الأمر في سبيل شهوات شخصية يخفيها الزعماء تحت برامج خلقية كما يأتي: "وضع حد للفوضى، إنقاذ الوطن، حفظ الأسرة، حماية التملك الخاص"، أى تحت أمور لم يفكر أحد في تهديدها.

وأخيرا يلوح انتهاء الضجيج الذي لا معنى له، وفي برنديزي تعقد معاهدة جديدة فتعين تقسيم تراث قيصر بين أركان الحكومة الثلاثية بأحسن مما وقع منذ ثلاث سنين، فيظل ليبدوس ضمن نطاق إفريقية الرومانية الضيق، ويكون لناطونيوس الشرق حتى الحدود الألبانية، ولكن مع ترك إيطالية والغرب بأسرهما لاكتافيوس، وكيف يمكن رومانيا أن يقترف مثل هذه الحماقة ما لم يكن غير شاعر بأنه روماني في فؤاده! إن ترك رومة للخصم يعني نفياً، يعني كون التارك

والياً فقط ولو كان قابضاص على زمام ست ولايات وكان غير مكلف بتقديم حساب إلى احد.

ولما عقدت معاهدة السلم هذه سهل على الاثنين إقناع آخر أبناء بونبي الكبير، سكستوس بونبي، بأن يعقد معاهدة، وتكون له صقلية، وسردينية بهذه المعاهدة، ولكن مع عدم ميله إلى المحافظة على التزاماته كعدم ميل أركان الحكومة الثلاثية ومما حدث أن أقام وليمة لأصدقائه الجدد على ظهر إحدى سفنه في خليج نابل فجاء القرصان ميناس ليسأله: "أو يجب أن أُبض على هؤلاء الرجال؟ أو تريد أن تكون سيد الإمبراطورية الرومانية؟ ليس على إلا أن أرفع المرساة وأنشر الشراع وأقطع القلوس[1]"، ويسود صمت، ويفكر بونبي، ويقول في آخر الأمر: "ميناس! ميناس! كان عليك أن تصنع هذا من غير أن تسألني! لقد جاء هذا متاخراً! لقد صرت رهين قولي".

إذن، لاح في أوائل سنة ٣٩ قبل الميلاد أن الحرب الأهلية قد انتهت، فاعتقدت إيطاليه تمتعها بالسلم للمرة الأولى منذ أربع عشرة سنة، وكتب ديون كاسيوس [2]

يقول: "لم يكد الزعماء الثلاثة يعقدون حلفهم بالمصافحة وتبادل القبلات أمام أساطيلهم وجيوشهم حتى تصاعدت من البر والبحر أصوات سرور لا حد لها، ويضم الشعب صوته إليها، ويصدر عن هذه الألوف من الناس الذين لعنوا الحرب كثيراً هتافات تدوي لها الجبال كثيراً ويغمى على عدد من الناس ضناً فيسحقهم الجمهور، وبما أن من هم في المراكب لم يطيقوا انتظار دورهم طويلاً

---

[1] القاوس : جمع القلس ، وهو حبل للسفينة ضخم.

[2] ديون كاسيوس : مؤرخ يونانى ولد حوالى سنة ١١٥ .

فإنهم وثبوا إلى الماء، وبما أن من هم على الشاطئ لم يكونوا أكثر صبراً من أولئك فإنهم وثبوا إلى البحر، وذلك ليتمكنوا من تقبيلهم بأسرع ما يمكن، ورئي من الناس من لاقوا أناساً كانوا يظنون أنهم لن يلاقوهم، ورأى من الناس من عرفوا آخرين كانوا يظنون أنهم لن يلاقوهم، ورأي من الناس عرفوا آخرين كانوا يعتقدون أنهم من الموتى، فلما شاهدوهم بهتوا دهشاً غير مصدقين عيونهم مع شدة حرصهم على تصديقها، وهم لم يؤمنوا بالحقيقة إلا بعد أن تنادوا بأسمائهم وسمع بعضهم صوت بعض.

"ويبكي الكثير من شدة الفرح، ومن أولئك من كانوا يعتقدون حياة أبناء وآباء لهم ماتوا منذ زمن طويل فيركضون هنا وهناك ويسألون من يواجهون راجين أن يجدوهم خائفين أن يكونوا قد فقدوهم إلى الأبد، وحينئذ ينتقون شعورهم ويشقون ثيابهم ويوحون كما لو كان هذا الأب أو ذلك الابن قد مات منذ هنيهة وكانوا أمام جثته، ويستولي الحزن أو السرور على الحضور، ويدوم هذا النهار كله ومعظم الليل".

٩

كانت كليوباترة تنتظر ولادة ابنها بلا انقطاع، وإنها لكذلك إذ يمثل أمامها رسول، بعد نبأ تصالح اكتافيوس وانطونيوس، فلا يجرؤ على تبليغ رسالته، وتأمره الملكة بعنف أن يتكلم فيخبرها بأن أنطونيوس تزوج أخت أكتافيوس في رومة.

وكان هذا نتيجة طبيعية للحواث، وما كانت مصالح الممثلين وأخلاقهم لتؤدي إلى غير هذا، ولم ير كل من الرجلين الآخر منذ حلفهما الأول، ولم يتبادلا رسائل عداء، أو يباليان اليوم بدسائس المتوفاة فولفيه التي كانت تود إغراق إيطالية في حرب انتشالاً لزوجها من غرام؟ ويغضب أنطونيوس من النوادر التي أباحها بونبي الأصغر لنفسه حين البحث حول مصر، ويظهر أكتافيوس أكثر حذراً من أنطونيوس، وينظر زمناً، ثم يبلغ رغبته إلى بعض الضباط سراً، ويفضي هؤلاء الضباط بذلك إلى ممثلي الجيش، ويكرر هؤلاء الممثلون ذلك على أنه رغبة الجنود الغريزيه، أجل كان يمكن أكتافيوس أن يقول لصديقه بلباقة إن جنودهما يرجون تحولهما إلى صهرين، غير أن ملكة مصر تجعل هذه المصاهرة متعذرة.

ويقول بلوتارك. "لم ينكر أنطونيوس أن الملكة خليلة له، ولكن مع قوله إنها لم تكن زوجه، محاولا بذلك تسكين وجدانه، ومكافحة هواه".

ولـم يكـن هـذا وقبـول أنطونيـوس غيـر خطـوة واحـدة، ولـم يكـن وضـعه العسكري ملائماً، وقد حان رجوعه إلى سورية، وقد كان محتاجاً إلى كتائب أكتافيوس، ويدنو من بلد كليوباترة ويشعر بأنه مضطر إلى ضرب من الوقاية يجده في زواج جديد، وذلك لأنه خرافي، ويعني بالطوالع فيفسرها تفسيراً ملائماً، ولا واقع أن أكتافيوس ما انفك، منذ زمن، يقهر أنطونيوس في الألعاب العسكرية الكبرى التي تقام في الأعياد الكبيرة، ومن المحتمل أن كان أنطونيوس يشرب كثيراً، ومن المحتمل أن سمن أنطونيوس فثقل كثيراً، ويفوز اكتافيوس دوماً وهو الأكثر فتاء وهيفاً، ويأتي العراف المصري والنجي لكليوباترة والمفوض إليه أن يتنطس [1].

لها الأخبار ليقابل أنطونيوس ويقول له:

"ستنال حظاً كبيراً، يا أنطونيوس، إذا ما اجتنبت ظل أكتافيوس، تجنب هذا الشاب، فشيطانه يتوعد شيطانك! ويكون شيطانك شجاعاً إذا ما بعد منه ويكون جباناً إذا مادنا منه".

وبما أن هذه الطوالع تهدد مصالح أنطونيوس ، وهو الضعيف الطبع، ويعمل ذهنه في تفسيرها حتى تصبح ملائمة له، فيرى في أخت أكتافيوس وسيلة للتوفيق بين الشياطين الذين لا يطيق أحدهما الآخر! ولا جرم أنها هي التي تعينه على البقاء بعيداً من المرأة المصرية حتى في سورية! ألم تكن كليوباترة سبب إفلات فرص كثيرة منه في وطنه بأن ترك فولفية تقوم مقامه في الحكم؟ سيوضع له ولد عما قليل، وسيسير على غرار قيصر من كل ناحية، ولكن ستسكمل الدائرة، وسيبطل السحر، وستنتهي المغامرة.

---

[1] تنطس الأخبار : تجسسها وبحث عنها.

أو لم تكن إرادة الآلهة هي التي قضت بموت زوجته وزوج أكتافية في زمن واحد؟ كانت أكتافية جميلة، وتعرف رومة كلها هذا، ولم تغوه أكتافية قط، وهي بالغة العفاف لذلك، ولكن ماذا يقع إذا ما عملت هذه السيدة الممتازة أموراً يحمر وجهها منها؟ لقد علم وجود سيدات يخجلن! يا له من حدث! يا لها من تجربة! هي أحسن من أخيها أكتافيوس أخلاقاً، وسبب هذا هو كونها اخت كلالة له، وأنها ليست مثله سليلله الجد المرابي فلنرى، وكانت قد أحبت مارسلوس[1]، حتى أنها كانت حاملاً منه ولداً آخر، حتى إنه كان عليها أن تجلس في العرس ما استطاعت اجتناباً لضحك الناس، ومهما يكن من أمر فإن على أخيها أن يقدم إليه كتائبه كمهر! ثم ينصرف.

ويتزوج أكتافيوس وقت زواج صهرة الجديد، وذلك أن ابنه أخي سكستوس بونبي أصبحت غير نافعة له بعد معاهدته عمها فطلق للمرة الثانية وفاوض نيلاً لليفية التي كان زوجها المطلق لها قد أعطاها مهراً، وكذلك كانت ليفية حاملاً، كخطيبة انطونيوس، حين دعت آلهة المعبد أن تنعم عليها بكثرة النسل، ولا مراء في أن كلا الحاكمين تباري في أطيب القول حول عروسة بسبب حفلة الزواج المزدوجة.

وكانت كليوباترة تعلم كثيراً من ذلك عندما أخبرها الرسول بزواج أنطونيوس، وتضبط نفسها وتسأله هادئة: هل من الصحيح كون أنطونيوس بكى ساعة موت فولفية، وكونه شرب خمراً في اليوم نفسه، وكونه رئى مع مغنيات من فوره، كما تسأله عن كيفية دفنها، وعن مقدار الزمن الذي مضى منذ أيام حتى صار خاطباً مجدداً.

---

[1] مارسلوس : قنصل وخطيب رومانى توفى سنة ٤٦ ق . م.

ولكنها حينما كانت وحدها، حاولت، على غير جدوي، أن تبصر وضعها الجديد بدم بارد مرة أخرى، وقد أضعفها حالها البدني فنزع منها ما كانت تستوحيه من خلق الكفاح عادة، وتسأل في نفسها: أذلك من أجل هذه الليلة أم من أجل الغد؟ ويلوح لها أن وضعها أكثر ضغطاً وصبرها أقل مما كان عليه سابقاً، ويكون قيصرون بجانبها وتقول آه إنه لن يكون وحده، وتسأله عن أكفاره ابنا للسادسة، وتقبله، ويتمثل لها نحو ربع ساعة كون ولدها الثاني سليسل قيصر بطريق خفي أعدها هذا الرجل العظيم بروحه، ثم تحاول أن تذكر وجه أنطونيوس وملامحه بأقصى الدقة، وأن تتنور في الوقت نفسه من يشابه في ميدان الغرام، وترد خاطرها كلمة جافية كان قد أخبر بها الجندي وهو يضحك، أنه ينسل ابناً.

ثم استحودت عليها نوبة غضب بغتة حين فكرت في تسليم نفسها إليه، وأغوائها إياه، وتطرح نفسها على الأرض وتمزق ثيابها وتضر بالإماء اللاتي يساعدتها على النهوض، وتستلقي على ظهرها منهوكة مع أنين، ولا تستطيع البقاء علي وضع، ثم تتمتم باسم أنطونيوس وباسم أمها الذي نسيته منذ حين، وتبصر مقدار ما كان من انعزالها، وتذكر إخواتها وأخواتها الذين حملت على قتلهم لتملك وحدها، وتخشى إقدامها السابق على إمساك أجنبيين في البلاط يتركانها الآن في قصرها مع ولدين من والدين مختلفين، وقد قتل أحد الأجنبيين وحرقت جثته وحولت إلى رماد منذ زمن طويل، وقد احتفل في هذه الساعة على ما يحتمل بعرس الآخر بين الموسيقا والولائم.

وتتنور هذا المنظر بغتة فتبصر الراقصين هنالك في منزل أنطونيوس، عيني هذا العدو الأزرق الفاترتين، وتطلب بأعلى صوتها أن يؤتي لها بقيصرون على أن يحرسا ما دام بجانبها، ويخاف الصبي، ولا يعرف أمه ويفر منها، وتطرد عبدها

وتبقي وحدها، وتحلم بإحدى الليالي التي كانت تقاسم أنطونيوس فراشه فيها فتجتذب شعر صدر هذا الجبار يصرخ ويلطمها.

وتضع كليوباترة في اليوم التالي توأما، تضع ذكرا وأنثى ويزول الكابوس، وإنما تسأل الآلهة عن معنى هذه الهدية الغريبة، ويكون جواب الكهنة غامضا، ولكنها ترى أن من الممكن أن يكون للولدين أبوان، أحدهما قيصر والآخر أنطونيوس، وتضحك، وتدعوهما "إلهي الشمس الصغير" و"إلا هتي القمر الصغيرة"، وتقسم أنها لن تفكر في أنطونيوس، ثم تبكي بغتة لأنه بعيد وينام مع امرأة جديدة لا يعود أبداً.

وكانت كليوباترة تجهل في هذه الساعة التي هي أحرج ما في حياتها، كما تجهل أكتافية، وكما يجهل جميع الناس عدا نجيين، الجملة الصغيرة التي كتبها أنطونيوس حني زواجه في رومة، ولا يعلمها أحد غير صديقين له أمضيا الوثيقة شاهدين، وذلك لأنه لا يوجد عند هذا الرجل الثرثار غير أسرار قليلة لا يبوح بها إلا لنفسه في أدق الأوقات، ويذكر في أحد هذه الأوقات موت قيصر وما كان لوصية هذا الجبار الكبير من النتائج، والآن يجب عليه أن يذهب إلى محاربة الفرس فيرى، وهو ابن للثانية والأربعين من سنيه، أن يكتب لأولاده وأصدقائه وصيته الخاصة وفي هذه الوصيه يعرب عن رغبته في أن تحمل جثته بعد موته إلى الفوروم الروماني في موكب مهيب، ولكن على أن ينقل بدنه مركب إلى الإسكندرية حتى يرقد بجانب الملكة كليوباترة ذات يوم.

وكانت هذه آخر رغبة له، آخر وصية له، ويختم الوثيقة، ويسلمها إلى كاهنة فتسأل الكبرى.

الفصل الرابع

ارس[1]

"الألم يعقب الحب، ومن ذا الذي يعزيك أيها القلب المعذب الذي خسر كثيرا؟ وأين تلك الساعات التي مرت كلمح البصر؟، لم يكن جمالك إلا غروراً، وذلك هو نصيبك!" (غوتة)

[1] آرس : إله الحرب كما جاء في الأساطير .

١

قامت كليوباترة وحدها في ثلاث سنين، أى بين السنتين **٣٩** و**٣٦** بشؤون الحكم في الإسكندرية، من غير أن تمثل دوراً في تاريخ رومة، وتذهب سفنها وتأتي كالمكوك فتفرغ في أوستي قمح وادي النيل وتجلب الفضة في إسبانية والخشب من بلاد الغول، ويصل المصارعون والممثلون والتجار والصيارفه بين الملكة الزائلة والجمهورية الآفلة، ولكن مع تطور تاريخ كل منهما على انفراد، وثمن سلم قصيرة عليهما باويقات للتنفس كما ثمن على بلدان البحر المتوسط الأخرى، ولا تقضي كليوباترة هذين العامين، إذن، بما يختلف عما تقضيه جميع ملكات تلك السواحل.

ومع ذلك يوجد فرق، وذلك أنها امرأة ذات ثلاثة أولاد بلا أب، امرأة لها وضع خليله مهجورة كان يمكن أن تهاجم لو لم يبعد سلطان البطالمة أعداءها منها، ولم يحل هذا السلطان دون كل شيء ولم يقص كل خطر على الرغم من ذلك، أو لم يكن من الطبيعي أن تسمي ملكة لا ورثة شرعيين لها ولا مدافعين عنها إقامه لأسرة مالكة جديدة إذا ما ظهر شريف ساخط يعيش في بلاط الإسكندرية؟ وأى شيء أسهل من الاتفاق على هذا مع أكتافيوس الذي كان يبغض منافسه الوحيد قيصرون؟ أجل، ليس لدينا من الوثائق ما يفصل لنا أمر دسائس البلاط في لاسنين الثلاث الأخيرة، ولكننا تستطيع أن نستنبط من الوضع

العام أموراً كمشاعر الملكة التي كانت تتردد بين الإقادم والإحجام والأمل وقهر الميل.

كانت هذه المرأة المترجلة الجريئة، التي أكلت الخبز اليابس أيام الحرب ونامت في مجاري الهواء البارد بالخيام، أكثر نساء عصرها رفاهاً، وكانت تجهل عدد عبيدها وخصيانها الذين كانوا يخدمونها صامتين، وكانت إذا ما استحمت صباحا في أحد مغاسلها الكبيرة المصنوعة من الرخام السماقي التي لا يزال بعضها موجوداً أحاطت بها ست نسوة مجهزات بمناشف حارة لدلكها ودهنها بالعطور، ثم تضجع على وسائد باردة من كتان وتتكئ على إحدى ذراعيها أمام مرآة كبيرة ذات انعكاس صدفي ضارب إلى خضرة متخذة وضعها المفضل، وتسرح شعرها، ولكن من غير خضب مع أن اللون الأشقر كان شائعاً، ولكن من غير انتحال الشكل البرجي في رصف ضفائرها مع أن الرومانيات الأنيقات كن يتنافس في هذا الشكل، ولكن مع عدول عما كانت تميل إليه في صباها من خصل مسترسله، والتى تجعل شعرها على سبعة أمواج، كما تدل عليه تماثيلها النصفية، فلا تفرقة في وسطه ابتعاداً عن الدلالة على ارتفاع أنفها، وتمسك شعرها بعقدة عالية بعض العلو خلف الرأس، ولا شيء يخالف شدة الشكل الإغريقي غير عقصة صغيرة ظريفة فوق العين اليسرى، والنمط نمط ملكة والعقصة على الجبين عقصة كليوباترة.

وكانت كليوباترة تحب لبس المافورت، وهو ثوب لا يعدو حد غشاء يبلبل كل رجل يكلمها لمحاولته تمثل نهديها تحته، وإذا ما كان هذا الغشاء وردياً لاح تليونه لبياض البشرة بما يثير الرغبة.

ثم تشدم أمه هماتيوناً إليها، وهو مصنوع من حرير ملطية ويكون أصفر كالزغفران أو أزرق كاللازورد، وتحتاج كليوباترة إلى أربع نسوة عند لبسها دسياً، وهو ثوب ذو أكمام يحتاج إلى أيد كثيرة لإدخاله وتقصير زمن إلباسه، وإذا ما تأخرت أمه عن تقديم فتحة الذراع ثانية ضربتها كليوباترة برجلها لكيلا تلوث يديها بضرب جارية، وهذا الخبط من بقايا الفراعنة.

وكانت كليوباترة تحب لبس ثوب ذي أبازيم [١] عندما تستقبل أجنبياً وجيها، وذلك لأن الأبازيم والزنانير تحمل الرجل على مد يده وشغل خياله، فيذهل ويسهل خداعه عملاً، وكانت تميل إلى الظهور أطول مما هي عليه فتلبس أحذية جلدية صغيرة ذات أعقاب عالية، وكانت، إذ ما استقبلت سفيراً خطيراً، تنزلق عن خرافة، تعاويذ غرام في النعل وإن لم تقصد أن تقوم معه بأعمال الحب وكانت كليوباترة تحب زيت الأرز لأنه يذكرها بحرارة الصحراء، ولكن الجارية المعطرة إذا لم تبصر أن الملكة تفضل المر [٢] صباحا خطمت القارورة حالا، وانتشرت رائحه زيت الأرز التي هي أقوى من سواها مرتين وذعرت الجواري، ولا ينبغي لأحد أن يناولها حليا من غير أن تطلبه، وإنما تبسط جواهراها أمامها وتعين بحركة ذقن ما تختاره منها، وهي تؤثر الياقوت الأصفر على غيره في الغالب، وذلك لأن لونه الذهبي المتقد يذكرها بالعسل عن شهوة، ولا تحتمل في مرات أخر غير التماع الفضة البارد، وذلك عندما تفكر في قيصر.

ويتبع التوأمان سربا من الخدم فيصلان كالشهب بين جماعة من الهررة والقردة الأهلية، ولكنهما تعلما أنه لا يجوز مس أمهما بعد أن تكون قد أتمت

---

[١] الأبازيم : جمع الإبزيم، وهو شيء من معدن يقوم مقام العروة ويكون فى أحد طرفية لسان يدخل فى الطرف الآخر.

[٢] المر : مائع يسيل من شجرة فيجمد، وهو طيب الرائحة مر الطعم ويعرف بالمر الصافى.

زينته وترتجف المربيات لأنهن لا يعرفن هل يمسكنهما أو يطلقنهما، وترفع كليوباترة الصبي إسكندريين ذراعيها بحذر، وهو الصبي الذي يشابهها وحده بين الأولاد الثلاثة، ويتصف بارتفاع قصبه أنفه ويجد في محاكاة فمها الجميل، وهو يماثل أمه رشاقة وهيفاً، ومن جهة أخرى ترى كليوباترة الصغيرة صورة حية لانطونيوس، ويضحك الناس من مطابقة ملامح هذا الجبار ومرحه لما عند هذه الطفله البالغة من العمر سنتين، وتضحك الأم من تبادل الفصلين هذا، والأم قد رأت الصغيرة تحمل سوطاص بيدها فتأمر وتسيطر وتهدد وتطوف بين الخدم على حين يبدو إسكندر نحيلاً باحثاً "فكأن الطبيعة خلقتني غلاماً" كما تفكر، وإن لم ترغب أن تكون قد خلقت من الجنس الآخر.

ويجب أن تظل الردهة المتوسطة الحجم التي تستقبل وزراءها فيه خالية حتى تدخلها، وهي لا تطيق وجود أحد عندها قبل أن تطلع على أوراقها، وقيصرون وحده هو الذي يسمح له بالانتظار هنا.

يكاد قيصرون البالغ من العمر شعر سنين يعدل أمه طولاً، وهو يشابه أباه "شكلا وصوتا" هل حسب تعبير أوميرس[1]، وذلك لأنه طويل جليل، وذلك لأنه يتكلم بحرارة وتأمل ويتصف برصانة قيصر الشاب قبل زمن دلالة وفي آخر حياتة حين أنجب به، وينال قيصرون بهذه الرصانة الكبيرة تراثاً يزيد به أمل الملكة أن يصبح ولي عهد، وهو يحس بسجيته وأصله المضاعف أنه مدعو من ثلاث نواح إلى تعلم كل شيء وجمع المعارف باكراً كما كانت أمه تصنع.

وتعلم كليوباترة قيصرون فن الحكم، ويجب عليه أن يتعلم سريعاً وضع المملكة المصرية وعاصمتها المعقد، وأن يعرف المسائل المالية والعرقية

[1] أوميرس : شاعر اليونان المشهور ، وصاحب الإلياذة والأوذيسة.

والقومية، ومنتجات بلدة وكل ما هو خاص بالمشترين وبالأسر الحاكمة التي تملك سواحل البحر المتوسط، ولهذا كانت تريد أن يحضر في كل صباح جميع المقابلات والاجتماعات في ردهة الاستقبال، ولهذا كانت ترغب أن يتعود موظفوها إطاعة ملكهم القادم منذ الآن، وهي تحس، كامرأة، أنها ستكون سنداً بوجوده، وما يحف بصباها الأول من ذكريات، وما يحف بأصل آلها من تاريخ قديم، يجعلها ترى في قيصرون أخاً صغيراً لها ومثل زوج نظري يقاسمها السلطان، حيت إنها كانت تنظر إليه مثل ظهير سراً، وذلك كما لو كان قيصر يعينها، في شخص ابنه، على تدبير أمور الدولة.

وهنالك البلاط قبل كل شيء، والبلاط هو ما يتعلم الغلام الرزين فيه تمييز مراتبة حين الاجتماعات الصباحية، يتعلم فيه لقب قريب أكابر الدولة الذين يتبوءون مقاعدهم بعد أن يحنوا رؤوسهم أمام الملكة وأمامه، ولا تنسى الكتبة الذين كانوا بعدد رمال صحراء ليبية كما في عهد الفراعنة والذين كان رئيسهم يعدل الوزير مرتبة فيتلو قرارات الأمس المدونة في سجله الكبير التي تصير أحكاما ملكية بالتدريج، ولا تنس كبار المستشارين الحاملين لاقتراحات المراسيم الخاصة بالإسكندرية ولا الحكام الموكول إليهم تنفيذ هذه المراسيم، وذلك لأن العاصمة الإسكندرية ما فتئت تعد مدينة خارج الحدود أى "مدينة حرة"، وفق معني هذه الكلمة اليوناني، ويتعلم الصبي أن يميز بعضق والأسر من بعض، والعروق والأسر ما كان قدمها وحقوقهما إلى ما لاح من القضايا ويتعلم الصبي امتيازات الأغارقة ومكايدهم حول المصريين، والوضع القانوني لليهود الذين بلغ عددهم مليوناً في مصر فنال الكثير، منهم حق المساواة، ويطلع الصبي على زهو الإسكندريين وعلى ميل المصريين إلى الانتقام عندما يصب أقوياء، وعلى غيره

الأغارقة تجاه المقدونيين أو نحو من ينتحلون هذا الاسم، وذلك لأن آل الملك ما انفكوا يباهون بإنمائهم إلى مسقط رأس الإسكندر ويفاخرون بأصلهم المقدوني مع مرور ٢٥٠ سنة على تسلمهم زمام الملك.

وإذا ما حضر الكهنة، وكبيرهم كاهن الإلة الإسكندر وأول رجل بعد الملك في سلسلة المراتب، تعلم قيصرو امتزاج الطقوس التي كان الكهنوت الإغريقي قد عين مقاديرها مراعيا شعائر الأهلين القديمة جم يبن إيزيس وأفروديت، وجامعاً بين بلوتون [١] وسرابيس [٢]، ويبصر قيصرون ما تبديه الملكة من الوقار المصنوع في الاستفسار عن صحة الثور المقدس، وما تنتحله من ولع خالص في فحص سجل موجودات المعابد حتى الآنية الذهبية والملاعق الفضية منها، وبينا هو كذلك إذ يسمع تقرير أحسد ضباط الشرطة المشتمل على نبأ إطفاء الفتنة التى أحدثها في السوق باعة العدس أمس، وعلى ضرور دحر باعة بذر البطيخ قريباً من البحر مادام ذلك الاضطراب نتيجة هذا التزاحم الجديد.

ويظل قيصرون واقفاً هنالك مع قليل ميل إلى الخلف ومع انتصاب، ويسمع الجمنازى، الذى يعد من أعلى موظفى الدولة الذى يكون لابساً ثوباً أحمر وخفاً أبيض، وهو يقص نبأ الفوز الذي ناله مصارعو مصر في فرغامس [٣]، ويطلب زيادة مقدار ما يشرى من الزيت الصافى الذي يحتاج إليه مصارعوه في بعثاتهم الذى هو مستثنى من احتكار الدولة، ثم يأتى مدير النيل الأكبر ويبين، مستعيناً بخرائطه ورسومه، حال القنوات التى يجب جرف الطين منها التى يجب توسيعها ويوضح السبب في كون محاصيل الخضر رديئة في القسم الأعلى من

---

[١] بلوتون: ملك الجحيم وإله الحق وإله الموتى كما جاء في الأساطير.

[٢] سيرابيس: إله مصر في العصر البطلمي والروماني.

[٣] فرغامس: اسم ملكة قديمة بآسية الصغرى واقعة شمال مملكة لودية، وهذه الأخيرة هي ولاية أزمير الآن.

طيبة، ويذكر أى الضرائب يجب أن يؤدى لابتياع بضع مئات من النواعير التى لا غنية للرعى عنها، ثم يجيء رقيب الاحتكارات ليقدم حسابات البردى والبر والزيت والملح الشهرية، والآن يدرك الصبى أن احتكار الدولة هو مصدر الخزينة المشهورة التى يرثها ذات يوم وأنه مصدر السلطان والاستقلال، والآن يعلم كيف يحسب زراع مصرف الدولة ومجهزو مراكب الملكة وأملاك الحكومة حصصهم فتدفع إليهم، والآن يعرف علة كون التجار من الأغنياء على حين تغذى تجارة مصر خزينة البطالمة.

ولكن الذي يجعل قيصرون أكثر زهواً هو ما يراه من دخول الرومان على الملكة ليكلموها عن صفقات كبيرة من القمح أو ليخبروا عن عدائيهم في العام المقبل، متخذين هذه الذريعة للملح هذه الملكة المشهورة التى لم تطو أسطورتها في رومة بعد، ويمثلون مع عجب، ويلاحظ قيصرون أن الملكة تضخم الأرقام دوماً وإن كانت تمنح في نهاية الأمر أكثر مما أرادت، ويشعر الصبي في هذه السويعات بأنه أسمى من أمه، وذلك لأنه، وإن كان يعجب، فاسم قيصر يثير في النفوس احتراماً أكثر مما يثير اسم البطالمة، ولا عجب، فقيصرون ابن قيصر.

وينتبه طموح الصبى عندما يقدم ناظر البلاط سفراء وأجانب في ردهة الاستقبال الكبرى فيميزهم الصبى بأسلحتهم وأزيائهم، ومنهم التراكيون [١] والبتينون [٢] واللوديون [٣] والفرس وكهفيو بحر القلزم ونوبيو مصر العليا والغلاطيون [٤]، والصينيون أحياناً، ويزيد احترام الصبى لأمه عند ما يسمعها

---

[١] تراكية: هي بلغارية في الوقت الحاضر.

[٢] بتينية: من آسية الصغرى.

[٣] لودية: من آسية الصغرى.

[٤] غلاطية: من آسية الصغرى.

تخاطب كثيراً من هؤلاء الناس بلغاهم فيقضى الأجانب والمصريوين العجب من ذلك معاً

ولا يرى الغلام أمه في أثناء اشتداد الحر بين الساعة الثانية والساعة السادسة، كما أنها لا ترى أحداً، وهذه هي الساعات التي لا ترغب أن تكون فيها ملكة ولا أماً، وهنالك تجد من الحرية ما تضجع معه على متسكها المفضل بين نسخة جديدة من سافو أصدرها أدباء الموزيون حديثاً وبين مرآة ملاطفة هراً شهوانيا، أو تلتقط ملفاً من البردي مشتملاً على شعر هجر من آخر وراية هزلية سياسية ياتيها بهبة من جو رومة الهجائي، ثم تطلب رسائل وكلائها برومة، وتعيد قراءة هذه الرسالة أو تلك وتهز الورقة بيديها الطويلتين النحيلتين كما لو كانت تود أن تروز ما يمكن أن تحتويه من حقيقة، وتقطب قليلاً وتفكر وتسأل في نفسها: هل سكستوس من القوة ما يضعف به اكتافيوس ويقوي به أنطونيوس؟ ولكن طيفاً يقع في خاطرها، ولكن زوجه انطونيوس الرومانية تلوح لها فتمزق الرسالة أرباً إربا وهل تسمها؟ هل تلعن هذه المرأة للمرة المائة، وتطرد الفكرة وتداعب الهر.

وإذا ما جاز تصديق ما يتناجى به الخصيان وجد عبد شاب ضاجع في مكان الهر المفضل، ولكن على قلة ولوقت قصير ثم يتوارى العبد في سرداب معروف على الدوام تقريباً.

وإذا ما حان وقت الغروب خرجت الملكة راكبة عربة، ويكون قيصرون عن شمالها، وتظهر لابسة ثوباً أرجوانيا ذا شرط لاكونية [1] وتبدو حاسرة الرأس حاملة مظلة صغيرة، ويحيط بالعربة حرس مقدوني ذو قلانس من لبد أبيض وذي رماح

---

[1] نسبة إلى لا كونية، وهى ولاية المروة فى أيامنا.

طويلة كانت تستعمل أيام الإسكندر، فيخافها الناس خوفهم من الأقواس الأقريشطية، والموزيون والمكتبة هما أول ما يمر أمامه فيرى عند نوافذهما، دائما، علماء متبرمون، ويلاحظ قيصرون تحية أمه لهم، ويمكن الأم والابن أن يشاهدا ميدان السباق ومدرسة الفرسان من بعد، وتأتيهما الريح من الحمامات العامة بصراخ الشبان وهم يغوصون ويتلاجون ويضحكون.

وإذا ما بلغا الترابيلون (الباب ذا الأضعاف الأربعة) عند مفرق شارع الإسكندر الكبير أبطأ المتنزهان، وحاولت الملكة أن تكتشف بعينها النفاذتين أموراً كثيرة بين الجمهور لم يقل لها مستشاروها شيئا عنها، وتجد كليوباترة، وهي فوق مستوى الشارع مترا واحداً، أنه من الممكن احتمال الجمهور والصبر على القذارة والفقر مع ما ينبعث من رائحة المسالخ والبلاليع والوبائية، وذلك لأنها تعلمت في رومة كيف يطبخ الرأى العام، ولا يحول ازدراؤها لذلك دون تنسم ما يحدث.

ويفتح الصبي المستطلع عينيه الكبيرتين في الأسواق الصاخبة، فيصبر رجالاً ونساء وزجاجين وحاكمه وزمراً ومنازل كبيرة ذات طبقات كثيرة، حيث يصنع ورق البردي الذي تبيعه الحكومة غداً، ويستدل الصبي على هذا الرزم المكدسة خارج الأبواب، والصبي قد سمع في الصباح أمر بيع الحكومة لهذه السلع، والصبي يرى الآن صواغاً يدندنون حول تلامهم[1]، والصبي يرى مطارق فضية تدق المعدن دقا جافاً، والصبي يرى الآن سماكين جوالين يصرخون حول ثمن ما يبيعون، ولكن النحاسين يحدثون من الضوضاء بطرق صفائح النحاس ما

[1] التلام : جمع التلم وهو منفخ طويل يستعمله الصاغة.

يغطون معه كل صوت آخر، فيظن الصبي أنهم يضاعفون الدق لأن الملكة تمر، وذلك من غير أن يعرف هل يفعلون هذا عن حقد أو عن حب.

وليس قيصرون طليقاً في المساء أيضا، فيجب عليه أن يذهب إلى حدائق القصر الكبري ليرد تحية المجتمع الراقي ويلاحظ أوضاع الفلاسفة "عير الخاضعين للضرائب" الذين يتلقى منهم دروساً بعد الظهر، ويجب عليه أن يتعلم ماذا يدفع للمغنية ومتى يمكنه أن ينصرف، ولكنه يستطيع أن يسمع من النافذة، في ساعة متأخرة من الليل، أغاني داعرة توقعها على الفيثارة نساء في الحديقة الدنيا، أو يمسع أصوات المشرح وقاضي القضاة في زاوية من الحديقة وهما يتحاوران، عند تناولهما لحما بزنطيا مملحا، ليعرف هي يحب أن يؤخذ جبن ساقز [1] مع خمر سورية أو خمر ليبية.

وتجده الملكة جادا في المطالعة بجانب مصصباحه حتى ساعة متقدمة، ويضحكان من آخر ثرثرة وقعت في المدينة نهاراً ثم علما أمرها في الحديقة مساء ولما تركته بعد أن رسمت قلبه على جبينه أبصر جمستا [2] كبيراً على غضبها، ولكن من غير أن ينبس بكلمة حول ما يعزى إليه من القدرة، ومما يحدث بعد ذلك إحيانا أن تجلس طويلاً أمام مرآتها فتفكر في حياتها بروح واقعية من السخرية، وتقول في نفسها مع إمالة رأسها قليلاً نحو اليسار لتبصر أثر قرط اللؤلؤ الطويل في أذنها اليسرى:

"يا للسخرية! ملكة قادرة تعيش إيما، أو تكاد، مع اشتهارها بحسنها وخطرها، وذلك لأنها لا تجد رجلاً يروقها طويلاً، وللفارس الأكبر ساقان

---

(1) chio ، وتعرف عند العرب بجزيرة المصطكى وهى من جزائر بحر إيجة.

(2) الجمست : من الحجارة الكريمة.

جميلتان، ويا لعينيه اللتين يفتحهما! لقد زينت نفسه له المحال! وقد احمر وجه قيصرون عند ما هزت الراقصة ثوبها، وإلى من يفوض في بدء أمره؟ خليلة سليمة خير من أميرة، إذا ما رفع ثمن الملح نصف درهم أمكن سد نقص الزيت في هذا العام، ولم تشتري قبرس من البردي أقل مما في الماضي؟ نحتاج إلى زيادة صانعي الأكاليل من الأزهار! فكرة ملطية غير رديئة، ولكن من يعرف أنه لا يقبض على سفني بلوغها هذا الميناء؟ ستقع أزمة عاجلاً أو أجلاً، وكل يخافها، ولا نزال تتمتع بالسم لهذا الخوف، ويشابه الصبي أباه إذا ما ضحك! لا يلبثون أن يطلبوا خمراً بدلا من اللبن، غداً يجب جعل الخصلة أقرب قليلاً من الحاجب الأيسر.

٢

يلهو أنطونيوس في أثينة في تلك الأثناء، وتروقه زوجه أكتافيه، فقد استردت هيفها بعد ولادة ابنتها من زوجها الأول، أي بعد زواجها الثاني ببضعه أشهر، ويظهر انطونيوس سخياً فيسمي هذه البنت أنطونيا، ومما صار يسره أن يجعل من أكتافيه العبوس أكثر ليناً، ومما صنعه، هذا الذي يصعب على النساء أن يقاومنه كما هو معروف، هو جعلها تنساق مع إعصار بهجة حياته ولو لزمن قصير، وما أكتافيه إلا كالمربية الرزينة التي يحملها الولد الجميل على الضحك خلافاً لإرادتها، ثم تشعر بانقباض صدر.

وما أكثر ما صنع ترويحاً لنفسا ولها! ومن ذلك أنه نزل إلى ميدان الصراع جمنازياً حسما لخلاف بين متباريين رياضيين فرفع أحدهما بإحدى ذراعية لأنه جبار وجعله يترجرج في الفضاء أمام جمهور يصيح فرحاً، ومن ذلك أن كان يصرف الحرس عند بابه ويمشي في الشوارع مع العلماء والممثلين الهزليين، ومن ذلك إن كان يدعو جميع أثينة إلى ما تلزم بالإنفاق عليه بعدئذ من الألعاب الرياضية، ومن ذلك أن أنشأ فوق المسرح مظله باخوسية لتعاطي الراح فيها مع أصدقائه، ضاجعين على فرش من خنشار [١] ومستمعين إلى صوت الأبواق والطبول.

---

[١] الخنشار : نبات.

وكان من أسباب شكر أنطونيوس بعد النسيب الصعب، أكتافيوس، في إيطالية، وذلك لأن أنطونيوس يشعر بصداع إذا ما أبصره، والآن يسمع أن هذا الشاب رفع نفسه إلى مرتبه "ابنة الآلهة" فيعزم على كسفة، ويذهب مخموراً، مع حرس مزمجر، إلى ذورة الأكروبول ذات ليلة، ويحمل على المناداة به ديونيزوسا مبعوثاً بين دخان المشاعل، ثم يحتفل باقترافه الخفي بأتينه [١] ويقدم بنفسه تمثاله إلها إلى المعبد مثيرا نوادر أهل أثينة اللاذعة، مطالباً هذه المدينة بدفع مليون درهم هدية عرس، وهنالك يصرخ أحد أعضاء المجلس البلدي قائلاً: "إن الإله الأكبر زوس أخذ أمك سميلي[٢] من غير مهر!"، ويضحك أنطونيوس، ولكن مع إلزام أهل أثينة بالدفع!

ويلقي انتصار قواده عند حدود الإمبراطورية الفارسية ذعراً في سادة الساحل، فيأتي هؤلاء لمفاوضته، ويتلهى بنصب ملوك صغار فيجعل هيردوس ملكاً لليهود ويجعل دارا ملكاً للبنطش ويجعل آخر ملكاً لقونية، ومن قوله إن هؤلاء رجال فقط مع أنه إله وكان يعتقد هذا حين سكره.

وتعلم كليوباترة جميع ذلك، ولكن ليس هنالك ما يدل على أنها راسلته في أثناء تلك السنوات الثلاث، ولم يرو مؤلفو ذلك الزمن غير كلمة واحدة نطق بها أنطونيوس عندما سئل في ذلك الحين عن خليلته المهجورة وتوأميه اللذين وضعتهما له وهي: "لا يمكنني أن أحصر عقبي في امرأة واحدة، وكذلك جدي هركول قد جاد بدمه في أماكن كثيرة تأليفاً لأسر جديدة"، ولو نقل إليها هذا القول ما أثار دهشها.

---

[١] أتينة : إلهة الفكر كما جاء فى أساطير اليونان.

[٢] سميلى : أم ديونزوس كما جاء فى أساطير اليونان.

وتظل راصدة للأمور من بعيد، وكانت إذا ما عن لها أن تبعث رسولاً، أو أن ترسل كتاباً، إلى أنطونيوس تنبذ هذه الفكرة من فورها شاعرة، كملكه، بأنها فوق هذا البلدي الذي لم ينل حظوة لدى قيصر إلا لإبدائة نبوغاً في ميدان القتال، وما فطرت عليه من سلامة ذهن كان يشد ازدراءها لأنطونيوس، حتى حينما يساورها فزع نسوي، فيحول دون استدعائها إياه مهما كانت الأحوال، وهي التي كان يخالج فؤادها وحي خفي قاتل بإنه سيعود من تلقاء نفسه.

ويشيع ذات يوم خبر وقوع اختلاف بين الصهرين، فيكون لها أمل بهذا، غير أن الإشاعة تمضي، ومما حدث أن اشتاط سكستوس بونبي غيظاً من تطليق اكتافيوس المفاجئ لبنت أخيه فنقض هذا الابن لبوني الكبير، المستعد دوما لإنزال ضربة على أنصار قيصر، عهده وأصاب اكتافيوس بهزيمة ساحقة في معركة مسينة البحرية، ويفقد هذا الوارث لقيصر، والبالغ من العمر خمساً وعشرين سنة، رشده ويترك القيادة في أثناء القتال ويفر إلى الساحل ويدعو انطونيوس إلى مساعدته؟

وفي آخر الشتاء يبحر أنطونيوس الذي كان لديه من الأمور ما يتطلب إنجازا، إلى بونديري حيث يجب على اكتافيوس أن يلاقيه، بيد أن أكتافيوس، الذي وقف على رجلية ثانية، لم يراع الميعاد، وتتكرر الإهانات، ولم تجتنب الحرب الأهلية إلا لأن الخصمين كانا يريدان اكتساب الوقت.

وتتوسط أكتافية، وكان أنطونيوس قد جعلها حاملاً من فوره وفق عادته فسمى هذه البنت الثانية أنطونيا أيضاً عن كيد وأسرع إلى إنتاج ولد آخر ما أراد هذا، ثم عاد لا يكترث لزوجه صاحبه له بفعل الأحوال، وهو لما صار يتعب منها أخذ يذكر ما اتفق له من ملاذ في الإسكندرية، وتلو له شنعاء فينفر من فضيلتها،

ويعرضها لمغريات صديق له، ويغطيه صدها هذا الصديق فيعزو تمنعها إلى زهوها الروماني الأدبي القديم، لا إلى حبها لزوجها، وأما المراة الأخرى! وأما المرأة الأخرى التي هجرها التي ما انفكت جميع الأنباء تحدث عنها! تستطيع هذه المرأة أن تكون ذات ولدين معاً وأن تجد من الوسائل ما تظل معه فاتنه! لا يوجد من الأمور ما تعجز عنه! ولكن أكتافيه دجاجة بياضة رديئة!

ولم يكن الطلاق ممكناً، لأن الطلاق يعني قطع ما بينه وبين أكتافيوس، ولم يطلقها؟ يكفي أن يجعل البحر فاصلاً بينهما ليكون طليقاً، وهي يمكنها أن تبقى في رومة مع بنتها ومع الابن الذي ستلده ما دام خارج الإسكندرية، ومن رومة يمكن زوجة أنطونيوس السعيدة أن تبادل زوجها رسائل وتحية بتحية.

وليست كليوباترة وحدها هي التي يبحث عنها مصر، بل يبحث فيها عن حرية عزوبته أيضاً، وهو، لما تتمثل هذا البلد، ولم يسطع أن يمنع نفسه من التفكير، مع الافتتان، في الفؤائد العظيمة اتلى تجنى من محالفة الملكة سياسياً، ولذا يجب عليه أن يسير على عجل ليبقى أقوى الثلاثة، وبما أن أكتافيوس كان يحب أنطونيوس من بعيد أكثر من حبه إياه من قريب، وبما أنهما أخذا يتعاملان خصمين، فإن من الطبيعي ألا يكترث كل منهما لكون أكتافية أشقى نساء العالم بين أخ وزوج إذا ما تقاتلا.

ذلك هو الوضع عند ما جدد الحكم الثلاثى في تارانت [1] لخمس سنين، ويترك أنطونيوس لاكتافيوس ١٣٠ سفينة لكي يقاتل بها بونبي، وينال في مقابل ذلك فرقتين منه ليحارب الفرس الذين لم يقاتلوا إلا جزئياً ومع انقطاع مكرر، وقد أريد السير وفق العادة القديمة والتقاليد العسكرية فخطبت ابنه أكتافيوس لابن

---

[1] ميناء إيطالى واقع على البحر اليونانى.

أنطونيوس من فولفيه، وبهذا يكون أكتافيوس البالغ من العمر ستاً وعشرين سنة قد قرن في هذه المرة ابنته باخي، خطيبته السابقة.

ويخلع أنطونيوس حذاءه الأبيض ويتحول إلى جنرال مرة أخرى، وتملأ أذنيه ثانية بتحدي فارس التي كانت أبواقها قد أغرقت طبوله الباخوسية لكيلا ينساها، ويرى هذا القائد شهر الحرب وفق سنة الطغاة، ما دامت الحكومة الثلاثية الجديدة، التي قامت من غير شوق ولا داع منطقي، لا تستطيع إخفاء تزاحم الخصوم، وما دام لا يمكنه حفظ سلطانه المغتصب بلا قتال، ولم تحسر قدرتها الرمزية أوراق قيصر التي لا يزال أنطونيوس حافظاً لها وغير مسلم إياها إلى أحد، وأما قدرتها العلمية فقد بعثت في السنين الأخيرة حينما شجعت فتن رومة عدو الإمبراطورية التقليدي، أى الفرس، على مجاوزة الحدود.

ولكن محاربة الفرس تتطلب مالاً ولو كان الجيش متوسط القوة، ومع أن أمناء بيت المال كانوا يقومون بتزييف النقود فإن الكتائب ظلت شهوراً من غير أن تنال أجوراً، أجل كان يمكن أكتافيوس أن يزيل همه بتوزيعه أرضين مصادرة بين كتائبه في إيطالية . غير أن أنطونيوس كان مضطراً إلى النقد، وذلك لأن من المشكوك فيه أن يجد في سورية ما فيه الكفاية من الغنائم، وأين يجد ما يحتاج إليه من النقود؟ مصر وحدها هي التي تستطيع أن تموله، وهل من اللغو أن صار أنطونيوس عاشقاً لأغنى نساء العالم؟ إن من العوامل العلمية ما قوي في نفسه أحلام دون جوان وأحلام المغامر، وإن جميع العوامل دفعت ابن الحظ السعيد إلى هذه الغاية، وقد كانت ثروة كليوباترة مفتاح فارس، وقد كان أنطونيوس مفتاح كليوباترة، وكان أنطونيوس ممسكاً له، ولما تمثل هذه المرأة السافرة في أثناء سكره أبصر كيس ذهب بجانب بدنها العاري.

ويقوض الخيام ويذهب إذن، ويفارق زوجه في كورفو[1]، ومن المحتمل أن يكون قد رتبها على خدها وطلب منها، كأب صالح، أن تغنى بالأولاد، ويسافر إلى الحرب آخذاً معه غصناً من الزيتون المقدس وماء من الينبوع المعروف بالكلبسيدرا [2]، غير أنه كان يجب عليه، قبل كل شيء، أن ينفض الغبار عن معاطف صغار الملوك بين البحر وفارس، وأن يقضى على جميع المكايد المستقرة منذ ثلاث سنين في نفوس هؤلاء الأعداء لرومة، ولأنطونيوس على الخصوص.

وتفارقه أكتافية حاملة عاطفة أم، وأكتافية هي الزوجة المخلصة التى عنيت بمن لا معين لهم من الأولاد مع ما لا قته من حسد القرباء وحماقاتهم، وأكتافية هي التى تغنى الآن بابنتها وبأولاد فولفية، التى ستغنى بمن لا تبصرهم من الأولاد، ولا ريب في أنها لم تغد شقية بتوديعها زوجها، هذا الرجل الذي لابد من أن يكون قد ظهر لها مجنوناً جذاباً، وما ورثته من حس الواجب الذي اشتهر به قدماء الرومان كان يجملها على التضحية بسعادتها في سبيل آلها أو في سبيل الدولة، وقد كانت أخصب من يضحى باطناً.

وقد حضر وداعهما شخص ثالث، حضره أكتافيوس الذي أبصر سفر أنطونيوس صامتاً، ولكن مع أمل خفى كبير، ولن يرى أحدهما الآخر، ولا يخاف أكتافيوس أن تذهب أخته ضحية هذه المغامرة في نهاية الأمر، ويرجو أكتافيوس هذا، وإذا قهر بونبى الخالد وغدا سيد إيطالية وحده واشتد ساعده فيها وفصله عن أنطونيوس البحر المتوسط الذي تتعذر مجاوزة الجنود له شتاء فإن انتصارات

---

[1] كورفو: من الجزائر اليونان.

[2] تجيء بمعنى الساعة المائية الدقاقة في اللغة اليونانية.

صهره المحتملة تزعجه مع ذلك لما يكون لها من صدى يؤذيه لدى الرأى العام ، وذلك لأنه يشعر بأن أنطونيوس ذو خطوة شعبية في كل مكان وبأن الناس يعدونه قائداً قديراً، ولا مناص من أن يبقى واحد فقط من رجال الحكم الثلاثة، من رجال الحكم الاثنين في الحقيقة، فيصبح سيداً وحده.

٣

"ساب [١] ذلك الحصان الجاح الذي شبه به أفلاطون بعض الأهواء، فأرسل أنطونيوس فونتيوس كابيتو ليدعو كليوباترة إلى سورية خلافاً لكل شرف ومصلحة وحصافة"، هذا ما قاله بلوتارك عندما أراد أن يوضح السبب في سلوك أنطونيوس ذلك السبيل دون سواه.

وما كان لينتظر منه غير ذلك، والعجب كل العجب في مرور أربع سنين من غير أن يصنع ذلك، لا في صنعه ذلك، وقد يتوقع القارئ نبأ رفض الملكة ذلك بإباء فيأتيها ذلك الرومانى نادماً راكعاً، ويقع عكس هذا، وذلك لأن أنطونيوس كان قائد جيش فجاوز البحر هو وجنوده الكثيرون ليزحف إلى الشرق فلا يستطيع أن يسير إلى الغرب، وخلاف هذا أمر الملكة كليوباترة التى يسهل عليها أن تنتقل كما تشاء، وكل شيء يحملها على الإسراع إلى جهة الرجل الوحيد القادر على إنقاذها من وحدتها، وكل سبب سياسى وخاص، أي كونها ملكة مصر وأم ثلاثة أولاد، يدفعها نحو الهدف نفسه.

ولما أبحرت للمرة الثانية إلى ذلك الخليج الشرقي الواقع على البحر المتوسط، وذلك لأن أنطاكية تقابل طرسوس على الساحل السوري، كان يساورها

---

[١] سابت الدابة: مرت حيث شاءت.

من المشاعر ما لا يمت إلى ما ساورها منذ خمس سنين، فالمرأة التي كانت مضجعة تحت شراع أحمر منذ خمسة أعوام هي امرأة كانت تزدلف إلى المطالبين بدم عاشقها القتيل وتحاول تحويل يد الفاتحين عن بلدها الغني المكشوف العاجز عن صد كل غزو، وهي إذا كانت قد فعلت هذا عن ظرف وكياسة عرفت بهما فإن شوقاً غير شعوري إلى لذات غير مذاقة أوحى إليها بدهاء لطيف ونزة [١] زاهية، وهذه هي امرأة جريئة كانت قد ذهبت للقيام بمغامرة بنتاً للخامسة والعشرين من سنيها، وهذه هي امرأة لم تزل أفروديتاً وقتئذ.

غير أن التى تقف الآن في مقدم السفينة هي ملكة مصر كليوباترة السابعة، هي امرأة بالغة من العمر ٣٢ سنة، هي أم أرضعت ثلاثة أولاد وجلس في حضنها جبار، ويظهر صدرها أكثر امتلاء تحت قميصها الوردى، وهى إذا كانت قد أضاعت فتون صباها فإنها تشع ينوعاً، وهى تعرف نعم الحياة وتود ألا يفوتها شيء منها، ويلوح نظرها أكثر توتراً وعروقها أشد بروزاً وعقدة عقاصها أعظم ارتفاعاً، وتبدو شفتاها الجميلتان وحدهما كزورقين على طرفى مضيق ضيق، فكأنهما تنتظران قبلة تفوق الوصف، وما كان لأحد أن يعتقد إمكان فتحهما للشتم.

وما كان من طموحها الذي أمسك قيصر في فجره، زاد في سنى الخطر والمسؤولية، ولم ينفك يوجه الناس بصعوبة، وما كان من حياء هذه المرأة الوحيدة، التى استطاعت أن تعتمد في شبابها على أعظم رجال عصرها، فسح في المجال العنجهية مؤدية إلى إمكانيات جديدة، وأما الآن فإن المشاريع البشرية قامت مقام أحلام الآلهة.

---

[١] النزة: الشهوة الشديدة.

ولم تلبث ذكرى الشتاء الباخوسى الذي علم هذه المرأة الطيش فأسفر عن توأمين، أن أمحت في روحها فيمكنها أن تكون فاترة ساخرة، وهى التي وجب عليها أن تنسى عشيقها تماماً عندما لاح في الأفق نجم أكتافية، هذه الزوج الجديدة التى اختارها أنطونيوس حراً فختمت المغامرة الكبرى، غير أن العقل لم يعتم أن تغلب عليها فغير رأيها، وذلك لأن هذا الرجل لا يزال سيد نصف العالم ويستطيع أن يكون خطراً على مصر، ولذلك لم تدم غيرتها ويفوز الحذر على الحقد، ويستنفد الولدان، اللذان وضعتهما يوم زواج أنطونيوس مجدداً، جميع حيويتها النسوية حيناً من الومن، ويفسح غيظها في المجال لسموها، أما هذه الرهان التى لا جدال فيها، وهل من العجيب أن خضعت، لتوق بلدى روماني فيما مضى فتزوج هذا الرومانى بلدية رومانية أخرى غير ناظر إلى نصيبه الملكي؟ وماذا ينتظر من هؤلاء العوام؟

ومع ذلك فإن أنطونيوس لم يغب عن بالها في هذه السنين الأربع، ولا مناص من أن تتمنى هذه الملكة المهددة والمرأة المهجورة عودته، وبما أن أحد سيدى العالم عدو ابنها الأزرق فإن ذهنها ينصرف إلى السيد الآخر وإن عادت لا تحبه، وهى، فضلا عن ذلك، كانت تفوقه ذكاء فتغضى في بعض الأحيان عن كل إساءة وترضى عن طبعه كما كونته الآلهة ناظرة إلى الوجه الذي يسيطر به عليه فتنتفع بنواحي الضعف فيه، وهل الذهب أقل من الجمال قيمة ؟ أو لم يجمع جدودها هذه الثروة في ثلاثمائة سنة حتى تستطيع حفيدهم القصوى اشتراء حريتها بهذا الذهب ذات يوم، أي حين لا ينفع أي أمر آخر؟

وبينما هي جالسة على ظهر مركبها في هذه المرة، وبينما توجه ناظريها في هذه المرة نحو هدف سفرها في الشرق، ترى ألا تبدو أنطونيوس في مركب

أفروديت، ولا مراء في أنه يريدها ولكن يجب عليه أن يقطع لها عهداً، فأولادها الثلاثة يحتاجون إلى أب، وتحتاج مملكتها إلى حلف، وقد علمها أبوها ألا تعادي رومة أبداً، وكانت قد حلمت بإقامة إمبراطورية عالمية في رومة، فقضى خنجر بروتوس على الرجل الذي كان عالماً بنفسه فأزال هذا الحلم، وكانت قد ابتعت الروماني الأكبر، فلاح اليوم نصف رومة، فقط، ميداناً لخططها، ووجب على الرومان الأصغر أن يطيعها، وبما أنها لم تر من هو أعلى منها فإن عينيها امتدتا إلى سلطان أعظم مما لديها وإلى أملاك أكثر مما كان لأجدادها.

وتعرف من هو أنطونيوس، وتشعر، بعد موت قيصر، بأنه لا يعدلها هدفاً إلى غايات جديدة، وهي لم تعتقد، قط انتقال عبقرية قيصر إلى جيب ضابطه مع أوراقه السرية، وهي لم تجرؤ، قط، على نقل حلم الإسكندر إليه، وهي تعلم قبل أن تراه ثانية، إنه ظل، كما كان، محبوباً متحولاً وأنها هي التي تكون موجهة له إذا ما فاوضته فعلاً، وهي لا تدري هل تستطيع تحويله عن فارس، وإنما يقوم عملها الرئيس على إبقائه بعيدا من رومة، وهي إذا ما وقفت لفصل طبيعته الإغريقية عن العالم اللاتيني الذي لا يحبه كثيرا كما يلوح أمكنه أن يجعلها سيدة جنوب البحر المتوسط بأجمعه، وهذا هو ثمن أمر شكلي بسيط، ثمن جعله ملكاً لمصر، وبينما كانت هذه الأفكار تدور في ذهن كليوباترة عند مقدم سفينتها وحين شمها نسيم البحر كان يقف بجانبها شاهد، ووراث الرجل الذي أسفر نزوله إلى مصر عن تلك الخطط حول الإمبراطورية العالمية، وكان لا معدل لسياستها وزهوها عن قيصرون الذي يكشف له هذا السفر عن قسط من عالم جديد، الذي يجب على جميع الشعوب في كل مكان أن تبصر فيه، وهو الطويل الرصين البالغ من العمر أربع عشرة سنة فقط، سيدها القادم، ولم تر هذه المرأة التي تعلو أمام البحر

المتوسط جرأة وتصوراً وخيالاً إن تقدم إلى عاشقها العائد ولديه، وذلك لشعورها بأن هذا الباخوسي الذي له خليلات في كل مكان لا يبصر في الولدين غير المنظر الهزلي، ولا يتمثل بها غير ذكرى الزمن الذي أنجب فيه بهما، وأما الابن الذي تريه إياه بدلاً منهما فهو ابن قيصر، هو الولد الذي يثير اهتمامه لهذا السبب وحده.

وتدنو الملكة، وهي ذات برنامج وضاح ملائم لجميع رغائبها، من تلك الزواية المقدرة التي تنفذ إلى ثلاث طرق صالحة لكل فاتح ومؤدية إلى ثلاث جهات من البوصله، وتدفق في ثيابها، وتعين أى المشابك والقراط يلائم كل لباس وتعد ما يقوم منظرها من الأزياء والحلي، ويقف قيصرون بجابنها قليلاً، وينظر إلى هذه الأمتعة بعين خالية، ثم يلتف إلى تدوير المركب الذي يراد تثبيته.

٤

وجدت في قلعة أنطاكية أمور نادرة، وقد أراد أنطونيوس أن يقيم لملكة مصر وليمة ليلة لم يقم مثلها من قبل ليثبت أن الروماني يعرف كيف ينظم الولائم، وقد مضى أسابيع في إعداد كل شي رأى مثله في مآدبها وإن منح كثيراً من الجزئيات ضبغة رجولية لكيلا تغرق سمتها الرومانية فيما هو أجنبي، وتدخل الملكة راكبة حصاناً محاطة بحرسها اللابس أبهى ثياب مصحوبة بابنها الأهيف الذي يظهر أخاً لها فيلوح لانطونيوس ما عده أمرا عادياً من فوره، وهو لم يهدأ روعه إلا بعد يومين حينما وكدت له، بأدب، أن وليمته كانت من الروعة ما هو غير مسبوق.

وقد منعت كليوباترة نفسها من عشيقها القديم ليلتين، فكان هذا أمراً جديداً على أنطونيوس، وقد أراد، بما اتصف به من قدرة شاملة، أن يقوم بصولته عند خلوته الأولي بها كما لو كان يصل ما انقطع من غرام بعد سفر، غير أنه يجدها امرأة تغير أمرها، ولم ينشأ هذا عن كونه صار لا يروقها، بل نشأ عن أنها لم تنم على الواقع، وهي لم تمطره بوابل من اللوم كما صنعت به فولفية في أثينة، وهو لم يجد من العوائق غير تبسمها، ولما أراد أن يمثل دور هركول ضارعاً متوعداً مناوبة قهقهت في وجهه، ولم ترفع إصبعاً، وتقهقر، ولمير ما يصنع خيراً من هذا، وأخذ يضحك أيضا.

ويحتفل في اليوم الثاني باقترانهما، ويكون النقاش إيجابياً، ويوافق أنطونيوس على ضرب نقود جامعة لاسمها، ولكن مع وصفة فيها بالحاكم المطلق، لا بالملك، وذلك لانه، وإن كان يصير بهذا زوجاً للملكة، يبقى والياً رومانياً، وتعترف بفوائد هذه الحيلة، ضرورة هذا التحفظ، وذلك لأن أنطونيوس إذا ما غدا ملكا أو طلق أكتافية رسيماً أدى عمله هذا إلى نهاية الحكم الثلاثي، وبدا قتال أكتافيوس أمرا لا مفر منه، واما المغامرة الفارسية فإن من المتعذر صرفه عنها، وما على كليوباترة إلا أن تنظر إلى المعسكر العظيم لتعلم هذا، ولم يكن من الممكن نقل جميع تلك الكتائب إلى مصر، وتبصر كليوباترة، وأنفها راغم، انغمار ألوف الوزنات التي أخرجتها من خزائنها في لجة فارس، ولكن ألا تكون قد منحته بهزة رأس جميع الذهب الذي يحتاج إليه في حربة هذه؟ ويرى أنها أغنى نساء العالم قاطبة عندما أجابته إلى ما طلب، وتقدم إليه معاهدة سياسية ليمضيها.

والآن في مساء اليوم الثالث، يصدع الموسيقيون في الرداه، ويشرب مئات الضباط من أركان حرب أنطونيوس وبطانة الملكة من الخمر السورية السائغة الثقيله كإخوان، وتدعي ألطف الراقصات إلى المعسكر ويحيط الرجال بهن ويضايقونهن، ويوكد الغرام والوداد بست لغات لا يفهم منها غير بضع كلمات، ولكن مع إدراك جميع المعاني، ويصنع من دعي من أعيان سورية كما يصنع الآخرون، ولكن مع ابتسام صامت وهؤلاء الأعيان كانوا قد شاهدوا في مدينتهم القديمة تآخي الفاتحين ليقتلوا في نهاية الأمر.

وتقف كليوباترة أمام مائدة كبيرة في إحدى الغرف الصغيرة النائية قليلاً، وتنشر أمامها خريطة عظيمة ويمسك أطرافها أربعة عبيد على نور المشاعل،

ويكون قيصرون لابساً ثوب فارس مقدوني مع جزمة [1] عالية وإمساكه بيده عمرته [2] المصنوعة من لبد، وعطفه رأسة نحو تلك الخريطة بين الشمع، ويجلس أنطونيوس بيعدا منه خطوتين، وغير مرتاح من حلته الأرجوانية التي يجب عليه أن يلبسها في ذلك اليوم قائداً، ويسند ظهره إلى كرسي ذي تكاتين ويحدق إلى الملكة التي لم يرها جميلة إلى كرسي ذي تكأتين ويحدق إلى الملكة التي لم يرها جميلة بهذا المقدار فيما مضي، وهو الذي قد سر من نظرات صغار الملوك الضيوف إلى خليلته المشهورة معجبين، والآن يشعر بناه وحده معها ما دام غير مبال بالعبيد، والآن يمكنه أن ينظر إليها.

وهي تبدو طويلة تقريباً بثوبها الفضي وحذائها العالي الكعبين، وتلعب أشعة المشاعل في حيلها، ويظهر إكليلها المستند إلى خصلها محتوياً أجمل ألماس في عالم ذلك الزمن، وتتمثل للشروب الصامت أشبه بإلهة أجنبية مما بأكرم نساء رومة اللائي كان عليه أن يقابلها بهن، وهو، فوق ذلك كله، قد فتن بما أبدته من الهمة عند نظرها إلى الخريطة الكبرى ورسمها، بريشة طاووس، دوائر مبهمة وصوراً غامضة على البلدان والبحار فيها، وتعرف ما تحدثه من أثر، وهي تمنحه من الوقت ما يسكر فيه بمنظرها، ثم تلتفت إليه وتبتسم، وتوجه بذقنها نظره إلى الخريطة، ويثب، ويقرب منها، ويكون عن يمينها ويظل الولد عن يسارها، وهكذا يبسط العالم المصور بين الروماني وإغريقية مصر ووارث حلم الإسكندر الذي يجمع بينهم ذات يوم.

---

[1] Botte

[2] العمرة : ليأس الرأس مطلقاً.

وتطالب كليوباترة بهدية العرس أمام خريطة العالم، تطالب بالولايات القديمة التي كان الفراعنة يملكونها منذ خمسة عشر قرناً، ولأن تنال جميع هذا بصفقة فتقدمه إلى المصريين ولا سيما الأقطاب المقدونيون المتذمرون وتجعل منه إمبراطورية ما فتئوا يحلمون بها منذ قرون هو الوسيلة الوحيدة لتحويل زواجها الروماني إلى سلطان بالغ أوج المجد، على الرغم من العقبات التي تعترض لهذا، وهذا ما انفك يدور في خلدها حين سفرها بحراً، وهذا ما أبانته لابنها الواقف بجانبها الآن صامتاً كما لو كانت روح قيصر تود أن تحميها بواسطته في ساعة الفتح هذه، وذلك إلى أن البلاد التي تريدها ليست من أملاك رومة رسمياً، بل من أملاك الأمراء المطيعين لرومة كتابعيها.

وتظل هنالك واقفة لابسة ثوبها الفضي مع اهتزاز ريشة الطاووس في يدها خفيفاً، وتمس بعض الأمكنة على الخريطة بهذه الريشة، ولكن من غير أن تسميها، ولكن مع قولها فقط: "هذه.. هذه.. " وتشتمل هذه المحال على شبه جزيرة سيناء وقسم من بلاد الحجر العربية "بطرا"، وعلى إمارة خالكي [١] وجزء من وادي الأردن وعلي اريحا وعلي أقسام من أقريطش وعلى قسم كيلكة [٢] المشتمل على مناجم للقصدير عند سفوح طووس الذي يمتد حتى غاب الأرز من جهة الغرب.

ويقف أنطونيوس بجانبها، وتتحرك حتى تمس ذراعه ذراعها فلما أتمت قال في نفسه: "يا لها من امرأة غالية!" وهو لم يتمالك أن جعل ذراعه تهبط على

---

[١] خالكى : من جزائر بحر إيجه.

[٢] كليكية : هى ولاية أطنه فى الوقت الحاضر.

ذراعها العارية كما لو كان يود أن يدل على تهدمه قنوطاً من غير هذا، وكل لم يكن لهذا أى تأثير في كليوباترة وتبتسم وتلتقط ريشة الطاووس وتطرحها على قرطاس العالم الذي فتحت قطعاً منه، وتصيب الريشة رأس أحد العبيد الأربعة، بيد أن العبد لا يميد [1] ويهز أنطونيوس رأسه قبولاً، ويوافق على ذلك كله خلا أمرين، وهما أنه لا يستطيع أن يأخذ كل شيء من هيرودس الذي نصبه ملكاً لليهودية الذي يجب أن تترك له أريحا كمستأجر لها منا، وأنه لا ينبغي أخذ سيناء من الملك ملخس، فيجب أن يستأجرها من مصر مع كفاله هيرودش، ومن ثم ترى أنه لا يوجد غير اختلاف ضئيل.

وتأسف كليوباترة على كون ابنها حاضراً، فقد شعرت بأنه تتبع الجدال، أجل، كانت قد انبأته بأن الإذعان من الحكمة في بعض الأحيان، ولكن أيدرك هذا الآن؟ إن مما لا يتصور مطاليعها جملة، وصار من غير اللائق أن يساوم حول إجازة في تلك الحال الرفيعه الشان، وتخفض رأسها قليلاً صامته علامة للقبول كما كان قد صنع، ثم تدور حول عقبها ضاحكة، ويحملق أنطونيوس نحوها، ويزوي قيصرون ما بين عينيه وتجر الصبي من شعره وتهزة قليلاً، ثم تتناول ذراع زوجها، ويعودون إلى ضيوفهم.

([1]) ماد : تحرك واضطرب.

٥

لا جرم أن أنباء معاهدة أنطاكية المحيرة وزواج أنطونيوس قد هالت رومة، حتى قبل زحف الجيش الهائل نحو فارس، ويشعر أبناء الوطن بقشعريرة فزع، ولكن رسل أنطونيوس يذكرون باسمه أن رومة عظيمة بما كانت تعطي، لا بما كانت تأخذ، ويقيم أنطونيوس أسراً مالكة جديدة في كل مكان، ويتملقه اثنا عشر ملكا، وما منحه مصر يزيد رومة الكريمة مجداً، وينفق أنطونيوس مثل هذا الكلم ذات اليمين وذات الشمال.

وما كان مثل هذه الأقوال ليغوي أكتافيوس، وما زال أكتافيوس يتردد في اتهام حليفه أمام مجلس السنات لما ينطوي عليه هذا الاتهام من اعتراف بأن هذا المجلس، الذي ازدرى منذ زمن، يتمتع ببقية سلطان بعد، وكان قتالة لآخر آل بونبي مؤلماً، وهو لم يكن من القوة بعد ما يلتمس معه عذراً لمعاداة انطونيوس، وهذا ما كان أنطونيوس يعرفة عندما جرؤ على إثارة نسبيه بجمعه بين زوجين، ومما كان يقوله أنصار أنطونيوس لأنصار أكتافيوس: ألم يطلب قيصر نفسه من مجلس السنات سن قانون يبيح له نكاح أزواج كثيرة؟ لم يكن القانون المصري قانون رومة! هو لم يفكر في إحضار زوجه المصرية إلى رومة!

وإذا ما سخط روماني من نصب أحد رجال الحكم الثلاثة نفسه ملكا لبلد أجنبي أمكن إطلاعه على النقود المصرية التي لا تشتمل على اسم ملك مصري، وإنما كان هذا أبرع أسلوب واسم طريقه لجعل مصر ولاية رومانية من غير أن يؤذي المصريون بمواجهة الأمر الواقع؟ ويريد أنطونيوس أن يوضح الوضع ويسوي الأمر حول زواجه الثاني فيرسل كتاباً ودياً إلى زوجته الرومانية وكتاباً آخر إلى أخياها أكتافيوس كأنه لم يحدث شيء، ومزاجه الروائي هو الذي أملى عليه هذه التدابير، ثم يرى أن أمره استقام شاعراً بشرف الدور الذي مثله، ومع ذلك لم يلبث أن نسي رومة تمامً، ويتحذلق ويفاخر، متخذاً أسلوب سيلينوس[١]، بأنه ألقح نساء بنسبة قدرته على الإنتاج.

ومهما يكن من أمر فقد مضي أسابيع من غير أن يشكر، وكيف يقوم بعمله العظيم مع السكر؟ ومن المحتمل أن عيناً بشرية لم تقع فيما مضى على عرض عسكري، كالذي أراه أنطونيوس زوجه الثانية غداة العرس، فقد اشترك فيه ستون ألفاً من مشاة الرومان وعشرة آلاف من فرسان الغوليين والإسان وثلاثون ألفاً من رجال الحرس وركبانه الذين أمده الملوك التابعون بهم، وهذا هو نطاق الجيش الذي كان قد رسمه قيصر؟ وعلى الخرائط يدل أنطونيوس زوجه على الطريق التي أراد قيصر أن يشكلها، يدلها على أطول طريق وأسلمها من الشمال على ما يحتمل، فلا يتصل الرومان بكتائب آسية في غير آسية الصغرى، ويكون قطار أجهزة الجيش وأدوات الحصار عظيما جدا، وتؤدي المراحل الأولى إلى الرأس[٢] حيث ترابط، لا ريب، كتائب فرسان الفرس المشهورة التي يود زعيم [٣] الفرسان الروماني السابق أن يشاهدها عن كثب.

---

[١] سيلينوس : من أفروجية، والأب المربى لباخوس كما جاء فى الأساطير.

[٢] الرس : نهر بأرمينية.

[٣] colonel

وبينا كان يرى كليوباترة وابن قيصر تلك الطريق ذات مساء فيقابل بينها وبين الطريق التي يفضلها يتيه ذهن كليوباترة عما يقول، وترتد على مهل وراء أنطونيوس في الظل حتى تتمكن من مشاهدة الزمرة التي كان يؤلفها زوجها مع قيصرون في ذلك الحين، فترى الفتى يضع للقائد من الأسئلة ما ينم على حذر بالغ ويصغي الأنيس أنطونيوس مسروراً إلى ما يود الغلام أن يعرفه ويهر رأسه، ويجيب عن أسئلته بصراحة، ثم يسأله الصبي عن الجبال وعن إمكان نيل الخيل علفها عند قسوة الجو واشتداد الشتاء فيميل أنطونيوس إليه بسمعة طليق الوجه، ويأخذ بكتفه حملاً له على الانحناء أمام خريطة خاصة، مشيراً إلى الطرق والأنهار التي يمكن جلب العلف بها من السهول، ثم يضحك ويربت قيصرون على صدرة كأنه يريد أن يقول له: ستكون جندياً حقيقاً ذات يوم.

ولم تكن كليوباترة لتشبع من هذه الصورة في الركن الظليل، ولا عجب، فقد كانت روح قيصر تعود إلى الشباب عند محادثة أنطونيوس لابن قيصر، ولا عجب، فقد جاءت هذه الأحوال، مصدقة لما دار في خلدها حينما جاءت إلى أنطاكية لتتزوج هذا العاشق الأحمق.

وترافق أنطونيوس وجنوده حتى الفرات، ويودع كل منهما الآخر وداعا حاراً في زغمة، يسر أنطونيوس عن توتر عصبي من رجوعها في بدء الأمر، وينتقم مزاجه كالعادة، فقد غدت زوجه حاملاً مرة أخرى، ويولح أن المصارع يحتاج إلى هذا الطابع، والتي تعود مع ولدها.

يودنو الموت منها في أثناء عودها إلى بلدها، وذلك أنها جاوزت لبنان إلى دمشق، ثم تسير والأردن، وتجيء إلى أريحا، وهنالك يحيهما الملك هيرودس الذي فتن انطونيوس بغموضه البارع، ويتساومان حول طرف اليهودية التي افترض

تخصيصها به، وينوي أن يرسل من يقتلها في طريقها إلى أوشليم، وليس الأمر طعباً ما كانت تعاريج الطريق صالحة لكل كمون، ويظن أنه يخدم صديقه أنطونيوس بهذا، وأخيراً يعدل عما نوى، وقيول على رواية يوسفوس [1]، إن السيدة الحسناء حاولت إغواءه، ولكن من غير أن تؤثر فيه، فهاتان الخدعتان الهزيلتان هما، مع أعشاب بلسمية قدمها إلى الملكة، كل ما يبدو به في تاريخ كليوباترة.

ولو هلكت الملكة مع ابنها آئنذ لكان لتاريخي رومة مجرى آخر على الأقل، أى لكان الإمبراطور الباخوسي، قد سلك سبيل الإمبراطور الرخامي ولكانت أكتافية قد حملت منه ستة أولاد آخر.

بيد أن كليوباترة لم تقتل، وقد وشعت له ابناً ثالثاً في قصرها، وتضع امرأة كهذه غير أبناء، وهي إذا ما وضعت ابنه مصادفة كان هذا تكملة وزن، ويكون الأب بعيداً في هذه المرة كما وقع منذ أربع سنين، ولكن الزوج الشرعي والبطائن هم الذين يستطيعون، أو الذين يجب عليهم، أن ياتوها مهنئين، ويرتل الكهنة أدعية الشكر، وقيصرون وحده هو الغضبان.

ويسأل في نفسه: لم صنع لها كل ذلك مع أنه ذاهب إلى القتال؟ إن قيصر لم يبحر إلا بعد أن ولدت! ولم خاف أن ينادي بنفسها ملكاً؟ وما هو الحافز إلى حمل لقب أجنبي؟ أيصعب البقاء ملكاً لمصر وورومانياً معاً؟

---

[1] يوسفوس ك هو المؤرخ اليهودى فلافيوس يوسفوس.

٦

سارت حملة أنطونيوس الفارسية كمهأة واسعة النطاق وكان قيصر قد حلم بتجديد مجد الإسكندر، ويسخر أنطونيوس من الإسكندر، وكان قيصر يعتمد على عمل ثلاث سنين، ويبدو أنطونيوس غير صابر بعد بضعة أشهر، وكان قيصر يرى تاجاً ضمن طاقته فيرفضه ليناله في الشرق الفارسي، ويلعب أنطونيوس بتاج آخر بين القبلات والجرعات، وكان قيصر يهدف إلى سرج وكل حذاء، ويتخذ أنطونيوس بضعة أوراق ورآها من سلفة طلمساً ضامناً لعون الآلهة، وذلك لأن قيصر كان يشتعل باطناً بنار تزيد حرارة فتنير فكرة من غير أن تحرق جوهرة.

ومع ذلك فإن هذه الحرب الفارسية التي اشتعلت سنة ٣٦ أتاحت لانطونيوس فرصة إثبات رجولته للأعقاب، ويثبت أصحاب هذه الطبائع الذين هم ألعوبة الأهواء والشهوات، الذين يجعلهم أقل عائق في تقدمهم من السعري، قوتهم عند المصيبة إذا لم تغمرهم، وقد ثبت أمر أنطونيوس بالنكبة مرتين، ويرتجف جميع آسية الغربية حتى بلاد بفطريان [١].

عند ما أخذ الجيش الروماني القوي يزحف نحو الشرق، ويحسن ملك أرمينية، الذي كان جاراً وعدواً لفارس ومادياً الذي كان عونه جزءا جوهريا من

---

[١] بقطريان: هي بلخ وما يحيط بها من البلاد.

خطط أنطونيوس، استقبال هذا القائد الروماني ويزوده بالنصائح والكتائب فلا يكون لديه سبب منطقي ولا ميل حقيقي لخيانته، وكان اسم هذا الملك أرتقاسدس، وكان فليسوفا وشاعراً فضلاً عن كونه اسم ملكاً وجندياً، فقرأ بلوتارك مآسي له، ومن المحتمل أن خاب ظنه بشخص أنطونيوس الذي لا يبصر الخبير فيه رجلاً خلق للفتح، ولا يكاد يكون للعلل التي أبداها أرتقاسدس فائدة لنا بعد تلك الفاصلة الطويلة إلا لأنه شاعر.

لم يكن ارتقاسدس وحده هو الذي جلب الكارثة، والذي نعلم هو أن أنطونيوس فقد صبره في بلاد مادياً بغتة فصرح بغرمة على الرجوع إلى الساحل قبل الشتاء، وهنا يقول بلوتارك: "إنه عمل في هذه المرحلة من حياته عن اضطراب نفسي، فكان كمن سار متأثراً بقدرة ساحرة"، ولكن رغبته في التمتع بزوجته الفاتنه مرة أخرى لم تكن العامل المؤثر كما هو ظاهر، فليست المتع لتعوز انطونيوس ما أمكنه أن يجد ما يطيب له من النساء في كل مكان حين الغزو، ويلوح أن اتساع المساوف في تلك البلاد قد راعه، وأن روح قيصر، من غير أن يملي قيصر أوامره بنفسه، قد قهرته فراح ذلك الباخوسي يلتمس المخرج من الورطة رجوعاً إلى أطايب أيامه السائغة الرغيدة، وهنالك يبدو أنه ليس من الطول ما يتناول معه خطة قيصر العالمية، وأنه لم يكن غير الذراع اليمني لسلفه العظيم، وأنه لا يعوض من العبقرية بقصاصات ورق، وأنه لا يعوض من الولع بطموح وارث، ويتهافت أنطونيوس على المصيبة.

ويغذ في السير إلى عاصمة مادياً بدلاً من أن يعد معسكراته الشتوية في أرمينية لمهاجمة الفرس في الربيع الذي هو فصل خروجهم العادي، ويترك وراءه عرباته الثلاثمئة وآلالات حصارة التي لا تستطيع أن تباريه زحفاً التي لا يمكن

تعميرها أو استبدال غيرها بها ما خلت بلاد ماديا من الخشب الصلب، ويقطع العدو عن أنطونيوس قطار تلك الآلات أو يدمرها على حين يستعين أنطونيوس بمراق قليله فيحاصر العاصمة على غير جدوى، ويتوارى الحليف الأرمني من فوره، ولا يرجي مدد من هذا البلد الأجنبي، ويتقهقر الجيش ويقهر من قبل العدو الخارج من العاصمة، ويقمع أنطونيوس كثيراً من رجاله، ويبيد كثيراً من رجال الكتائب المذنبة ويعطيها شعيراً بدلاً من البر مهيناً إياها بهذا العقاب الذي يخشاه الجندي الروماني إلى الغاية لما يدل عليه من خفض إلى مرتبة الحيوان.

ويعيش هنالك روماني منذ هزيمة الرومان بقيادة كراسوس، ويصادف فيدل المهزوم على حدود أرمينية، والتي يرى جميع هؤلاء الآلوف، التي كان عليها أن تسترد رايات الرومان فتمر من شوارع رومة مدوية في موكب نصر، وهي تسير كقطيع غنم وراء دليل روماني منعزل أعتقد خيانته كثير من القواد والجنود، ويلاقيهم الشتاء في الجبال ويجيء الجوع مع الشتاء والمرض مع الجوع.

وهنالك يظهر أنطونيوس عظمته، وأسمع قول بلوتارك: "ويحب الجنود قائدهم لعدة أسباب، فأنطونيوس شريف الأصل فصيح صريح كريم يخاطب كل واحد بما يلائم ذوقه ويتصف بالحلم على الخصوص، ويعود المرضي ويقاسمهم آلامهم ويمدهم بما يحتاجون إليه، فلا تجد فرقاً بين المرضى والجرحى في أتباعه كالأصحاء!" وكان ذلك البلد يشتمل على نباتات سامة فتحول الجياع التي يأكلونها إلى مجانين، "فيدحرج هؤلاء التعساء كل ما يلاقونه من الحجارة"، وكانت الخمر تشفيهم، ولكن الخمر تستنفد فيموتون، وكان يوجد مشاغبون وعيون بين الكتائب الحليفة المنتسبة إلى عروق مختلفة، فهؤلاء، وإن بدوا حتى الآن مسالمين، لم يلبثوا أن تبينوا أفضلية عرقهم الخاص بعد الكارثة فصاروا

يوجهون التهم إلى الآخرين، ولما شق العصاة طريقاً إلى عربة أنطونيوس في آخر الأمر وأخذ بعض الجنود يسرقون أقداحه الذهبيه اضطر إلى أن يشهر السلاح عليهم".

ولما بلغ البؤس غايته وأخذ أنطونيوس يرتاب من دليله الروماني الذي ما فتي يعدهم في الجبال المهجورة بإيصالهم إلى نهر الرس، حيث يجدون في أيام الهلاك هذه من بلد حليف فضلاً عن الماء، ولما تحول الجيش الباهر إلى أخلاط من الأشرار، ولما صار رجال أنطونيوس الشجعان من الموتى أو المرضى، حلف أنطونيوس حامل رايته "أن يطعنه ويقطع رأسة عند ما يأمره لكيلا يقع أسيرا بين يدي العدو ولكيلا تمكن معرفته بعد موته"، وهذا ما كرره قبل موته وحين هزيمته الثانية.

وأخيراً، أى في اليوم السابع والعشرين من الارتداد، يشعرون برخاء [١] في الهواء فيعلمون أنهم قريبون من الماء، ويهجم الألوف من أنصاف الموتي على الماء، ويحس من بقي حياً من الجيش العظيم بأنه أنقذ بعد أن هلك نصف هذا الجيش، ويروي أن أنطونيوس صاح في أثناء الارتداد قائلاً: "واها! عشرة آلالاف!"، والواقع أن هذه الحملة الجديدة كانت تحتاج إلى إكزينوفون [٢] لتخليدها.

---

[١] الرخاء: الريح اللينة.

[٢] مؤرخ يوناني (٤٣٠ – ٣٥٢.م.).

٧

تتلقـى كليوبـاترة خبـر الهزيمـة بمـشاعر مختلفـة، فهـي إذا مـا فكـرت فـي سمعتها الخاصة شعرت بألم، وهي إذا ما فكرت في سمعه قيصر وبما نالاه من نصر في الإسكندرية معاً شعرت بخيبة أملها في رومانيها الثاني، ولكنها إذا ما فكرت في نصيبها الخاص ملكة لمصر وأما لأربعة أولاد لم تجد سبباً للتذمر، والأمر الوحيد الذي يجب عليها أن تخشاه هو أن يتم نصر عظيم في فارس، وذلك لأن هذا النصر يجعل من انطونيوس ظافراً رومانياً فيحتفل بنصره فوق الكابيتول، ولأن أنطونيوس يكتشف لمدة جميع ما في زوجه الرومانية من فضائل أهله، دع عنك ما يجد رجل الساعة هذا في الرداه والحانات من الرومانيات الآخر اللائي يتهافتن عليه ليرقنه، وماذا تكون موازين ملكه مصر لدى أنطونيوس المنصور؟ أذهبها وجمالها؟ لقد تمتع بهما! أم تراث البطالمة وخزائنهم؟ لقد نالهما! أم معاشق الشرق وملاذه؟ لقد شبع منهما! ولم يداوم على إضعاف مقامه بما يكتنف حياته الرومانية الإسكندرية من ضروب الإبهام؟ وكلما قلبت كليوباترة الأمور باعتدال دم، وهذا ما زاد فيها مع العمر ووضع البنين، وجدت ما ترجو معه هزيمة أنطونيوس، فهو بهذا يكون لها ولمصر، ولا داعلي لخوفه من المستهزئين، فكل قائد روماني، ماهر في تحويل الهزائم إلى انتصارات بلسانه كما يعلم في المدرسة وتعلم من وكلائها ماذا يقول الناس عن النكبة فضلاً عن إطلاعها على

جزئياتها، فتعرف أن ذلك لا يعدو حد الأخبار المضطربة، وإذا أراد رجل من حاشيتها أن يعرف كثيراً وأن يقف على جميع الحقيقة تدريجاً أسكتته ببسطها له خريطة مصر الجديدة التي وسعها أنطونيوس بما أعطاه من ولايات.

وذلك لأنه إذا ما قيل مع التوكيد فإن سادة مصر السابقين لم يكونوا مقاتلين مرهوبين قيل إن الجدد منهم لم يعدوا ذلك، وقد ظهر الإسكندر الأكبر فقطع التاريخ كنجم مذنب، ولكنه صار كنجم ثابت في السماء فظل خلفاؤه يلمعون مدة ثلاثة قرون ما ظل نوره ينعكس على دروعهم، ويبقي البلاط مشابهاً لبلاط الفراعنة ذهبا وترفا وعلماً، ولم يقتبس السادة الجدد، الذين كانوا يزدرون نسب المصريين الإلهي، من السادة السابقين غير عدم حماستهم الحربية، غير النعيم المذري بأصلهم.

ولذلك تكون الملكة التي تزيد رقعه البلاد وتغنيها من غير قتال، أى بفتونها فقط، معبودة لديهم، والحق أن المرأة التي تستطيع أن تؤثر في الروماني بسحرها فتبطل في شخص هذا الحاكم سلطان رومة العظيم الذي يتحبب إليه هي التي يخشى جانبها، وقد لاح أن المستقبل مضمون بالفتى الرصين الذي يحمل اسمي قيصر بطليموس الرمزيين، وأنه من الممكن أن يقوم مقامه أخواه الرومانيان عند الضرورة فعرفت كليوباترة أن توطد سيادة آلها أن يطمع في ضعضعة عرشها لأن أنطونيوس قهر في فارس البعيدة؟ لا في مصر، هو الركن الآخر في الحكومة الثلاثية.

بيد أن لدي أكتافيوس من الأسباب ما يتمني معه هزيمة انطونيوس كما لدى المصرية، وإن كان أكتافيوس قد قرب في أثناء الحرب الفارسية قرابين في المعابد وصولاً إلى نصر يوده الشعب كثيراً، ومن تلك الأسباب ما ينطوي عليه

انتصارا أنطونيوس من تهديد له، ويصفي حكم ليبدوس الضعيف ويقبض على ممتلكاته الإفريقية، ويغلب آخر آل بونبي بفضل أغريباً كما هي عاداته في كسب معاركه بفضل الآخرين، ويفر بونبي وينفي، وقد دامت الحرب الأهلية ست سنين، وقد جعلت هذه الحرب التي هي دون حرب قيصر الأهلية أهمية جنوب إيطالية والجزر في غير أمان، وهل من العجيب أن ينحني الجميع أمام الغالب، وأن يرجو مجلس السنات منه اختيار ما يرغب فيه من ضروب الإكرام؟ يجد أكتافيوس نفسه صاحب ٤٣ فرقة وألوفاً من الفرسان وستمائة مركب، وهو الذي كان آئنذ شاباً في السابعة والعشرين من سنيه، وهو الذي لم يكسب حرباً بنفسه، وهو الذي لم تجر في عروقه قطرة من دم قيصر ولم تكن فيه شرارة من روحه، فكان يشابه جده المرابي من كل ناحية لاتصافه بالقسوة والبخل والحذق في المضاربات المالية.

وتعرف كليوباترة كل ما تود أن تعرفه عن عدوها، ولا يقتصر ما تعلمه عنه على ما يفعله، بل تعلم ماذا يريد أن يعلمه أيضاً، ويسر إليها حقدها بما يفكر فيه، وتضحك عندما يوصف لها هذا الجبان الصعيف الجافي لابساً درعه اللامعة بين جماعة من المحاربين الحقيقين، وتضحك عندما تبصره يؤجل جباية الضرائب ويمنع الأرجوان مقلداً قيصر في تقربة إلى الشعب، وتضحك عندما تخبر بأنه يود إقامة معبد كبير لأبولون[1] على جبل يلاتيني [2] وبأنه يغمر هوارس بإحسانه لأن هذا الشاعر يتغنى به، ولكنه كان يرى على عينيها التماع بغض حينما عرفت أن اكتافيوس، الذي وضع عربة نصر أنطونيوس أمام المنبر في الفوروم ونصب تمثاله في معبد الكونكورد، أرسل منذ بضعه أشهر رسولاً سراً إلى ملك أرمينية ليفصله

[1] أبولون: من آلهة اليونان والرومان.

[2] بلاتيني: أحد تلال رومة القديمة السبعة.

عن نسبيه وحليفه أنطونيوس، أجل، كانت قادرة على قتل كل من يقف في سبيلها وقد نشئت بين مجرمين، غير أنها كانت من جلال الملك ما تترفع معه عن مثل هذا الغدر.

نعم، كان من المتعذر أن تعاهد هذا الروماني، ولكن بما أنه الممثل الوحيد لرومة في الحقيقة وجب عليها أن تعدل أساس حكمها البالغ خمس عشرة سنة، فتتجاهل المبادئ الموروثة عن أبيها وتنتحل سياسة جديدة، أى أن تحول زوجها الروماني عن وطنه بأية وسيلة كانت، وذلك بأن يصير ملكاً، فإذا ما أصبح ملكاً ومعه قيصرون، غدت رومة في الإسكندرية ضد رومة! يولح لها حلو الوقت الذي تجعل فيه أنطونيوس خاضعاً لها تماما، ويرن في أذنها سروراً نداء القائد المتقهقر ليعان أكثر مما كان يمكن أن ترن به أبواق النصر، التي هو في الساحل السوري مرة أخرى، والتي هو في الحصن المعروف بـ"الشعر الأبيض"، وغير البعيد من صيدا، فيرسل إليها رسولا تلو رسول راجياً أن تأتي وتمده، ولا تحمل سفنها بسطاص وذهباً وقياناً [1] وصناجين [2] إلى هذا اللقاء الثالث، بل بزات وأحذية ومعاطف وأسلحة للألوف من الجنود اللابسين أسمالاً [3]، ثم أكياس ذهب ما دامت خزينة البطالمة لا ينضب لها معين كفحولة انطونيوس.

ويقضي أنطونيوس وقته حول المائدة في تلك الأثناء، فيرى هنالك ليل نهار، ويزيل غمه بالراح، ويلعن ويلحف أنه سيبيد الفرس والأرمن في المرة التية، ويروي بوتارك أنه كان يقصد الشاطئ في الحين بعد الحين ليرى: هل السفن المنتظرة كثيراُ آتية أولا، وتصل أخيراً، فتهتف الكتائب فرحة شاكرة، وينتقل القائد

---

[1] القيان: جمع القينة، وهي المغنية.

[2] الصناج: صاحب الصنج وهو صفيحة مدورة من الصفر يضرب بها على أخرى مثلها للطرب.

[3] الأسمال: جمع السمل، وهو الثوب الحلق البالي.

من خيمة إلى خيمة، مادحاً فضائل زوجه التي جاءت لإنقاذهم جميعاً، ولكن الطالع لم يكد يبتسم له مع شحوب حتى نسي من فوره كل ما ضن به عليه، وتشتد فيه شهوة الانتقام من الأرمني الغادر.

بيد أن الرجل الذي وجد سبيلاً له عند النساء، حتى عند ملكه مصر، لقي مقامه شديدة للمرة الأولى، فهو قد أراد أن يزحف نحو الشرق، وهي قد أرادت رجوعه إلى الغرب، وهو قد طلب المجد لا زوجة، وهي قد طلبت عودته إلى بلدها، ولما أخذ هذان الآدميان العاطفيان يتعاركان لاح ارتجاج منزل الغرام، ولم يسقط هذا المنزل مع ذلك، ولم يؤد خصامهما إلى غير مضاعفة أوار نارهما وإلى غير التماس جمرة من رماد كان يظن اسوداده، ويضرم تنازعهما غرامهما كالريح، ويسمع للهب صفير، ولا يألو العدو جهدا في حمل أنطونيوس على ختام هذه الأزمة بحل حاسم.

وفي سواء هذا المعسكر السوري، حيث لا يعرف جندي أين يذهب غداً، وحيث يقاتل الفرقاء، بين أركان الحرب، وحيث ينتقد القائد مقداراً فمقداراً، ويرى وصول رسول من أثينة، يرى وصول الشريف الروماني: نيجر، واكتافيوس هو الذي أرسله، ولأكتافيوس عيونه أيضاً، ويعرف أكتافيوس حل الساعة الملائمة لإكراه أنطونيوس على الاختيار، ويرسل لبلوغ هذه الغاية أخته مع كتائب وأسلحة وعدد حتى تقدم هذا كله إلى زوجها العائد فيكون كإمداد صديق لصديقه، ويذكر في كتاب يرسلة إليه مؤسياً أنه كتم عن الجمهور موفقاً عاقبة الحملة الفارسية، وهل يمكن إنسانا أن يصيب ابن الحظ بجرح أبلغ مما يؤدي إليه مشاطرته الأسى؟ ويبصر أكتافيوس ماذا يكون جواب انطونيوس مقدماً! ولا يهمه أن يرى

إهانة أخته بذلك الجواب إذا ما استطاع، عند قطاع العلائق، أن يثير غضب رومة على أنطونيوس.

والحق أن مصير الباخوسي يوشك أن يجد له خاتمة هزلية، وذلك أن زوجية تقطعان البحر المتوسط الآن، في وقت واحد، مبحرتين من ناحيتين مختلفتين نحو زوجهما غير الوفي لإغوائه فيعود إلى الشمال أو الغرب، إلى أحد منازله وإحدى أسر أولاده ويكون مع كل من زوجيه عدد من السفن المشحونة بأحذية وثياب لجيشه المقهور، ويكون مع إحدهما مال ويكون مع الأخري ألف حارس، وتقدم إحداهما إليه عرشاً ملكياً، وتقدم الأخرى إليه صداقة وطنه القوي، وينطوي مركب اكتافية على وسق أثقل وزناً من السلاح واللباس، ينطوي على عالم عرفه زوجها، ينطوي على رومة وعلى الفوروم والكابيتول وميدان الألعاب ومجلس السنات ومغاني [1] الريف الرطيبة وحانات طريق أثيان وعلى انتصارات مسكرة وإشاعات حزبية، وهذا كله بلسان أمه ولغة شبابه، وهذا كله تحت ظل اسم قيصر ومجده ومعبده! أفلا ترجو اكتافية الفوز، إذن، ما دامت مالكة لجميع مغريات الشباب والوطن هذه؟

ولكن الزوجه الأخرى كليوباترة تشتمل على أمر لا يسبق، وليس الأمر نقداً ولا تاجاً ملكياً، بل الحضور، ولو كانت أكتافية تتصف بمثل ما عند ضرتها من الشجاعة وروح النضال لسافرت بنفسها إلى سورية، إلى معسكر أنطونيوس، إلى خيمته، ولتواجهت الزوجان، ولأغنيت الرواية بفصل مدهش، غير أن الرومانية كانت من حسن النشاة والأنوثة والأصل ما لا تريد معه برازاً، غير أن الملكة كانت من الرجولة والغرام ما تبيح معه لنفسها هذا الأمر، وما تصنعه كان يسوغ

---

[1] villas

بصنعها إياه، ولم يكن مثل هذه الحرية للشريفة الرومانية التي كانت كرامتها تتوقف على تقدير أبناء وطنها.

ويا لكمال ما تكون عليه كليوباترة التامة النمو والحادة المنظر عند قيامها بعملها! وإذا ما كان اللعب عظيماً كسبته كليوباترة بما تبديه من براعه، وهي تمتنع عن الطعام لتظهر نحيفة كأن الغم أضناها، وهي، كما يراها بلوتارك بوحية الشعري، "ذات نظر ينم على المفاجأة السارة عند وصول أنطونيوس، فإذا ما ذهب بدا ذبول وأكتئاب فيها، ومما يحدث أحياناً أن تحاول البكاء لتباغت بين الدموع فتسمحها على عجل كأنها تريد كتم كربها"، وهي تغمر ضباط أنطونيوس بالهدايا، وبالابتسام على ما يحتمل حتى يقولوا له أى الزوجين تحبه حقاً، وأن الملكة العظيمة لا تعيش بعد هلاكه أبدا.

وهكذا طلب أنطونيوس من زوجه، ففي أثينة أن ترسل إليه كتائب وميرة حالاً، وذلك ما عدا السفن المدين له بها أخوها أكتافيوس، وأما هي فلا ضرورة إلى إزعاج نفسها بالدوام على سفرها، فهو وذاهب إلى قتال الفرس ثانية ولا يريد جعل زوجه عرضة لجو آسية غير الصحي، ولتبلغ أولادها وأخاها وده، ومتي عاد منصوراً من فارس كان اللقاء سعيداً!

ويحني نيجر رأسة احتراماً أمام أنطونيوس، ثم ينصرف أمام الملكة الصامته، ولكن انطونيوس يأمر بأن يقضي جيشه فصل الشتاء في سورية، فإذا حل فل الخريف زحف معه إلى أرمينية، ثم يودع الجميع ويبحر مع الملكة إلى الإسكندرية.

٨

تغير حال الإسكندرية ودخل "نادي المتفردين" في ذمة الماضي، وزال معه جميع جنون الشتاء الباخوسي وكل ما اتخذه أنطونيوس من وضع متوسط شاذ، وأنطونيوس لم يك ملكاً، بل زوج ملكة، وأنطونيوس كان حاكماً مصرياً مطلقاً ووالياً رومانياً، حائرا في شفاء ما في صدره من غل، راجيا أن يوزان بين مشاعرة المتناقضة، وما كان أنطونيوس ليستطيع العيش مسروراً في هذا الوضع المبهم، وأنطونيوس من غير سرور يصير غير موجود.

لوم تكن الولائم هي المفقودة، ولم تكن ساعات الحياة وأسابيع الحبور هي المعدومة، فعبقرية الملكة في موضوع الحماقات والأطايب كنز لا يفني، والآن يوجد في القصر ثلاثة أولاد، ولا تزال كليوباترة أما فتاة في الخامسة والثلاثين من سنيها، وكان أنطونيوس بالغاً من العمر نحو خمسين عاماص، وعلى الاثنين أن يألما من عدم صلاحهما للحياة الزوجية، ولا سيما عند ما تفسح زوبعة الحوادث في المجال للبطالة، وهنالك يرتد انطونيوس، عن مزاج هوائي، إلى دائرة ضباط الرومان الضيقة، حيث يتكلم باللاتينية، كأنه يود الخلاص من أشاغيل الإسكندرية، ولكن الذي لا مناص منه هو أن ما يدور من الحديث بين هذه الزمرة الفارغة من العمل عادة ينقل إلى رومة واكتافيوس، وكيف ينسى الأصدقاء والإخوان الذين يمشون على الرصيف الروماني وإن كان ما عندهم من الذهب

والنساء في رومة قليلاً على ما يحتمل؟ ومهما يكن من وعورة هذا الرصيف لا يعتم أن يعوز هؤلاء الضباط كثيراً في ديار الغربة!

ويشعرون في الوقت نفسه بنقد في أبصار هذا البلاط الذي لا يمكنه أن يستغني عن الخصيان الذي يظل لغزاً عندهم، ولما حضر صديق أنطونيوس وأمين سره، بلانكوس، الوليمة كمهرج، أى متنكراً بزي غلوكوس[١]، أي لابساً حزماً زرقاً خضراً ومقلنساً بقصب ومتمنطقاً بخث[٢]، ومذيلاً بذنب سمكة، أخذ بعض أشراف الإسكندرية ينظروف إلى بعض متعجبين من هتك شريف روماني لسترة على هذا الوجه، وأما الرومان فيتساءلون عن مقدار ما اعتصر من صندوق مولاه في هذا السبيل، بيد أن انطونيوس يضحك من مهرجه غير جاهل انتهابه، وأنطونيوس لم يكسب قط، فإذا ما سرق لم يجد بأساً في هذا.

وكانت الملكة مرهفة الحس، ولم تأل جهداً في تعليل الأمزجة، ومن ذلك أن عينت عضواً رومانياً من اعضاء السنات مديراً للمناسج الملكية، ومن ذلك أن عينت أحد الزعماء [٣]، ناظماً لألعاب السرك [٤]، وأما أنطونيوس فقد وجهت نظره إلى كثير من الجزئيات العسكرية الملحة، وقد شجعته على تنفيذ خططه حول أرمينية ما كانت الحرب هنالك سهلة قصيرة، وما دام انتصاره فيها يحوله عن المغامرة الفارسية الكبرى، وقد تمثلاً معاً شركاً يقع فيه الملك الأرمني الخائن، ويدعوه السفراء أن ينضم في العام القادم.

---

[١] صياد تحول إلى إله بحري كما جاء في الأساطير.

[٢] الحث: الطحلب إذا يبس وقدم عهده.

[٣] colonel

[٤] le curque

الي كتائب أنطونيوس التي تحارب فارس مرة أخرى، وتكون كليوباترة قادرة على الانتفاع بكل شيء، وما أمر التوأمين؟ يعرض الإسكندر الأصغر خطيباً لابنه ملك أرمينية طمأنه لهذا الملك وضمانا للنصر.

ويحافظ قيصرون على اتزانه الصامت بين هذه المكايد، ولم يسطع أن يوكد حبه لانطونيوس، ويرقبه عن كثب، ويعني ببقائه صاحب الخطوة لدى أمه، وكان الواجب يقضي باحترامه أنطونيوس بعد أن أباد قتله أبيه، ولكن بما أنه روماني كان يتمني لو يكون أكثر صرامة، وهو قد درس ولوعا كل ما يمكن أن يوضح له أوضاح الرومان، ويبلغ من الرأى عنهم ما لا يروقه منهم غير قيصر، وإذا ما قضت الآلهة باشتراك الرومان في السيطرة على مصر بدوا له أعظم من البطالمة، وقد أخذ يشعر بوجود جبناء وخبثاء بين أجداده الأهلين، ولكن ألم تكن أمه ملكة عظيمة؟ وهل كانت تفتن قيصر الشائب لولا ذلك؟ ولكن ألم يكن قيصر أعظم رجل منذ زمن الإسكندر؟ وهل كان يختار أمه لولا ذلك؟ وهنا، عند هذه البرهنة، يكون قيصرون على أساس متين، وبما أنه لا يتصور، عن عجب شباب، غير الفضيلة والبسالة والقوة والعظمة والمروءة فإنه يتمثل منذ الحادية عشرة من سنيه مبدأ حول أصله يتطلب منه أرفع الأعمال.

وكيف يعجب برابة [1] مع تلك الذهنية؟ ويا، لو ظل أنطونيوس رومانياً في صميم فؤادة ! ويا، لو قاتل أنطونيوس أم قيصرون! ويا، لو هجرها على الأقل! ولكن ماذا يفعل آئنذ؟ ولكن يلوح لقيصرون أن هذا الرجل قد غمر في مصر بذهب البطالمة وبجمال أمه على ما يحتمل، ولا مراء في أنكم تعلمون منه أموراً، غير أنه إذا ما طلب منه أن يحدثكم عن قيصر أعطى جوابا متلمصا، ولا يزال ابن

[1] الراب : زوج الأم.

قيصر غير عارف سبب تملص أنطونيوس، وتبحث روحه عن البطل، والبطل يعوز أنطونيوس.

والآن في العالم الجديد، يبصر استعداد انطونيوس للحرب فيروقه، ويظهر القائد نفسه مسروراً، فقد نجح شرك الخطبة في القيام بدوره، إذ اختار ملك أرمينية الخروج على الرغم من فساد ضميرة، ولما وصل راكباً حصاناص لإمضاء الحلف قبض عليه وقيد حالاً بقيود فضية، وهل كان هذا إجلالاً للملك؟ وهل كان هذا تبجيلاً للشاعر؟ لزم التاريخ جانب الصمت حول هذا الأمر، ويقهر من أسرعوا لإنقاذا، وتتحول المعركة إلى غزو لنيل مغانم كثيرة لا مثيل لها، وتحطم الكتائب تمثالاً ذهبياً لإلهة البلد وتقتتسم قطعة، ويعد هذا بدعاً عند الرومان أيضاً، ومع ذلك يسر أنطونيوس من استيفاء الجنود رواتبهم بأنفسفهم على ذلك الوجه.

ويستطيع أنطونيوس بنصره ذلك أن يسترد صينته قائداً، وأن يغيظ نسبيه، أي ينال بغيته الأساسية ويشيع أنه سيزحف إلى فارس قريباً، ولا يجد ملك مادياً الذي كان سيئ الصلة بالفرس ما هو أحسن من مد يد العون إلى أنطونيوس، وفي الرواية الأرمنية أن الإسكندر الأصغر حل من خطبته، وأنها وعد بعد بضعة أشهر من خطبته الأولى هذه، بأن يكون خطيباً لابنه ملك مادياً!

وتضفي المغامرة كلها في أشهر قليلة من الصيف، وتبلغ أغراض كليوباترة ما دام أنطونيوس قد نال نصره الصغير، ويحتاج هذا الرجل إلى كثير خمر وقليل نصر ليسكر، وذلك لتعوده الخمر أكثر من تعوده النصر، ويثبت أنطونيوس الذي يعود إليها الآن أنه قائد عظيم، ويشعر في نفسه بأنه نظير لقيصر، وبأن من طالعه ظهوره أهلاً لما تقدمه الآلهة وزوجه الحسناء إليه.

ويعرف أنها قديرة جميلة، ولكنه لا يعلم مقدر براعتها، فهي قد قلبت الموضوع منذ أعوام، وهي ما انفكت منذ زواجها ومنذ معاهدة أنطاكية تفصل زوجها الساذج الطائش بالتدريج عن وطنه الروماني، التي أتى الحين الذي يحرق فيه آخر مركب، والآن يجب عليه أن يكون ملك مصر ما وجب أن يكون قيصرون ملكاً لها.

٩

في تلك الأثناء، وعلى بعد من هنالك، أي بروما، تعني اكتافية بالمنزل والأولاد الذين كان أنطونيوس أباً لأربعة منهم، وقد خرجت من صفوف النساء اللائي كن يمثلن في ذلك الزمن دوراً في تاريخ العالم عازمة ألا تبحث عن صيت أو مسره أو ذهب، ملتفتة إلى القاصرين الأبرياء الذين ينسون لولا ذلك، وقد صنعت ذلك من غير ضوضاء الذي يظهر أن انتفاخ أخيها الخادع غير ملائمة لأخت أقوى رجل في رومة، ولم يحدث أن مس اسمها بثرثرة رومة حتى أواخر أيامها فعاشت بلا عاشق، وإن عدت من الجميلات ولم تكن أسن من كليوباترة.

وقد يعبر عن تجلي فتور آلها فيها من حيث فتور حياة الغرام، خلافا لحال أخيها، ومن المحتمل إن كانت من التدين أو الروح الفلسفية ما تعد معه الدور المعين لها أمراً مقدراً أو تنظر معه إلى هذا الدور بعين سخرية، ومهما يكن من أمر فإن جدها وزهوها كانا يلوحان من النمط القديم، وهذا ما كانت راغبة فيه، ومع ذلك فإنه كان لا يعوزها إكليل نور، ويستغل أخوها فضيلتها ممثلاً دور قائد، وذلك بثنائه على هذه الفضيلة مدعيا أنها من صفات آلة، ولذا يسر بإعادة أنطونيوس لأكتافية ويفرض على هذه الزوج المهانة مغادرة بيت رجل كهذا، وترفض تركه، وتستند أكتافية في رفضها إلى أنها لا تريد أن تكون سبب وقوع

حرب أهلية، وتظل، إذن، عانية بأولاد زوجها مستقبلة أصدقاءه، وكان يكتب إلى أكتافية إذا ما أراد أن يوصي بأحد أو أن يعين أحداً في رومة مفكراً في أنها وحدها هي التي تقوم بنفقات سخائه، وكل كان يثني على صبر هذه المرأة، وكل كان يوجه سهام النقد إلى زوجها.

بيد أن الرومان كانوا متقلبين تقلب أنطونيوس، والرومان ما فتئوا يعلمون منذ مئاتي عام أن النصر هبة من الآلهة، وما ناله أنطونيوس من نصر تغنى به مادحون مأجورون فجعل منه إله مجد ونور، وبما أن طبيعته تلائم مزاج هؤلاء القوم أكثر من أن يلائمه مزاج أكتافيوس البارد كان من السائغ أن يحب مجددا.

ويسارع أكتافيوس، الذي أسفر وضعه العدائي للشعب عن قوة شم تجاه كل طور شعبي، إلى رسم برنامج لألعاب لم ير مثلها منذ سنين، وينظم نوعا من الاقتراع في السرك، ثم ينصب منضدة عظيمة مغطاه بهدايا تصبح مال من يكون أسرع من غيره في اختطافها، ومن الطبيعي أن يتحول هذا التوزيع إلى ملاكمة عامة يكون للواهب الأميري بها أعظم إعلان، ويجمع كتائب في الوقت نفسه فيبلغ ما عنده في إيطالية ثلاثين فرقة، وأخيراً لا يرى مهاجمة أنطونيوس رأساً، وإنما يطلع مجلس السنات على ما ينجم عن مصر الموسعة بولايات وجزر جديدة من الأخطار.

ويضحك أنطونيوس من ذلك، وتنقل الأخبار فوق البحر بسرعة في أيام الصيف، فيتلقي مجلس السنات الروماني من أنطونيوس جواباً بعد بضعة أسابيع قائلاً إنه لم يعط غير ما هو ملك البحرين، وأن الملوك التابعون تعود مثل هذه المقايضات، ويلزم أكتافيوس خطة الهجوم من ناحيته فيعزل ليبدوس ويلقف

ولاياته محتفظاً بها لنفسه كما احتفظ بصقلية وسردينية اللتين انتزعهما من آخر آل بونبي، ويقسم نصف إيطالية بين جنوده القدماء، ولا يعيد سفن أنطونيوس التي كان قد استعارها، ويقوم أنصار أنطونيوس بحملة شديدة ضد ذلك، وهنالك يظهر أكتافيوس اللين في الاجتماع التالي، ويبين بصوته الحاد استعداده لتسليم نصف ولاياته من فوره إذا ما صنع أنطونيوس مثل هذا مع مصر وأرمينية، ويهتف له طويلاً، ولكن لا أحد في البهو كان يعرف أن أكتافيوس وأصدقاء يخفون خناجر تحت حللهم تأهباً لكل طارئ، وحرصاً على أن يكونوا في العاصفة المقبلة أحكم من قيصر الأعزل من السلاح مستفيدين من درس بروتوس.

ويضحك أنطونيوس من قول أكتافيوس، ويريد أن يرسل جواباً أقسى من ذلك، وتمنعه زوجه من هذا، وهل مصر ولاية رومانية؟ لم تدل كلمة أكتافيوس على غير هذا، وتجمع كليوباترة قواها الذهنية لتثبت لوارث قيصر البغيض أمام جميع العالم من هو سيد مصر، وتعتمد على أنطونيوس، وتبدي له ما يخفيه عدوهما من نية قطع العلاقة، وتتكلم عن أولادها، وعن الوجه الذي يضمن به مستقبلهم، وتثبت له بالرسائل ذهاب خصومه إلى مجلس السنات حاملين سلاحاً وتدخل إلى روعة كون الخناجر تنتظره أيضاً إذا ما خيل إليه إمكان عودته إلى رومة سلماً، وتعدد ما جمع النخر من قوة حربية لا يسمح بأن يقاسمه إياها أحد مختاراً، وتركم ما صدق وكذب من الأنباء القائلة بحظوة العدو لدى الشعب، وتمدح محالفة الماديين التي تؤدي إلى إيجاد لوح وثاب أمين يقفز به إلى فارس مرة أخرى، وتقيم البرهان على خزينتها الخاصة وعلى تجارة مصر المتزايدة، وتثني على الإسكندر بعثاً للرومان إلى طريق باطل، وتضيف إلى جميع ما تدل عليه الخرائط، وإلى جميع ما يمكن أن يقال، جميع ما تسكت عنه دالة عليه بصوتها

العذاب، ويذل الضباط الذين يشعرون بما كان من تحديهم، أقصى جهودهم، وتمضي بضعة أيام فيوضع التصرح الذي تعزم كليوباترة على تحويله إلى دعابة بالغة لدى الشعب ولدى زوجها الفاجر.

ومع ذلك فإن أنطونيوس لا يرخي الفرملة [1] على عربة نصر الملكة خائفاً لا شعورياً من الوقوع في الهوة بسرعة، وهو لا يزال يعتقد ازدواج دوره، تألف شخصيته من إسكندري وروماني مع عدم رغبة في انتحال لقب ملك، وهو مملوء فزعا من كل ما أزعج جميع الرومان منذ مائة سنة أمام التاج، وهو يذكر قيصر الذي رفض تناوله منه، ولكنه يجب عليه أن يعترف بأن زوجه لم تضغطه لقبولة قط.

والواقع أنها لم تفكر في غير قيصرون، وكان جميع همها مصروفاً إلى تتويج هذا الابن ما ملكت وما عاشت، وهي تريد أن تطيل خيال صباها، وذلك لأن قيصرون هو قيصر، ولكن هذه الخطة هي من الجدة في الإسكندرية ما استدعت معه صوت أجنبي وتأليف تاريخ عالمي، وبما أن قيصرون هو نصف روماني فإنه لا يمكن تتويجه رمزاً من غير روماني، وكانت سياسة كليوباترة تفوق سياسة جميع حاكمي العصر في مثل هذه التدابير التي تدور حول الشعب ويقضي فيها التاريخ، وكانت كليوباترة تعرف أن تنفذ دقائق تقاليد الشرق بما اتصفت به من ذكاء ووضوح وعقل، ومن سلامة غريزة يشترك فيها النساء.

---

(1) frein , brake

١٠

ويأتي النصر في آخر الأمر، ويا لإغواء أهل الإسكندرية! ويا للبراعة في تملقهم ! لم يجرؤ روماني منذ تأسيس رومة على اقتطاف هذه المكافأه في الخارج، ولم ينفك يحلم بالكابيتول فينزل منه إلى الفوروم وير نفسه لمجلس السنات وشعب رومة، وقد كان هذا أجر كل بطولة ولم يكن لدى الروماني ما هو أروع من هذا المجد.

وقد كان ذلك أول يوم تمر فيه عربة النصر من شوارع عاصمة أخرى فتنزع من رومة شرف القرون في سبيل هؤلاء الذين يهتفون ويصرخون ويرطنون باليونانية أو بلغات أكثر غرباً منها، ولم يسبق أن شاهدت الإسكندرية مثل ما يؤدي إليه دهاء ملكتهم وذوق أنطونيوس من المساخر[١] الكبيرة.

ويأتي الموكب من قصر الملكة من طلوع الشمس، ويقطع تل لوخياس سائرا إلى الفوروم مارا من الحدائق والشارع الرئيس ولحد الإسكندر وضرائح البطالمة والجمنازيون والموزيون، ويأتي وراء الكتائب الرومانية ملك أرمينية وزوجه وأولاده مقرنين في أصفاد من ذهب في هذه المرأة، ثم تأتي عربة أنطونيوس ذات الأحصنة الأربعة البيض، ثم يجيء الكتائب المصرية ذات السيوف العقف الفارسية، وأخيراً يمر جنود الرومان كما في بدء الموكب.

---

(١) masquerades, mascarades

وتنتظر كليوباترة الغالب جالسة على عرش في وسط ميدان واسع، والتي يثب الغالب من عربته نحو الملكة ويقود أسراه إليها، وهنالك يتذكر ملك أرمينية أنه شاعر ويرفض أن يركع أمامها ويكلمها مجرده من اللقب، ويتبادل الزوجان النظر ويدرك كل منهما فكر الخر، ويعفوان عنه بدلاً من قتله في الغد، وهكذا يحقن دمه، وأما الجمهور فقد تهافت على المأدبة التي لم ير مثلها قط، ومن دواعي سروره أن التنويج لم يتم في اليوم التالي لما لا يحضر مهرجانه أحد تقريباً ما كان نصف الإسكندرية مخموراً.

ويحتفل بهذا التنويج بعد بضعة أيام في ميدان واسع واقع على طرف المدينة، وقد نصبت ستة أعراش، ومنها عرشان كبيراًن من ذهب، ومنها أربعة صغيرة من فضة أقيمت أمامها، ويتم الأمر بعد الظهر في هذه المرة، ويبدأ الموكب بقطار طويل من العربات ويكون عليها رجال بزي سيليني [1] جاثم بعضهم فوق بعض موزعون خمراً بين الجمهور، ثم يأتي صف من الفيلو نصف مقيد، ولا عجب، فأهل الإسكندرية كانوا يألفون الراح والحيوان، ثم يأخذ الفرسان أماكنهم، ثم يقوم أنطونيوس بدورة المفضل، دور ديونيزوس، فيبدو لابساً معطفاً أرجوانياً مطرزاً بذهب ويظهر متوجاً بلبلاب وممسكا عذقا بيده، وتجلس بجانبه إيزيس، أفروديت مصر، واضعة تاج بائها المضاعف على رأسها وناصبة صلا ذهبياً على جبينها، ولابسة ثوباً من ذهب وفضة، وتلوح جامدة كصور الآلهة المرسومة على جدر المعابد المصرية التي نعلم بها كيف كانت ملكات مصر يسطعن عند قيامهن بدور إيزيس منذ خمسة عشر قرنا، وقد كانت كليوباترة وحدها لأنها إلهة في ذلك النهار.

---

[1] سيليني: الإلة الأفروجي المربي لباخوسي.

ويواجها أمام العرش الفضي الأول قيصرون الفتي الطويل البالغ من العمر من أربع عشرة سنة، واللابس معطفاً مقدونيا والواضع على رأسة التاج البالغ من القدم ثلاثة قرون الذي كان يعتمر به جميع حلفاء الإسكندر بالتتابع، ولكن مع حمله سيفاً رومانياً قصيراً، ويجلس التوأمان البالغان خمس سنين عالياً ليبدوا للأعين، ويظهر الإسكندر بزي الأرمن مع تاج على رأسه الصغير، ومع قميص ذي كمين ومع سروال فارسي، وتظهر كليوباترة الصغيرة لابسة ثوباً حريرياً أبيض ومعتمرة بإكليل لودي، ثم يظهر الطفل بطليموس البالغ من العمر سنتين بزي المقدونين، أى لابسا جزمة [1] طويلة ومعطفاً إغريقيا ولبادة، وإكليلاً أيضا، ويحيط بكل ولد حرس بزي أهلي.

وتسكن الألحان، فيرفع ديونيزوس صوته، ويتكلم عن انتصاراته،، ثم يقرأ الجدول المشتمل على أسماء البلاد التي وهبها للملكة في أنطاكية منذ عامين، وهو لم يتكلم عن رومة قط، وهو يتكلم عن نفسه فقط، وهو يلوح كمن يحب أن يوكد أمر مآثره، ويجهر بظهور عصر جديد يقوم على حكمه هو وملكة مصر وقبرس وسورية كليوباترة السابعة، ويرتقي ابنها قيصر بطليموس الذي يرى هنالك إلى منصب "ملك الملوك" ويملك مصر مع أمه، ويصير الإسكندر الأصغر ملك أرمينية ومادياً، وتصبح توأمه ملكة لودية، ويغدو بطليموس الصغير ملك فنيقية وكليلكة وبينما كان الجمهور يهتف يترك الأولاد الثلاثة حرسهم على درداب الطبول مشرعين إلى ولديهم لابسين تيجانهم الجديدة، وكانت الشمس تغيب في ذلك الحين وفق البرنامج.

---

[1] botte

ولا تتحرك كليوباترة، بل تمثل دور إلهة لدى رعاياها المصريين كما يقع كل سنة في عيد سرابيس، وتسمع صراخ الجمهور الساخط، وتقول في نفسها عن أنطونيوس غير مضطر إلى تنكير نفسه وتمثيل دور ديونيزوس، وهي لا ترى الأولاد عند محاولتهم شق طريق لانفسهم نحوها، وهي لا تبصر الكهنة ولا الضباط ولا مئات الرؤوس الذين كانت تعرفهم منذ نعومة أظفارها، وإنما تشاهد قيصرون.

وهو واقف أمامها هنالك، هو جامد مثلها، هو ناظر إليها بعينيه السوداوين من بين الجمهور المزدحم، هو زاو ما بين حاجبيه، هو الوحيد الذي يشعر بأنه متوج حقاً، ولما أذيع أنه ملك الملوك وهتف له الألوف كان الوحيد الذي أحس ثقلاً حقيقاً على رأسه، لا حلية ولا زينة ولا لعبة، وكان قد ناقش أمه طويلاً حول حمل السيف الروماني القصير، لأنها تريد أن يتقلد السيف المقدوني في البداءة أجل كان يعلم أنه سيكون بطليموساً ووراثاً للإسكندر ذات يوم، غير أن قيصر شد قرابة له، وقيصر هذا أعظم من البطالمة، وقيصر هذا هو أبوه، وكان يدرك أن أمه لم تحب رجلاً آخر غيره، وكان يود أن يحمل سيف قيصر، فهو الذي يدافع به عن بلد أمه في أحد الأيام.

وتقرأ خلف الجبين ما يدور في خلد ابنها، ويشرق على ملك الملوك الصغير من وجه إيزيس المصرية عينا الصائدة العسليتان من الجانب الزاخر بالحضور، وذلك لأنه وحده هو الذي رسمت الخطط في سبيله في تلك السنين فأعدت التاج، وأقامت مهرجان اليوم، أجل، لقد كسبت فتحقق حلم شبابها، وذلك لأنها تبصر قيصر متوجا أمامها هناك، وقد بلغت مغامرة حياتها الكبيرة غايتها، وما شقت به طريقها من إقدام، ومازجها من اعتماد بالغ على طالعها، وما

خالطها من إيمان بسلطانها وجمالها، وما تمسكت به وزادته في السنين العشرين الأخيرة في سفرها الخطر حرباً ومكراً وحماقة وانكساراً، أمور مائلة أمامها مركزة في شخص هذا الصبي الناظر إليها بعيني قيصر السوداوين تحت تاج الإسكندر الذي أخذ يحمر بفعل الشمس عند الغروب.

وبينما هي كذلك إذ تأتي الآلهة بحركة كما لو أفزعها أمر، فقد أبصرت وراء قيصرون عيني اكتافيوس الشاحب الجامدتين.

الفصل الخامس

تناتوس [1]

"من يولد ليملك، ومن يوفق كل يوم في القبض على مصاير ألوف الناس ينزل من العرش كما ينزل إلى القبر" "غوتة"

[1] تناتوس : إله الموت كما جاء فى الأساطير.

١

عندما تأخذ مصاير الشجاع في العوج تلوح أكثر روعة للناظرين. ومتى ديس الضعيف، أوغر بالأوهام، انتصب القوي وقاتل الرجال ليقابل القدر في نهاية الأمر، ويستعد للنضال، ويقضي أيام حتى وتفتر حرارته في ليال بلا أحلام، ويسفر بنشاطه في كل جهة، ويلاقي مصاعب جديدة دائماً فيتغلب عليها في كل ساعة، وهو إذا ما قاتل عدواً محسوساً عن كثب مع شعور بدنوه، بشراً كان هذا العدو أو جوهراً، تقدم كل يوم طافراً، وهو إذا ما تقهقر مضطراً كان هذا ليعود فيثب صائلا.

ولكنه يسمع في ساعة من العراك صوتاً غير أرضي، فالسماء تكفهر من بعيد وينذر ما في السحاب من هدر خفيف بتدخل قوي غريبة، ويمتد ظل عالي الجبال على علم المعركة المألوف، وهنالك يتقلد الشجاع سيفه ويمسك ترسه ويشمر عن ساعديه، ويعزم على خوض غمار قتال حاسم، ويفزعه العدو في بدء الأمر لتعذر القبض عليه، ولو كان البطل منطقي التفكير لبدا له أنه لا أمل في نجاته أمام تقدم ما لا يرى من جرف ولأبصر أنه لا تكون لديه خدعة يتمكن بها من اقتطاع هدنة من العدو، ولكنه يشتد ويعند ويبدو في كل مكان، ويظهر من الجهد ما يكون به فوق البشر راجياً سراً أن يصرف مصيره عنه.

وقليل من النساء من يبدين مثل هذه البطولة، حتى إن المرأة الباسلة ملزمة بأن تكون ذات عبقرية خاصة إذ أرادت مقاومة القدرة، والنساء، إذ يبصرن بغرائزهن أكثر مما يبصر الرجال، يحاولن الإفلات مما هو محتوم بزلقات الجري[1] في اليد فينلن مهلاً، ينلن دوراً أحياناً، ينلن ما يعوز خواتم الرجال، وما تتطلع إليه صواحب هذه الطبائع المتأثرة من فؤول ونذر يدع مرور شعاع من خلال قصف الظلال فيزيد الثقة بالنفس ويصلح لإيضاح الزهو، وما يعتور الطبيعة النسوية من تموج وما يساوها من دقائق وما يمازجها من غرائز الأم في حماية الأولاد، ومن أمل المحالفة، أمور يعرفن بها السبيل إلى الخلاص من أقسى ضربات القدر.

والقدر يواجه كليوباترة التي فتسير في الصراع الأخير بطلة، وهي تتخذ جميع الخدائع والحيل والمغريات النسوية، وهي تناضل ببأس رجولي راجية بين طور وطور في القتال غير خائفة من ملاقاة الفاجعة القادمة لتموت موتة الملوك في نهاية الأمر، وتكون خرافية ساذجة أمام علائم الشوم فلا تستطيع أن تمسع أصوات جوفة اللقدر عندما كانت ترن مخافتة وراء ألحان المحاربين، وقد أدركت ببصرها الحديد وسرعة خاطرها ضعف زوجها، وهي إذا ما طلبت في عامي حياتها الأخيرين، تحويل أساليب أنطونيوس الناقصة إلى عمل كامل فإن هذا كان مع تركها باطناً أملها في تحويل نصف الرجل الروماني هذا إلى رجل تام، وتوفق هذه المرأة الجسور لما لم يوفق له غير قليل من الرجال، وتشعر بدنو خاتمها الفاجعة، فتقابل القدر مع ذلك.

---

[1] ضرب من السمك يعرف بالحنكليس.

لم تزل أفسوس من مدن الحضارة اليونانية منذ قرون، وقد استولى الفرس عليها، وأنقذها الإسكندر، ثم استولى عليها الرومان، ويذكر موقعها، بين البحر وأحد البلدان الغنية، بالإسكندرية، واليوم تنفذ طريق الفاتحين التقليدية الآتية من جبال آسية الصغري إلى المكان الواقعة عليه إزمير، حيث يتم النهر مجراه تقريباً، وكذلك تنتفح هذه الطريق باتجاه الجبل للفاتح الآتي من الغرب، وقد كانت من القدم كليل الأزمان، وقد كانت أفسوس ميناء الحرب الكبير، وإذا ما تحصن هنا فاتح مسيطر على الشرق حفز خصمه إلى الخروج من قواعده الغربية، وكان هذا عسكرياً بارعاً.

ولكن ديانه أفسوس العظيمة، أرتميس المشهورة لم تشاهد منذ سيطرتها على معبدها الساطع، معسكراً ضجاباً غنياً كالذسي يعج "في ربيع سنة ٣٢ ق.م" بين البحر والجبال، وذلك لأن أنطونيوس الذي يجمع جيشه هنالك كان سيد الشرق حقاً، فكان سلطانه يمتد من الفرات، ومن أرمينية، حتى البحر اليوناني، حتى إيليرية "البلقان"، ومن رمال برقة حتى إثيوبية، ويقود مائة ألف من المشاة واثنى عشر ألفاً من الفرسان وخمسمائة سفينة وجدت بينها مراكب ذات ثمانية، وعشرة، مقاعد للجذافين، أى يتصرف في جيش أعظم مما كان لدى الإسكندر وقيصر، ويتلقى أنطونيوس أنباء من رومة فيعود إلى ذلك الميناء ومن غزو جديد في أرمينية لم تقل المصادر القديمة عنه شيئاً أو جاءت بأخبار متناقضة عنه، وهنا يعسكر مع جيشة منتظراً قدوم كليوباترة مع ذهبها.

وكليوباترة، إذا تغادر وطنها في هذه المرة بين الظنون، تزن جميع الاحتمالات، وقد كان من برنامجها أن تغيب سنة، أو تزيد، من مصر، وأين تذهب؟ لا أحد يعرف وجهة هذا الجيش العظيم، وترتجف شعوب آسية، وينشد

الجنود أناشيد حول الانتقام من الفرس وإبادتهم في نهاية الأمر، ويحلف حلفاؤهم لهم حين شرب الخمر أنهم سيمضون مجاهدين معهم حتى أقصى حدود الدنيا، غير أن جميع الشرق يتكلم عن وقوع حرب أهلية بين أنطونيوس وأكتافيوس قريباً.

وآنئذ لم يعلم أنطونيوس، ولا كليوباترة، أين يذهب علماً تاماً، إلى فارس؟ هذا ما كان يرجوه، وها ما كانت تخشاه، وذلك لأنه ما فتئ يعد نفسه حاكماً رومانياً، ولأنها ما فتئت تعده ملك مصر، فكانا يختلفان هدفاً تاركين لعدوهما الأزرق في رومة أمر إطلاق الفتنة من عقالها الآن أو متى أراد، ويمر وقت من الإثارة لا ينقطع فيصبح جو الخلاف والتحدي من الكثافة ما لا يبصر معه توجه أسطول العدو إلى هنالك.

ولا ريب في أن كليوباترة تذكر أسفارها السابقة حين قطعها البحر المتوسط للمرة الرابعة، وقد كان سفر أفروديت إلى طرسوس وسفر الملكة إلى أنطاكية وسفر آلهة الحرب إلى القرية البيضاء، وأما الآن فهي جامعة لكل ذلك، وذلك لأنها وضعت آخر ولدها منذ بضع سنين فاستردت غيد شبابها في أثنائها، وتجلب معها مائتي مركب بر ومعدن وثياب وعشرين ألف مناً "ما يعدل مائة ألف فرنك ذهبي"، ونصف حاشيتها المعتادة من خصيان وعبدان وغيرهم وكل ما في ذلك العصر من عناصر الثروة.

وكانت تهز فؤادها مشاعر متناقضة في الصباح حين وقوفها في مقدم مركبها وفق عادتها، ومع ذلك فإنه من النادر خوفها من حملة جديدة ضد فارس. وقد كانت تشعر بأنها من القوة ما تدفع معه أنطونيوس إلى مقاطعة أكتافيوس، وما تدع معه أكتافيوس إلى حد الصدام، وله عون مع الزمن، وهما أقوى منه،

وعليهما، أن يثيراه ويقهراه، وتتوتر الصلات برومة عاماً بعد عام، وترغب الملكة، كامراة في إنهاء الصراع برومة عاماً بعد عام، وترغب الملكة، كامرأة في إنهاء الصراع تماماً وبسرعة ما غدت لا تطيقه، ومن المستحيل على كلا الرجلين ممارسة الحكم المطلق مع بقاء كل منهما مسالماً للخر مسيطراً على نصف العالم، ومع تعطش جماهير العاصمتين إلى الحوادث العظيمة، ومع كون أمراء البحر المتوسط يهتزون ويكيدون ويآتمرون، ويبدو دنو الحكم الثلاثي من أجله متوعداً أو يمكن تجديد عقد الحكم الثلاثي؟ كان هذا يقتضي إصلاح ما بين أنطونيوس وزوجه الرومانية، ولكن الملكة تشعر، حينئذ، بضياعها تجاه الرجلين وتجاه المرأة التي هي أخت لأحدهما وزوج للبخر، وتجاه أركان الحكومة الثلاثية، ولذا تقوم سياستها الحاضرة على إلزام أنطونيوس بتطليق اكتافية ليكون لها وحدها، بيد أن هذا الطلاق يعني حرباً، وأن هذه الحرب تعني تسوية ما بين رومة الإسكندرية من مشاكل كبيرة، وبما أن التي تملك الإكسندرية هي امرأة إغريقية فإن ذلك يعني رجوعاً إلى ما بين أثينة ورومة من خصام قديم يتطلب حلاً كاملاً، وماذا يكون هذا الحل؟ إذا ما نظر إلى الأمر باعتدال دم سئل: هل هو مما يرغب فيه؟ وهل هنالك من الوقت ما ينظر فيه إلى ما يبتغي ومالا يبتغي؟ لقد عادوا كلهم غير مخيرين!

وهكذا دفعته أذكي نساء عصرها، عن هوى وعن قدر، إلى معركة حاسمة كانت تتطلب رجلاً كقيصر مع أنها كانت تعرف عجز أنطونيوس وتشعر بأن هذا المقامر لم يخلق ليسيطر على العالم، ومن كان تساؤمها حينما سمعت أن زلزلة ابتلعت مستعمرة بيزوروم التي أنشاها أنطونيوس، ومن هنا كان شحوبها عندما قيل لها إن تمثال زوجها في ألبة قد عرق عدة أيام مع أنه كان ينشف مراراً.

غير أنها تطرد عنها هذه الوساوس القاتمة، فلم تلبث أن صارت في مقدمة سفينتها امرأة الماضي المترجلة، أن صارت مجددة الشباب قوية النفس لتبدي في الصراع ما يعوز زوجها.

وابنها هو الذي كانت محتاجة إليه، وكان قيصرون قد بلغ من الطول ما لا يرافقها معه الآن مثل غلام، وكان على قيصرون أن يبقي الآن في عاصمته وأن يحكم فيها مستعيناً بخدم محنكين، أجل، كان هذا إقداما وتضحية، ولكنها لم تتركه إلا لأنها لا تستطيع أن تعهد إلى آخر في السلطان لزمن ما، ولأنها تبصر هنالك فرصة عظيمة يثبت بها وجوده في مدرسة الحياة، وما أسهل ما يحاك من الدسائس في البلاط فيقتل صغارها الثلاثة إذا ما غادر قيصرون مصر! وما أكثر الجرائم المماثلة التي وقعت في تاريخ آلها! إلا إن كل سبب كان يحملها على ترك قيصرون في مصر، ومع ذلك فإنها سمعت في أعماق نفسها صوتاً بألا تعرض ابنها ووراثها للأسر إذا ما كسب أكتافيوس المعركة، وبما أنه كان يساورها في ذلك الدور الحاسم أوقات خوف وغم فإنها كانت تفكر، لا ريب، في إمكان وقوع الهزيمة فتتمنى وجود هذا الأمير الشاب الكامل القوي بجانبها ليكون قرة عين لها، ولكنها لا تعترف بهذا لنفسها إلا نادراً، وهي لا تعترف بهذا لأنطونيوس مطلقاً.

تطلق الدعاية من عقالها في رومة، وبهذه الدعاية يوحي بالخوف ويغاظ، ويحاول أكتافيوس أن يغرق اسم خصمه الشعبي، ويطرز رجالة ألف قصة حول أنطونيوس وكليوباترة محملين بأكاذيب بارعة ما أذى شعور الرومان منها.

وأعنف ما يوجه أكتافيوس من تهم هو ذلك الاحتفال بالنصر في الخارج: في الإسكندرية! ومما يستدل به على تخنث أنطونيوس هو عدم قتله ملك

أرمينية! ولا جرم أنه سرق مكتبة فرغامس ونقلها إلى عاصمته الجديدة وأنه حرم رومة مغانم أخرى ذات قيمة، كتمثال زوس المشهور الذي نحته ميرون [١]، وتمثال هركول الذي أخذ من ساموس [٢]، وتمثال أجاكس [٣]، وغير ذلك مما غنم من أجل رومة، لا من أجل مصر, غير أن أكتافيوس، البطل ضد الغائبين دوماً، يصوب سهامه السامة نحو الملكة، وهو يسدد بعضها بنفسه أمام مجلس السنات كما يقوم أخرى منها بواسطة المئات من رجاله المشاغبين، وذلك جعلاً لكيلوباترة ممقوتة على عد الحرب الأهلية حربا ضد دولة أجنبية معادية.

أجل، إن هذا أمر جلي، أجل، عن كليوباترة ساحرة داعرة، أو ليست ابنه مصر التي يعبد الحيوان فيها؟ لقد استطاعت أن تضل الشريف الروماني أنطونيوس برحيق غرامي سحري، فقبل قدمها في إحدى الولائم، وهو يرافق شجارها في الشوارع متقدماً خصيانها نهاراً، وهو إذا ما جلس في محاكم مصر ليقضي قوطع مائة مرة برسائل رقيقة ترسلها الملكة إليه على أطباق من عقيق، ومما حدث ذات مرة أن أبصرها تمر فغادر المحكمة من فوره، ترك المتهم ومجلس القضاء ورجال الشرطة بغتة، ليبغتها قبل أن يتم تبيلغ حكم دالاً بهذا على أنه مسحور! وكيف يمكن أن يفسر بغير هذا هوان روماني أمام زوجة أفريقية على هذا الوجه؟ ليس أولاد هذه المرأة إلا من البغلاء ما وجد لأنطونيوس زوجة شرعية في رومة، وأما ابنها الأكبر الذي سمته قيصرون على وقاحة فلا يمكن أن يكون ابنا لقيصر، وأين الوثائق التي تشتمل على اعتراف قيصر به؟ ويا للتبذير في

---

[١] ميرون: نحات يوناني مشهور ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد.

[٢] ساموس: من جزائر الأرخبيل.

[٣] من أبطال حرب ترواده.

البلاط! لأنطونيوس قصرية [1] من ذهب! ومما وقع في مأدبة أن حلت الملكة في خمرها لؤلؤة تعدل قيمتها ستة ملايين وجرعت القدح مرة واحدة ! ومع ذلك فإنها لا تسكر من الراح مطلقاص، وهي تلبس خاتماً سحرياً لها النجاه بجمستة[2] !

ولم تكن هذه المثالب غير ذات أثر، ولكنها لم تكف لإيذاء أنطونيوس ما صدرت عن حاكم غير شعبي يهاجم حاكماً شعبياً، وبما أن أكتافيوس كان يشعر بأنه مكره فإنه حمل جميع الأهلين على يمين الولاء له، أى بأتى بدعة تامة الجدة يعافها الرومان لدلالتها على نهاية الجمهورية، وترفض بولوني ذلك، ويتظاهر أكتافيوس بل هذا ويصرح في مجلس السنات بأن جميع إيطالية أجمعت على الولاء له، وقد بلغ الفزع من الشمول ما غادر البلاد معه أربعمائة من أعضاء السنات مع القنصلين سراً ليحلقوا بأنطونيوس قبل اشتعال الحرب الأهلية، وذلك لما أذاعه أصحابه من عزمه على إعادة الجمهورية.

ويا لخيبه أمل هؤلاء الروالمضطربي البال عند وصولهم إلى أفسوس ! لقد وجدوا معرض شعوب وأزياء، لقد وجدوا مصريين وعرباً وماديين وأرمنا ويونانيين ويهود وسرياناً مزدحمين بين السفن والنهر وسائرين إلى المعسكر، وقد كانت جدر معبد أرتميس الرخامية وأروقته الأرزية تردد صدي مائة لغة ورطانة، وأين كانت رومة في أثناء هذه المغامرة. تحيي الكتائب القديمة التي صارت نصف شرقية نصف متبربرة، قناصلها بفتور ساخر يصدر عن جنود نسوا مع الوطن حارسي حريتهم هؤلاء منذ زمن طويل.

---

[1] chamber pot , vase de nuit

[2] الجمست: نوع من الحجارة الكريمة.

ومن ذا الذي يستقبل أعضاء السنات الروماني على نوع من العرش الملكي هنالك؟ أليس ممثلاً؟ أنطونيوس حقاً؟ يلبس انطونيوس المعطف الارجواني على القميص الروماني، وينعتل حذاء أبيض ويضع على رأسة لبادة مقدونية! وترى بجانبه إلهة المصريين إيزيس معتمرة بتاج مضاعف ولابسة ثوباً حريرياً أخضر! كانا محاطين بمملوك تابيعن لابسين ثياباً شرقية: محاطين بملك تراكية وملك غلاطية وملك لبنان وملك بفلغونية [1] أجل، كان يتجلى شيء من رومة هنا، ولما نهضت الملكة وودعت كان يحف من حولها جنود من الرومان، ومن المؤسف أن كان الحرفان (ا، ك) منقوشين على تروسهم نقشاً جميلاص متداخلاص بدلا من الحروف الأربعة "س، ب، ك، ر".

ولسرعان ما قام في المعسكر حزب جديد، وينضم إليه كثير من الضباط، وتشترك الملكة حتى في مجلس الحرب، ويستمع أنطونيوس لها محترماً لآرائها، ويجتمع بعض أصدقائه القدماء، ويحيطون به ويرجون منه أن يرسلها إلى بلدها إذا أراد ألا تصحوه به وأن تتلافى الأمر، أو لم تملك مصر خمس عشرة سنة؟ ومن ذا الذي يجرؤ على مهاجمة نفوذ وسمعة، هذه التي وجدت مالا لجميع هؤلاء الجنود؟ وأين كان هؤلاء العوام، هؤلاء القناصل السيئو البزة، الذين يقدمون على المجيء هنا والطعن فيها؟ لقد حان الوقت الذي يغير فيه المنظر.

وتستطيع ببراعة أن تحول قائد الجيش إلى باخوسي، ويكون لها بجزيرة ساموس أحسن ميدان للقيام بهذا، ولا يزال يوجد وقت كاف، فلماً تشتعل الحرب، وكان الفصل فصل الربيع، وكانت السلم سائدة، وكانت الحياة تفيض على البحر والبر، ومن قول بلوتارك: "بينا كان يساور العالم بأسره خوف وأنين

---

[1] بفلغونية ، بلد قديم بآسية الصغرى.

كانت هـذه الجزيـرة تلـوح ذات حـين مزمـاراً ومزهـراً فقـط، فيتـساءل الممثلـون والطربون كيف يحتفل أنطونيوس بنصره ما دام مثل هذه الأعياد يقام للإعراب عن نية الحرب!".

ويتنافس الأمراء التابعون في مقدار ما يقدمون وما يولمون ويفر مئات الناس من الاضـطراب القـادم قاصـدين هـذه الجزيـرة الـسعيدة لينـسوا بـالخمرة والنـسوة وعيـد المـستقبل، وأول أولئـك هـو ديـونيزوس الغـسكندرية الجديـد الـذي كـان شعاره: عش ودع الآخرين يعيشون، وإله ودع الآخرين يلهون، ويعد طاهية له وليمة فاخرة تسر بها معدته الأكالة الشرابة فيهب له بيتاً، ويرضي عن ممثليه فيعطيهم مدينة برين [1]، ثم يبحر مع حاشيته إلى أثينة غير منتبين من يسيره تقريباً.

ومن الرغائب النادرة التى لم تحققها كليوباترة بعد هو أن تصبح ملكة في أثينة ذات يوم، وهي لم تزر أماكن الفكر اليوناني المقدسة بعد، وهي قد ساورتها روح الأساطير هنالك، فمن أثينة أتاها جميع ثقافتها، وإلى أثينة تعقبت الإسكندر وأرسطو، وأقل معبد في هذا البلد يحدثها بأبلغ مما تحدثها به معابد مصر، ولكن غيرتها من زوجي أنطونيوس الرومانيتين اللتين كان أنطونيوس قد عاش معهما هنا تنفذ من خلال مشاعرها على الدوام، ويريها، غير حائر ومن فوره، المنزل الذي كان قد فاز فيه على فولفيه والمنزل الذي كان قد عاش فيه مع الرصينة اكتافية بعد ذلك.

واكتافية هي التي ترغب كليوباترة أن تنزعها من ذاكرة أهل أثينة، ولا شيء أسهل من هذا! أو لم تتخذ ألطف الناس زوجا لها! هي لم تطلب غير تمثيل دور جديـد! و"الـوطني الأثنـي"، أنطونيـوس، هـو الـذي رافـق الوفـد المؤلـف مـن أكثـر

---

[1] مدينة سمسون في الوقت الحاضر.

رجال أثينة ونسائها وجاهة للترحيب بها، وهو الذي نطق بخطبة تحتيها رسيما ثم نظم وليمة باخوسية عظيمة في مسرح ديونيزوس وأبدى من الهتكة ما حار منه جميع الاثنيين، ثم ركب عربة الإله وتوجه إلى الأكروبول المنار، والآن يمجد الملكة، سليلة للإسكندر، أهل أثينة الراكعون لذوي السلطان دائما فيضعون تمثالها في البارتنون [1].

ويساور فؤاد كليوباترة مشاعر غريبة، واليوم يرى لها تمثالا في معبد فينوس برومة وتمثالا آخر في معبد أثينة! أو تعدها الآلهة لتوحيد الديانتين والحضارتين؟ أو تعدها لإثبات كون القوة فوق الجمال وكون الحكمة فوق القوة؟ أو هل يمثل شخصها الرمزي في ذلك اليوم انتصار أثينة على رومة؟ ولكن مما حدث مؤخراً ان جر إلى خارج المعبد تمثالها البرونزي الذي كان قيصر قد أقامه لها منذ اثنتي عشرة سنة، وإن حطم فيحتمل أن يكون أحد أغنياء العوام الجدد قد صهر ساقيه وسبك منهما طستاً [2] وفي أثينة، بجوار الإسكندر، حيث ظهر أجدادها، تشعر بأنها في بلدها حقا، وفي رومة ليس لها غير الأعداء، أجل، صارت رومة عدواً لها لأنها قبضة ابن قيصر الزائف الكاره للابن الحقيقي، وليكن هما الأول مصروفاً إلى تحويل زوجها عن رومة إذن، ولتقنعه بأن يطلق زوجته الرومانية إذن.

---

[1] البارتنون: معبد أثينة المشهور.

[2] الطست: إناء من نحاس لغسل الأيدي.

٤

وعلى غير انتظار تجد الملكة لها عوناً على زوج أنطونيوس الثانية بزوجه الأولى، ويسافر أنتيلوس بن فولفية إلى أثينة بالغاً الرابعة عشرة من سنيه فيروق أباه أنطونيوس، وكان أصغر من قيصرون، وكان دون قيصرون من كل ناحية على رأى كليوباترة، ويأتي من لدن أكتافية التي ربته في منزلها مع أولاد زوجها الآخرين، ولا يقول إلا خيراً عن هذه الأم الصالحة.

وماذا يقول؟ وماذا يقع هنا؟ يجيء رفيق السلاح القديم جمنيوس من رومة ليحذر، عن حسن نيه، انطونيوس عاقبة مقاطعة رومة، وتعده الملكة عدواً حالاً، وتضعه في أحقر مكان حول المائدة، ثم تسأله من رأس المائدة عما يريد، ويتردد، وتساله ثانية عن رسالته ويجيبها بأنها خاصة بانطونيوس، وتعود إلى سؤاله ثالثة فيجيبها بهدوء إن من مصلحة صديقه أن تعود إلى مصر، وإن لم تفعل هذا أعلن الرومان أنه عدو الوطن، ويروي بلوتارك أن أنطونيوس خبط المائدة بجمع كفه عند ذلك، غير أن الملكة تقول معتدله الدم: "حسناً ما صنعت يا جمنيوس إذ بحت بالسر من غير أن تعذب".

ويفر جمنيوس في اليوم التالي، ويتبعه من فوره أمين سر أنطونيوس ومهرجه الشهير بلانكوس، ثم فريق من أعضاء مجلس السنات، ويعودون إلى إيطالية،

ويخبر أنطونيوس بهذا ويضحك من غير أن يقول شيئاً، بيد أن كليوباترة تتميز من الغيظ، وما يغلي فيها من غضب، تنفس بجوابها إلى جمنيوس ثم تكدس في فؤادها مجدداً، يحاول أن يفلت عن حصر، ماذاً أولم تكن الملكة هي كليوباترة التي وضعت لأنطونيوس ثلاثة أولاد فتقابل ظلال نساء منهوكات؟ لقد علمت أمورا كثيرة من الروماني الذي انصرف، والتي تعلم من أنطونيوس أن أكتافيوس أرسل إليه كتاباً يتهمها فيه، ولكنها لم تسطع أن تطلع على فحوى جواب أنطونيوس إلى نسبيه بغير الجواسيس، وإذا كان هذا الكتاب لم ينطو على مفجأة لها فإن أمره يهمنا أكثر مما يهم الملكة، وذلك لأنه الكتاب الخاص الوحيد الذي احتفظ به الأعقاب من أولئك الأشخاص الأربعة الذين كان لهم ضوضاء كثير، ومع ذلك فإنه لم ينته لنا منه غير جزء صغير وجده سويتونيوس في خزائن المحفوظات واستند إليه، وفي هذه الوثيقة يقول أنطونيوس لأكتافيوس:

"ما الذي أحفظك علي؟ أنومي مع الملكة؟ هي زوجي! ألا تعرف هذا؟ زوجي منذ تسع سنين! وأنت؟ أولا تزال تنام مع دروزلاً؟ وحياتك وصحتك أنك حين تقرأ هذا الكتاب تكون حائزاً لترتوليا أوترنتليا أو أفيليا أو سالفيا تتشيما أو لهن جميعاً! ومع ذلك فما هي أهمية معاشرة رجل لامرأة يقضي وطره منها؟"، ذلك خطاب جندي لجندي، أولا يتجلى أنطونيوس المحارب الباخوسي العامي في تلك الأسطر؟ التي تعرف كليوباترة ما فيه الكفاية، والآن تذهب إليه وتطالبه بالطلاق، ولا تعوزها الأسباب التي تدعم بها ما تلتمس: أو لم يجرؤ ابن فولفية على مدح أكتافية وعلى تهديد ذلك الروماني وإنذار بعض أعضاء السنات؟ إذ لم يضرب أنطونيوس المائدة بجمع كفة؟ هو لا يريد أن يتحدث عنها، إذن إلا كما يتحدث عن امرأة هتك سترها! وذلك لأن الرومان الذين فروا يقصون على

الآخرين ما رأوا في البلاط هنا! هو سيضحي بها مرة أخرى! والأمر كما حدث حينما حضر ليقضي مع فولفية شهر العسل هنا، في آثينة.

والحرب قريبة، وليس عند أكتافيوس من المال ما يخوض به غمارها، ولا تسفر الضرائب الجديدة إلا عن زيادة نفور الناس منه، والآن وقت حسابه ما دام الجيش العظيم في أفسوس ينتظر الأمر، وليطلق أنطونيوس أكتافية لتشتعل الحرب!

وبينما كان أنطونيوس يصمت ويتردد كانت تبدي جميع مواهبها فتثير أمر الكرامة وعزة النفس المكلومة وتنتفع بسطولها وذهبها وسحر صوتها وفنون ألطافها، وتمضي بضعة يام فيدعو أنطونيوس فؤادة وبعض أعضاء مجلس السنات، وبما أن كل واحد منهم يشعر بتعذر دوام الأمور على ما هي عليه فإنهم يبدون ما يرون حول ما وقع وما يقع لعدة سنين وما هو أنفع في أقرب وقت، وكانت الملكة قد شفت بالذهب، مقدماً ذوي الريب القليلن من ريبهم، ويطلق أنطونيوس زوجه الرومانية بكتاب يرسله إليها ويأمرها فيه بأن تغادر في أوحال منزله الذي كان قصراً لبونبي فيملكة من غير أن يدفع ثمنه.

ومن أعظم الأمور لدى أكتافيوس أن تبصر رومة بأسرها أخت أحد أركان الحكومة الثلاثية تترك، مع أولادها الأربعة، البيت الذي كان زوجها قد جلبها إليه على مرأة من الشعب منذ ثماني سنين! ويصم هذا اسم انطونيوس الطيب، وما كان خصمه الماهر ليحلم بضربة أشد من تلك، ولهذه الضربة ما وراءها، وقد تهافت الناس حول أعضاء السنات الذين عادوا من اثينة مع الصفح عن سابق ردتهم، ويصرح أحدهم بأن أنطونيوس يسقي ضيوفه خلا مع أنه يشرب خمراً،

ويصرح آخر بأن كليوباترة تقول في كل فرصة: "لا مراء في أنني سأقوم بشؤن الحكم فوق الكابيتول ذات يوم!" متخذة هذه الكلمة شعارا لها حديثا.

وأما الإله البحري ذو الحزام الأزرق الأخضر بلانكوس وأصدقاؤه فقد خانوا ما بينهم وبين أنطونيوس من عهد وداد ليرحب بهم أكتافيوس، وهم، وقد أمضوا كشهود وصية أنطونيوس التي كتبها في رومة حين زواجه بأكتافية، لم يترددوا في إفشاء محتوياتها ومكان حفظها لألههم الحامي الجديد، ولم يكن في رومة ما هو أقدس من معبد وستا، ونحن على كثرة ما يشتمل عليه تاريخ الرومان من الجرائم لم نعلم أنه ينطوي قبل مغامرة اكتافيوس على سرفة وثائق محفوظة في هذا المكان، ويزن أكتافيوس بدمبارد ما في انتهاك حرمة المعبد من خطر وما في إذاعة الوصية من فائدة، ويعزم على تدنيس المقدسات ويرسل من يجد له الكاهنة الكبرى، وتجيب هذه الكاهنة عن طلبه بأنه لا ينبغي لأحد أن يمس الوثائق بالقوة، ويدخل المعبد، ويقبض على الوصية.

وينتفع أكتافيوس بالوصية المسروقة بمهارة أعظم مما أبدته فولفية انتفاعاً بأوراق قيصر التي زورت باسمه، ويعرف أكتافيوس، كما يعرف جميع الناس، أن بلانكوس كان قد سرق أنطونيوس فاستنبط أنه فر خشية الفضيحة، ويحمله، إذن، على تقديم تقرير مثير للعواطف إلى مجلس السنات حول طراز حياة أنطونيوس، ويكون هذا التقرير من المبالغة ما يصرخ معه شيخ من مجلس السنات قائلاً:

"وهر كول! كيف يمكن أنطونيوس أن يصنع جميع هذا في يوم واحد؟ "ولم يكن هذا غير مقدمة صغيرة.

ثم يرتقي اكتافيوس في المنبر ويصرح بأن أنطونيوس فقد عقله بشراب سحري، فصار يقود جيشه خصي مصريا ظاهراً وجارية كليوباترة، شارميون، وماشطتها إيراس حقيقة، وتبلغ رومة من السخط على محاولة المراة المصرية امتلاكها ما يفض معه ختم الوصية المقدس، مضطراً ويتلوها بصوت عال، وفي هذه الوصية يعترف انطونيوس بقيصرون وبجميع الأولاد الذين تضعهم له كليوباترة ورثة شرعيين موزعاً ولايات بينهم، وفي هذه الوصية يطلب أنطونيوس بأن يسار بجثته عند موته من الفوروم رسمياً ثم يرسل إلى الإسكندرية بحراص ليرقد بجانب الملكة كليوباترة.

وتعد سرقة الوصية ندالة، ويكون لها ما انتظره أكتافيوس من تأثير نتيجة، وماذا كان من عدم صفح الرومان عن الغائب أنطونيوس أجل، كان شروباً طروباً، وقد أعان قيصر مخلصاً وانتصر على قاتليه معاقباً، ثم احتفل في بلد أجنبي، بنصره ونصر جنود الرومان رسمياً، ولكن ازدراءه الروح الرومانية ثبت اليوم حين ظهر أنه يسخر من رومه عند الموت بإيصائه أن يرقد في إفريقية، ولا يفسر مثل هذا الجحود بغير عمل السحر، وصح إذن ما قيل من رقيها [١] إياه، وتلغي قنصليته للعام القادم في الحال بعد أن منحها، ويجرد من جميع مناصبه، ومع ذلك فهو بعد الصيت ما لا يعلن معه، بعد، أنه عدو الوطن.

ولا احتياج لأكتافيوس إلى اتخاذ هذه الخطوة، فقد شهر الحرب على ملكة مصر وقد رمي رمحا في معبد بلونا على الحد الرمزي بأرض العدو.

---

[١] رقته: استعملت الرقية إضرارا به.

٥

تكثر السوانح والبوارح، وبينما كان انطونيوس في بتراس [١] أصابت صاعقة معبد جده هركول، وتجرف العاصفة في أثينة صورة باخوس التي تزين إفريز معركة الجبارة على جدار الاكروبول الجنوبي وفوق مسرح ديونيزوس رأساً، وتكنس الزوبعة نفسها تمثالين عظيمين منقوشاً اسمه عليهما، وتفوض طيور غريبة وكراً للخطاطيف كانت قد إنشائها في مؤخر مركب كليوباترة المسمي أنطونيا، ويضحك أنطونيوس حين يروي له خبر هذه النذر، وتلزم الملكة جانب الصمت.

ويعودان إلى أفسوس فيتقليان من أكتافيوس عرضاً غريباً، وذلك أنه يطلب من أنطونيوس أن يدعه ينزل إلى بلاد اليونان، فيكون له من الأرض فيها ما يدور الحصان حوله في أربع وعشرين ساعه فقط، وإلا وجب عليه أن يستعد للقتال، ويطرح أنطونيوس الرسالة جانباص، ويبصر من خلال الخطة أن أكتافيوس يخشى ملاقاته في الميدان المقدوني الذي هو مكان طبيعي لاعتراك الجيشين الذي كان قد نال فيه، في فرسالوس، نصراً بقيادة قيصر، ولذا اقترح أنطونيوس على الشاب أكتافيوس مع الرسول أن تكون فرسالوس محل اعتراكهما، وإذا لم يوافق أكتافيوس على ذلك عرض على هذا الشاب الذي يصغره عشرين سنة، أن يبارزهة، ولم ير أحد مقدار ابتسام الماكر أكتافيوس حين اطلاعه على هذا

---

[١] من مدن المورة ببلاد اليونان.

العرض والتي ياخذ أكتافيوس في جمع رجال لسفنه، وذلك لأنك لا تجد أحداً كان يدري أيحارب في البر أم في البحر أم فيهما معا، ومع ذلك فإن أكتافيوس يفترض حمل خصمه إياه على القتال في البقان، ولذلك عرض على ملك الجيتيين [1]، الذي ستكون مساعدته حاسمة، أن يتزوج أخته جوليا، ومن الواقع وعده بأن يتزوج ابنه هذا الملك فيما بعد، وكان هذا كله لينال كتائبه، وكان جيش أكتافيوس وبحريته دون ما عند عدوه قليلاً، وكان لديه، مع ذلك، ٢٥٠ مركب و ٩٢٠٠٠ رجل، وكان يهدف إلى وقف العدو في إبيروس [2] بعشرين كتبيه خوفاً من ميدان فرسالوس، وكان أنطونيوس قد فقدت ثلث ما عنده بسبب الأوبئة على الخصوص فأراد ان يعوض مما أضاع بفتيان بلاد اليونان غير ناظر إلى وسع [3] ما يجمع، ويحدث عن مئات من حمارة الجبال لم يروا مجدافاً فأتي بهم بدلاً من الماحين الهالكين، ولكن القرار لم يتوقف على الحمارة ولا على ملك الجيتيين ولا على لاوصية المسروقة، بل على قلب كليوباترة وقلب أنطونيوس مادام القلب هو الذي يعين المصير في جميع مآسي التاريخ.

وكانت كليوباترة في الأشهر التي سبقت العاصفة الكبير تلاحظ زوجها صامتة غالباً في ساموس وآثينة، وفي أفسوس الآن، فترقبه إذا لم يكن لديه دور يمثله، وذلك عندما يمر من الشارع وحده على نور الشمس أو ينظر إلى النجوم ليلاً من نافذة غرفته، أو يتتبع بعيينه إثر غادة، إو يجلس بجانبها متطلعاً إلى قدح راح، ويرعها في تلك الأحيان ما كان من انحطاط بنيه بلعها، البلاغ من العمر

---

(١) الجيتيون : قوم من السيت كانوا يسكنون جنوب أروبة الشرقي.

(٢) إيبزوس : القسم الجبلي من بلاد اليونان القديمة.

(٣) الوسع : الطاقة والقدرة.

خمسين عاماً، وملامحه ومن نتوء بطنه وراتخاء ركبتيه وتهدل خديه وترهل غببه[1] وفتور باصرته وظهور عجز في ناظرية عن معرفة شيء وعن طلب أمر، ويتسار {كان حربه كثيراً حول حضوره الاجتماعات متأخراً وحول عدم إصغائه لما يقال غالباً، وحول نعاسه أحياناً، ويؤكد هذا الغلط للملكة وجود مرض يناقض مزاجا يشتعل بفعل الخمر والغرام في أطيب الأوقات.

وهكذا أخذت تشك في قدرته على نيل النصر، وهكذا صارت تعتقد ما يدعو إلى التشاؤم من الطوالع والبوارح، وهل يجد ما يجب أن يكون عنده من القوة في الساعة الحاسمة؟ وهل تسرع روح قيصر إلى مساعدته في ميدان قتال قيصر؟ وماذا من نظام جيش غير متجانس مضى عليه عام في المعسكر؟ وماذا تنتظر من ضباط يقاسمونها ريبها فيمدون عيونهم إلى الرومان الآخر؟ وهل يستطيع هذا الرجل ذو الوجه المنتفخ أن يكسب معركة تاريخية حول سيادة العالم ضد رجل في الثلاثين من سنيه فاتر يساعده قائدان محنكان؟ هي تعلم وجود أعداء لها في المعسكر، هي تعلم ماذا نصحو به القائد منذ أسابيع عند ما خلوا إليه، وكان يوجد كنيديوس الذي ما انفك يخدمها بإخلاص حتى ذلك الحين، من أجل ما لها على ما يحتمل، الذي كان يسخر لها نفوذه العريض دائماً، وكان يوجد في المعسكر أعضاء من مجلس السنات أيضاً، وكان الجميع يدفع القائد إلى القتال في البر، لا في البحر، وكان الجميع يحرضه على إرسال الملكة إلى بلدها مع سفنها السريعة، وعلى الزحف إلى مقدونية حيث يرابط قسم من كتائبه فيحالف ملك الجيتيين ويحمل العدو الأضعف على النزال في فرسالوس، أو في مكان قريب منها، فهنالك يتم النصر لأعظم قواد البر ولم

[1] الغبب: اللحم المتدلي تحت الحنك.

يجب عليه أن ينال النصر من دونها! ذلك لأنها تريد معركة بحرية، ولأنها تكون مع حاشيتها سبب عرقلة في البر.

تلك حقيقة، ولكنها ليست الحقيقة، ويقول الشيخ الأريستوقراطي أهينوباربوس لصديقه (أنطونيوس) كل الصدق ذات مرة، وذلك أن أنطونيوس لا يستطيع دخول رومة مع كليوباترة التي يمقتها الرومان، ولو تم له النصر، وأما عن غير كليوباترة فإنه يقدر على إنساء الشعب افتراءات أكتافيوس سمع الوصية لما كان له من خطوة لديه عشرين عاماً، يوعد بقية الجمهوريين عند الشعب، ويرى أنه الوحيد الذي تدرك الأمة أمره، وأنه، لا أعداؤه، هو الذي وعد الكتائب بإعادة حريات رومة القديمة بعد النصر.

ويستمع الرجل الضخم ذو العينين الجامدتين نافحاً متأوهاً إلى هذا النداء الأخير لروماني يحرضه على العود رومانياً، ولكنه لا يقول شيئاً.

وتمر بضع ساعات فتعلم الملكة كل أمر، وتعرف ما كان من شهيق، وما نصحه به هؤلاء الرومان الأصدقاء يناقض ما نصحته به وإن لم يكن لديها رأس خاص عن المعركة، وعلى المرأة التي جعلت أنطونيوس ضمن نطاقها وحبته بما لا مثيل له من ضروب التكريم والمسرات ووضعت له ثلاثة أولاد على كليوباترة هذه التي أثبتت عظمتها في الميدان ولم تعوزها الشجاعه قط، أن تحول دون نبيل صديقها وزوجها نصراً كما كانت قد خافت فوزة في الحملة الفارسية، ولكن لا ينبغي له أن يهزم في هذه المرة، وبما أن لاح لها ما يصاب به من هزيمة في معركة برية كبيرة نتيجة انحطاط أهلياته وجب عليها تجنيبه مثل هذه المعركة تماماً، وذلك إلى ما تدل عليه هذه المعركة من عدم مساعدة مصر البحرية له مع أن نصف أسطوله مصري تقريباً، وذلك إلى أن معركة تقع في مقدونية تكون

خارجة عن دائرة نفوذها الحاسم في شواطئ البحر المتوسط هنا، وهي، إذ كانت قليلة الثقة برصانة ذهنه المترنح، كان لزاماً عليها أن تصونه وتصون نفسها من أحكام حازمة، وهو إذا ما قهره أكتافيوس ضاع وضاعت معه، وهو إذا ما نصر على أكتافيوس رجع إلى رومة من غير أن يكون ملكاً بجانب ملكته خلافاً لما كانت تنتظر من قيصر ما دام عاطلاً من مثل صولة قيصر في مثل سنه.

ويسفر ذهن كليوباترة المبدع تجاه هذه المعضلة عن وسيلة ثالثة، عن مخرج تجتنب به حكم القدر مشتركة في المعركة ظاهراً، وفكر مثل هذه لا يعني لغير نفس مظلمة، لغير ضمير استحوذت عليه عوامل الشؤم، ولا يزال الخلاص يبدو ممكناً لها، ولولا هذا الالتزامات جانب الصمت عن تسليم، وكذلك أنطونيوس الذي قطع وهو في أثينة صلته برومة مجازفاً خلافاً لضعف طبعه، عنده من السعادة الآن أن يجتنب اتخاذ قرار اتقاه منذ سنتين: منذ معاهدة أنطاكية، وهو لم يتناول شراباً سحرياً لاتباع ما يسوقه إليه مصيره، وهو يسير وراء هذا المصير بسجينته الخاصة.

ولكن المرأة العظيمة تنزل الآن إلى ضباب صاحب الطبيعة الباخوسية، إلى غيوم هذا الرجل ذي المواهب العادية بعد أن كانت ترفعه إلى جو ذكائها الجاف الجلي النير، وهنا أخذ إقدام كليوباترة ينفذ وأخذ تاريخها يظلم بفعل ما أبهم من الظلال، وهذا للمرة الأولى منذ قدرتها على السير والتفكير.

٦

علم أغريبا، القائد الذي كسب انتصارات أكتافيوس، من رسله الكثيرين ما يسود معسكر العدو وقلبه من اضطراب ويحث كتائبه على السير إلى ساحل إيطالية الجنوبي ويحملها على الإبحار بسرعه إلى شاطئ بلاد اليونان الشمالي، ويزحف قسم من جيشه إلى مقدونية، ويوجه قواه إلى الجنوب الشرقي ضد العدو، وكل يغذي في السير من ناحيته، وذلك لأن ما يكون من نقص في القوة يتحول، عن سحر إلى زيادة في جهة العدو الحازم.

ولكن أنطونيوس لا يزال رجلاً وجنرالاً، فلما أخبر بتقدم أكتافيوس حرك جيشه الكبير من فوره، ويصنع كما صنع أكتافيوس في البر والبحر، فيرسل قسماً من كتائبه اليونانية إلى خليج بتراس ويرسل قسماً آخر منها نحو الغرب محمولاً على الأسطول، ويأمل أن يلاقي العدو في البحر، ولكن مع احتياجه إلى جميع جيشه البري كاحتياطي أو لحفظ خط الرجعة، مفكراً في خوض المعركة على الشاطئ الغربي من بلاد اليونان، واليوم يمر من قناة كورنثوس من يسافر بالسفينة من إزير إلى كورفو، ولكن بما أن خطه قيصر عن حفر البرزخ لم تنفذ حتى ذلك الحين كان على أسطول أنطونيوس أن يبحر إلى الجنوب الغربي مارا حول ابلوبونيز ليتوجه نحو الشمال قاصداً الجزر الواقعة بين بلاد اليونان وإيطالية، أى

الحد بين نصفي العالم الروماني كما خططه أركان الحكومة الثلاثية، ويكون سفر أكتافيوس هو الأقصر فيقابل العدو في جنوب كورفو، وبالقرب من جزيرة لوكاس.

وفي هذا الساحل، الذي قد منه شمال بلاد اليونان الحاضر والذي تكثر فيه الخليج والفرض، تشق الأمواج طريقها من صخور رعن [1] فتجوف شرماً [2] طولة ثلاثون ميلاً وعرضه نصف ميل ومدخله الضيق أوسع من نصف ميل قليلاً، ويعد خليج انبراشياً، المسمى اليوم أرتا، مرفا طبيعياً لا يقدر بثمن لمن ينشدون ملجأ من الريح، ولا يكون إلا خطرا في الحرب على من يجد في طلبهم لإمكان حصاره بسهولة أعظم من حصار الدردنيل الذي يزيد عليه عشر مرات عرضاً، وتحيط به أرض نقعاء يعسر على الجيوش أن تتقدم فيها، ويقوم وراء ذلك جبل بندوس الذي لا يبقي عليه ثلج في شهر أغسطس، وهنالك، في أكيوم، أي في وسط الإمبراطورية الرومانية، يقابل الجيشان لتعيين مجري التاريخ إذن، ويكون أكتافيوس على التلال الواقعة شمال الخليج، ويكون عن يمينه بحر اليونان الممتد إلى شواطئ الوطن: برنديزي وتارانت ومسنة، ويقف هنالك ككلب الحرامي الذي لا يغفل عن البال طرفة عين، وذلك لتجمع جميع أسطول أنطونيوس في الخليج متصلاً بمعظم جيشه البعيد المدي في البر، ويقطع أسطول العدو اتصال أنطونيوس بحراص، فيضطر إلى جلب ميرته على ظهور الرجال والبغال ليل نهار من غير أن يستريح القطار مطلقاً، ويحرس المدخل الضيق بدقة من قبل سفن أنطونيوس الكثيرة القوية، ولكن مع التزامها خطة دفاع فقط.

ولو ذهب أنطونيوس إلى طرف الساحل، حيث يقوم تمثال أبولون العظيم ونظر إلى عدوه لوجوده مرابطاً على الهضبة غير بعيد أكثر من ألفي خطوة ساكناً

---

[1] الرعن: أنف يتقدم الجبل.

[2] الشرم: الخليج.

منتظراً مثله، ولكنه يرى وراءه، على مدى البصر، استعداد أسطول العدو للاندفاع على أسطوله إذا ما حاول الخروج.

وهل كان يمكن القائدين ألا يذكرا المعركتين اللتين كانتا قد عينتا مصير رومة؟ عن هذه هي ثالثة حرب أهلية وقعت في جيل واحد، وقد تقاتل قيصر وبونبي في سنة ٤٨، وقد قاتل المطالبون بدم قيصر قتلته في سنة ٤٢، ويكتب النصر لأنطونيوس مرتين: مرة في فرسالوس بقيادة قيصر، ومرة في فليبي وحده، وكان أكتافيوس طالباً حين وقوع المعركة الأولى، ولما وقعت المعركة الثانية ولي الأدبار.

حتى إن جو المشاعر كان واحداً، أو لم يدع قيصر حربة ضد بونبي حرباً بلا معارك؟ وقد تقابلا أسابيع، ولو لم يفقد أحدهما صبره ما وقع قتال على ما يحتمل، وقد دام السكون في فليبي أسابيع أيضاً، ولم تدع الضرورة أكتافيوس وبروتوس في فلببي إلى قتال، وفي كل مرة تقابل فيها روماني وروماني بدا ترددهما وتخوفهما عن عدم ثبات في الأحزاب المشتبكة، لا عن أسباب أدبية، وذلك مع تباعد عن حسم الخلاف بالمفاوضة وفق أقوم الطرق، وفي كلتي المعركتين كان نجم أنطونيوس لامعاً، غحدهما بقيادة قيصر والأخرى بقيادته وحده، والآن قد يهاجم للمرة الثالثة، والآن هو الأضعف ذهناً وجنانًا مع ذلك، وقد كان قبل سبعة عشر عاماً خالياً من التبعه السياسية كقائد شاب لقيصر فلم يكن عليه غير التقدم ما أمره قيصر بهذا، ولما كانت المرة الثانية كان حرصه على الانتقام من قاتلي قيصر يبعده كم كل احتمال للمفاوضه، والآن يتقاتل رومانيان ظاهراً، والآن يقاتل روماني شرقياً، كما في باطن أنطونيوس، فيحاول الشرقي اجتناب الحكم.

وأدرك أنطونيوس رأى زوجه وأمر بتنفيذه في سفر بحري دام أسابيع، والحل في المعركة البحرية، في معركة تهدف إلى إنقاذ أسطولة، لا تفويض أسطول العدو، وهنا لم يعرض طيرته لنور العقل، وماذا يقع لجيشه البري ما كان مستعدا للقتال هنا؟ لقد ترك أربع فرق على السفن في قرناه [1] وأربع فرق في مصر وأربع فرق في سورية، وما كان أحد من أركان حرية ليدرك سبب عدم جلبه هؤلاء الـ ٣٠,٠٠٠ رجل إلى هنا أيضاً، وذلك لناهم لم يزالوا يعتقدون أنه سيقاتل في البر، وكان أنطونيوس يعد هذه الكتائب سرا لمعارك تقع في المستقبل، ومهما يكن من أمر فقد كان يريد أن يبحر بعد الصدام إلى الجنوب من غير خسر، وهو لم يقل قط إنه يود الفرار إلى مصر، وهل نطقت كليوباترة بكلمة الفرار؟ إنها لم تفكر فيها، كلا، وإنما هي وسيلة رجل نصف أشل، وإنما هي سبيل رجل عاد لا يجرؤ على تسمية الأمور بأسمائها.

ولا يمكن أن يظل القسم الأول من الخطة، أى القتال البحري، أمراً سريا ما استعد له، ويسأل الضباط: هل القائد مجنون؟ هل يريد القائد الأعظم أن يقرر مصيره فوق البحر هو ومشاؤه وفرسانه؟ وهل كان يجهل سوء تجهيز السفن؟ وهل نسي أن أسطول أغريبا قضى على بونبي الشاب؟ وينقسم أركان الحرب، وتقوم أحزاب في المعسكر، ويظهر فرار قانطون من فوزه، ويعلم أنطونيوس أن اثنين من الملوك المحالفين قد فرا، وأن دوميليوس الروماني قد هرب بعدئذ، وكان الفرار سهلاً جداً، فيمكن الرجل أن يصل إلى خط العدو ببضع مئات من خبط، المجذاف، ويقهقه أنطونيوس ويرسل إلى الروماني أمتعته وعبيده، ومن المحتمل أن سمع مسرورا نبأ موته فجأه بعد قليل نتيجة تأنيب الضمير على ما

[1] قاعدة برقة الواقعة بين مصر والمغرب الأدنبي.

يحتمل، ثم قيل إن أهينوباربوس أصيب بالبرداء [1] فصار مضطراً إلى النزهة في عرض البحر حفظاً لصحته، ولم يمض غير نصف ساعة حتى كان عند أكتافيوس.

ويغضب أنطونيوس، فذلك شريف صديق له، وذلك رجل كان يعتمد عليه، وما أكثر ما يفشيه من سر للعدو! ولما وشي إليه بأحد أعضاء السنات قتل هذا الشيخ حالاً، ثم ذعر من عمله الدمي، ومن المحتمل أن يكون في ذلك المساء قد صب جام غضبه على شخص آخر، على زوجه بحكم الطبيعة، نتيجة تلك المهارب، كما يصنع ضعاف الطبع.

ويثير منظر العدو المائل كليوباترة فيعود إليها سابق نشاطها في هذا المعسكر الوثيق الذي عاد لا يستند إلى مدينة كبيرة والذي ينتظر أن يسير، ويقترب وقت العراك، فيصدر عنها ما لم يصدر منذ معركة الإسكندرية مع قيصر ومعركة فرسالوس قبل سبع عشرة سنة، وتستلقي تحت خيمتها مرة أخرى، ولكن مع تحويل حرير ذي مائة لون مختلف هذه الخيمة إلى غرفة خائفة يتسرب فيها هواء حار رطيب بفعل المنافع الوخيمة، ولكن مع كون الجفاف على حدود مصر يصقل العقل، وهل يحار إذا ما استعوذت على الملكة سوداء كانت غريبة عن طبيعتها؟

والآن تحتفظ بمشاطتها حولها، بهؤلاء اللائي ذكر اكتافيوس لمجلس السنات أنهن حاكمات مصر الخفيات، وتعاملهن صديقاً [2] ولكن لا أحد يعلم أمد دوامها على هذا، وهي تلاعبهن كما يلاعب الحيوان الوفي، وذلك لأن عمرها وطبعها لا يسمحان لها بأكثر من هذا، وتضطجع وفق وضعها المعتاد فوق

---

[1] البرداء: حمى الملاريا.

[2] تستعمل بلفظ واحد للواحد والجمع والمؤنث.

سريرها، فتضع رجليها على وسائدها أمام كدس لها من القلائد والنطق والسلاسل والقروش والمشابك والقرامل [1] التي تتلألأ على نور المصابيح المعلقة، أى أمام مجموعة من الحلي والحجارة الكريمة التي تكاد المرأة تعبدها ذات حين، وتستلقي هنالك فتظهر شرقية تماماً، وتغرز أصابعها الطويلة بين الجواهر، وتخلط بين الألوان ما يلائم مزاجها، وتدندن بصوت لين على حين تجلس إحدى جاريتيها القرفصاء أمامها وتنطبح الأخرى أمام درج مرصع بذهب التقاطاً لما تدعه يسقط من الحلي أو تقديما لحجارة جديدة إليها، ومن المحتمل أن يكون ربع ساعة قد انقضى في هذه الآلهة الصامتة مع غناء ناعم بصوتها اللطيف، مع تنغيمها بألحان قصيرة كما لو كان يضغطها أمر، وإنها لكذلك إذ تسمع وقع أقدام، إذ تسمع صليل سلاح ويدخل انطونيوس، وتتوارى الجاريتان كانهما ظلال تزول ويزمجر من فوره ويرتجز [2]، وفقد هجره خير أصدقائه، وقد انفض الملوك والشيوخ والرومان والغرباء من حوله، ومن المحتمل أن قتل الآن مساعداً مخلصاً له، ويطبق ضباطه شفاههم حينما يتلقون أوامره لكيلا يحاولوا قول كلمة: كلا!.. وذلك كله لما يساورها من فكرة هذه المعركة البحرية الخرقاء! هي، أجل، هي! وذلك لأنها لم تنفك تلقي في أذنيه مطبلة ضرورة اجتناب مقدونية مع أن ذكرى فرسالوس وكل حساب صائب يدفعانه إليها! وهذا ما يقع لدى الزواج بأجنبية! وهكذا ينتقم الوطن لنفسه عند ما ينسي روماني رومة! لقد فات الوقت وضاع كل شيء!

ويصل ويزحف نحو الخيمة ويجاوزها ويرسم بخطاه نصف دائرة، ويقف في أثناء سيره لينتصب أمامها ويصب اللعنات على رأسها، وتنهض على المتكأ

---

[1] القرامل: جمع القرمل، وهو ما تشده المرأة في شعرها.

[2] ارتجز الرعد: سمع صوته متتابعاً.

متخذه وضع الراكع في بادئ الأمر، ممسكة عقداً طويلاً من ياقوت أزرق، ويلتقط الياقوت ويجتذبه من أصابعها محركاً إياه بطلف إقبالاً ورداً قابضاً عليه من من الأسفل بكف مجوفة مظهراً سروراً من مداعبه النور به، وإذا كانت قد ذعرت في البداءة فإن ملامحها أخذت تفتر مقداراً فمقداراً كلما زاد غضباً، ويثيره هذا كثيراً، وأخيراً يقف أمامها بعيداً نصف خطوة منها خابطاً رجليه غيظاً متمتاً، وتنتحل حركة الأم فتجذب الجواهر إليها بسرعة صوناً لها من قدميه، ولكنه يتبعها فتطقطق سحقاً تحت جزمتة [1] الغليظة، وهنالك تثب كليوباترة.

والآن تقف أماه، وترميه بسهام عينيها السمراوين الذهبيتين، ويحمر وجهه، ولا تنطق بكلمة، وتمر من تحت أنفه وتذرع الخيمة مثلما صنع، ولكن مع خطأ أقل هياجا، وهنالك، يرتمى على جلد حيوان منشور أمام متكئها.

وتضحك بغتة، ويا لخسارته مركباً! وذلك أن العقد الذي داسه يعدل سفينة على الأقل، وأما روماه المقدسة فما عليه إلا أن يعاهد أخت أكتافيوس فيامرها غداً، وهي لا تطالب بأكثر من حق الخروج من الخليج مع سفنها الستين.

ويضحك، ويقذفها بشتيمه، ويغضبها هذا فجأه، وتقبض على خنجر من جدار الخيمة حيث يظل معلقاً فوق سريرها، وتمسكة منخفض الحد، وتنتصب أمام أنطونيوس، وتدله على الباب بإصبعها، وتأمره بمغادرة الخيمة.

وملا قبضت على السلاح وثب على رجليه بأسرع مما ينتظر من رجل بمثل ضخامته، ويمسك سيفه، ولكن بما أنها تمسك الخنجر منخفضاً، ولكن بما أنه لم يشعر بكونه مهدداً بغير السبابه الدالة على الباب فإنه ينسى جنديته، ويعد

---

[1] botte

رجل العالم هذا أن ما وقع لا يعدو حد أزمة أعصاب كالتي أبصر صدور مثلها عن نساء أخرى، ويضحك قليلاً، ويدمدم بالهجر من القول، ويترك الخيمة أحمق ضاحكاً أمام الباب بضع ثوان حتى تسمعه مبدياً براعته ممثلاً قديما.

ويزور الملكة في ساعة متاخرة من الليل، ولا ينطقان بكلمة واحدة حول ما حدث، وتكتفي كليوباترة باضحك، وبوضع القلادة المحطمة تحت أنفه.

٧

يكون الجميع مستعداً للقتال غداً مساء، ويسفر تجاور المعسكرين عن إمكان ملاحظة استعداد العدو وفق العادة القديمة القائلة بالتأهب جهراً لخوض معركة في اليوم التالي، ويرغب أنطونيوس في إقناع عيون العدو بتاكده من النصر فيقم وليمه عظيمة وقت الغروب، ويامر بتقديم الأطباق إلى الملكة قبل تقديمها إليه لإستيلاء الحذر عليه مع ما وقع من وفاق مضحك، وتعرف كليوباترة ذلك فتسم الأزهار التي تزين شعرها، والآن بينا تجلس بجانب القائد، الذي أحمر وجهه بفعل الخمر والذي يحيط به ضباط سكاري، إذ تنزع الأزهار من رأسها وتلقيها في القدح أمامها، ثم تحييه ديونيزوس وتدعوه إلى شرب هذا القدح معها، ويمسكه ويرفعه إلى شفتيه، ولكنها تضع يدها على ذراعه وتصرخ قائله :"والآن، ألا ترى يا أنطونيوس؟ أنت تريد أن أذوق الأطباق قبلك حذراً مني؟ ولكن أنظر كيف يسهل على قتلك لو كنت أريد ذلك! "وتكره على شرب ذلك أمام الضيوف مجرماً أمرت بإحضاره لهذا الغرض، ويسقط الرجل، ويتشنج، ويموت ويثبت هذا المنظر الذي روي بلوتارك أمره بما عرف عنه من عنف، أفضلية كليوباترة، وذلك لأنه بينما يظهر حذره منها أمام الضباط الحاضرين وأمام جميع الجيش بواسطتهم تدل على جوره أمام أصدقائه وعلى إمكان سبقها إياه إذا ما

لاح له أن يسمها، ويا لبراعتها في إلقاء هذا الدرس حول المائدة بين قدحين ورياحين مسمومة في الزرافين [1] قبيل ما تتخذه من قرار!

ويركب أنطونيوس سفينته الحامله علمه الخاص في صباح الغد فيبصر سمكة صغيرة، يدعوها القدماء "معوقة المراكب"، الملاحين فيغير المركب، ولكن مع أمره رجاله بشدة ألا يحدثوا عن هذا مطلقاً، بيد أن كليوباترة تنبأ بما وقع فتمتقع [2]، ولما رأى أنطونيوس ذلك الشوم حمل معه في المراكب جميع من عنده من أشراف الرومان عن حذر، ويلاقي أكتافيوس رجلاً يسوق حماراً في الساعة نفسها من ذلك الصباح، ويسأل عن اسمه فيكون من الذكاء ما يجيب عن السؤال قائلاً: "إن اسمي سعيد وإن اسم حماري فاتح"، وفي الحين ذاته يقول جندي قديم لأنطونيوس جواباً عن سؤال:

"أنت قليل الثقة بجراحنا وأيماننا فتعتمد على أجواف هذه السفن الخشبية؟ دع البحر للمصرين، وقدنا إلى البر، ففي البر نعرف أن نغلب ونموت!".

ولابد من أن القائدين كانا في وضع يستطيع كل منهما أن يسمع معه النخر، وذلك لأن قائد قوات أكتافيوس الحقيقي، أغريبا، قدم أساطيله الثلاثة إلى الأمام جاعلاً إياها على بعد ١٥٠٠ متر من مراكب العدو الحربية، وكل كان ينتظر ريح البحر ما ظلت سفن أنطونيوس الكبيرة، المؤلف منها ثلاث عمارات[3] أيضاً، ساكنه أمام مدخل الخليج، وتبقي مراكب مصر الستون راسية ف يالخليج

---

[1] الزرافين: جمع الزرفين، وهو الحلقة الصغيرة من الشعر.

[2] امتقع: تغير لونه من فزع أو ريبة.

[3] العمارة: طائفه من السفن الحربية تكون معاً (مولده).

مستورة بظل تلك السفن الكبيرة وبظل التلال تابعة لقيادة كليوباترة كما اصرت عليه، وما كان أحد من قائدي الرومان ليجرؤ على الاقتراب من الآخر، وما كانا ليعدلا عن وضعهما وإطاله مكثهما لو لم تهب ريح البحر بعد الظهر فتقضي على حاجز مراكب أنطونيوس وتشطرها، ويظهر أن الآلهة كانت أعظم إقداما من الدميين المحارينما سهل عليها هذا لاتخاذها حال المشاهدين.

غير أن ريباً تسربت في أذهان جنود أنطونيوس، وذلك أنه كان يتألف منهم عشر فرق قوية موزعة بين ١٥٠ سفينة فتشتمل كل سفينة على ١٥٠٠ جندي، أي على حمل ثقيل، ويؤمر، برفع الشرع الكثيفة، ولماذا؟ ألتعقب العدو المغلوب؟ ويا للعجب! ويشاع أن الملكة المصرية شحنت في الليلتين الماضيتين سفنها الخاصة بجميع خزائنها مستعينة بعبيدها، وهذه الإشاعة صادقة، ويعرفها العدو جيداً بعيد انحياز اثنين من ضباط أنطونيوس إلى أكتافيوس مع ألفي رجل منذ ليله، ويرويان الأمر لاكتافيوس فيعقد مجلساً حربيا ويسمح ليكليوباترة بالمرور إذا ما اراد أسطولها أن ير.

وتقع المعركة التي أخذ إله الرياح على نفسه أن يوقدها بين أساطيل مترددة على مرأى من الجيشين البريين اللذين كانا يشاهدانها من فوق التلال كالجمهور في المدرج فيشجع كل منهما مجاهدية، قال بلوتارك: "وتكسب المعركة شكل هجوم بري، شكل هجوم على حصون، ويحيط ثلاثة أو أربعة من مراكب اكتافيوس بمركب لأنطونيوس، وتحمل عليه بالنبال والحراب والمزراب والنار على حين يمطرها العدو بقذائف الدفاع من فوق أبراجه الخشبية "، وقال ديون كاسيوس: "كان البحر يهدر بفعل المقاذيف حينما كانت مراكب اكتافيوس الصغيرة الضيقة تصول محاولة اتقاء قذائف العدو، وتوفق في الحين بعد الحيم

لخرق جدار سفينة، فإذا ما حبط عملها رجعت مشرعة قبل أن ينشب فيها، ثم تعود إلى المركب ذاته أو إلى مركب حائر آخر، وبينا كانت سفن أكتافيوس تقفز إقبالاً وإدباراً فتشابه الفرسان كانت سفن أنطونيوس، على العكس، تحاول حماية نفسها والثبات حيث هي كالمشاة الثقيلي العدة".

وكانت هذه أول معكرة ترها كليوباترة منذ سبع عشرة سنة، والآن يرقد في هذه المترجلة كل عامل نالت به قلب قيصر من فناء وغرام وطموح وكفاح في سبيل تاجها وحياتها، والآن كثير من الأحوال قد قلب، والآن تبدو الملكة متعلقة في خليج مع سفنها الستين، وبينما كان الوطيس حامياً بين الآخرين كانت لا تبصر، ولا تسمع غير غرباء يتنازعون تعيينا لمصيرها، وما قضب به عليها من جمود ينزع منها كل راحة، وهي لم تعان يوماً كهذا منذ منتصف مارس.

وهي ترجع البصر إلى منتصف مارس ذلك فتقابل بين الأوضاع وقد كانت رهن القدر فتضطر إلى إعادة النظر في خططها وسلطاتها ووسائل سلامتها وصولاً إلى ذروة القدرة عند نزول الضربة، واليوم تذرع ظهر مركبها ذهاباً وإياباً وتنظر إيل البحر وترسل الرسل، فلما علمت من صراخ رجال أكتافيوس اشتعال مركب آخر لانطونيوس اعتقدت ضياع المعركة، ولم لم تأمر بالهدجوم بعد الظهر؟ ولم لم ترسل جذافين وجنوداً لمساعدة ذلك الصديق الذي يقاتل ويقود هنالك باذلاً أقصى الجهد رامياً قذائف بيديه غير مهادن؟

ذلك لأن مشروع المعركة الزائفة لم يوضع من قبل القائد والملكة كبرنامج ملزم لها فيمضيانه ويقسمان على تنفيذه، وذلك لأنه لم يكن هنالك خطة معترف بها، ولما تمثلت كليوباترة في الأسابيع الأخيرة ما ينطوي عليه النصر من الأخطار إذا ما تم لم تسطع لا ريب أن تمسك عن التفكير في إمكان هذا النصر، خلافا

لكل حذر ونتيجة لما فطرت عليه من رجولة، وهي الملكة الزوجة لمقاتل والمحبوبة من قيصر في المعارك، وما كانت لترفض النصر لو عرضه القدر عليها، ومن هو الإنسان الذي يجرؤ على رفض هبة رائعة من الآلهة عن منهاج؟ هذا من بدا لأنطونيوس باطناً عند ما قبل اقتراحها، وما كان يوحي إليها هناك حين الصراع يناقض هدف هذا الاقتراح ما كان قهر العدو غاية المجاهد عند اشتداد المعركة، وأما تركه يمر ويبحر إلى مصر فمسأله أخرى.

ولكن أيمكنها، وهي حبيسه في الخليج، بعيدة من المعركة، قريبة منها قرباً تسمعها معه، متخذه من الوضع ما لم يعرف قائد مثله في التاريخ، ألا تفكر فيما يحدث إذا ما أنهي الصراع البحري بفوز أكتافيوس وخسران أنطونيوس؟ اولا يتوقف مصيرها على إقدام قائد عدو يكون من الجرأة ما يدنو معه من سفينة رئيسة لعدوه ويرحقها؟ أولا يتوقف مصير مصر وحياة أولاد الملكة في تلك الساعة على خوف حارس قد يفر من مركزة إنقاذا لنفسه؟

وماذا يحدث للملكة إذا هجم أغريباً على سفينة القائد فمات أنطونيوس موت بطل روماني؟ إنها تقاد مقيدة بسلاسل أرسينوية مع سماعها زعق الجمهور الروماني وسيرها أمام عربة نصر الفاتح وتحت نظره الفاتر الداعر ومرورها من شوارع رومة إلى الكابيتول، حيث ينتقم منها بجانب قيصرون وارث قيصر الآخر! ويا للرؤى! لقد أزالت برودة تأملات الأسابيع الأخيرة في ساعة الفصل، ولا تصبر الملكة على هذا الشلل، وتدعو الهواء وتنشد الحرية، وتأمر كليوباترة بالإقلاع[1].

---

[1] أقلع الملاح السفينة: رفع قلعها، أى شراعها، وأقلع أصحاب السفينة: ساروا.

٨

لـم تكـد سـاعة تمـر حتـى كانـت الـسفينة أنطونيـا، ومعهـا جميـع الأسـطول المصري، تجري نحو الجنوب في بحر اليونان، وينفخ الريح شراعها المرفوع على عجـل، ولمـا ظهـر المركـب بغتـة فـي مـدخل الخلـيج الـضيق لـم يتعقبـه وفـق قـرار أكتافيوس، وتمر لامراكب الرائعة سليمه كما لو كانت سائرة من شارع بين مراكب داخنة صاخبة مقاتله، ويبصر أنطونيوس الملكة، ويري الإشاره المدبرة مقدماً، فلم يتـردد ثانيـة كمـا أجمعـت عليـه الروايـات، ويبحـر فـي زورق مـن فـوره انتقـالا إلـى مركب الملكة ويصعد فيه مع ابنه انتيلوس واثنين من أصدقائه فقط.

وإن الأمر لكذلك إذ يتعقبهم بضع سفن معادية، ويطردها أنطونيـوس الـذي قبض على القيـادة حالاً، ويـدنو من المركب رجـل واحـد في سفينة ويرمي القائـد بـسهمه، ويكلمـه انطونيـوس مـن فـوق المركـب بقولـه: "مـن انـت حتـى تتعقـب أنطونيوس؟ "

واسمع جوابه من الأسفل :"إنني أريكلس بن لخاريس، وقد تسلحت بحظ أكتافيوس فجئت منتقماً لأبي !"، وقد صدق، فانطونيوس كان قد أمر بقتـل أبيـه، ويرمي ولـم يـصب، ويعود مع بـضع سفن ويوفق لـضبط مركب مهـم مـشتمل على أوساق كثيرة من ذهب.

وينهد القائد بعد هذه المعركة الأخيرة الخاطفة، وينحل بهذا الانحطاط ما كان من توتر في الأيام الأخيرة، وما جرؤ عليه أنطونيوس من أمر جلل، وما لم يجرؤ عليه، كان ذا وقع شديد على نفسه، واسمع رواية بلوتارك: "لقد ظل جالساً في مؤخرسفينة كليوباترة ثلاثة أيام، وذلك من غير أن يتكلك ويأكل ويشرب، وذلك مع طمر رأسه بين يديه ساعات بأجمعها، وتنقضي هذه الأيام الثلاثة فتوفق جواري كليوباترة لجعلها يتخاطبان يوأكلان معاً وينامان في سرير واحد على ما يفترض ".

ويصل الأسطول إلى تنارون الواقعه في الساحل الجنوبي من بلاد اليونان، ويعود إلى أنطونيوس وعيه، ويعلم ما حدث، ولم يلاحظ أمر فراره أحد من رجاله في البداءه، ولما عرف كينديوس ذلك لم يجرؤ على غاعته، ولم تبدأ الكتائب بتصديق ما وقع إلا بعد غيا القائد عدة إيام وانضمام آخر أعضاء اسنات إلى معسكر الأعداء ونشر أغريبا خبر الهرب، غير أن جيش البر لم يستسلم من فوره.

ولا ريب في دمار الاسطول، بيد أن جيش البر لم يزل قويا كما يظهر، ولذلك أمر أنطونيوس كينديوس بسوقه إلى آسيه الصغري مجاوزاً مقدونية، ولو نظر إلى حساباته لوجد إمكان اعتماده على الفرق ال ١٩ والفرسان ال ١٠٠٠٠ التي وعد بها للقيام بمغامرات أخري، وذلك لعدم عده نفسه مغلوباً بعد، وهو لم ينفك يسرف كما لو كل زمن، ومن ذلك أن أعطي أصدقاءه اللاجئين، الذين استطاعوا أن يتبعوه ساكين سبلا ذات مخاطر، إحدي السفن المصرية مع ما تحمله من أوساق ذهب، كما وهب سفاتج لأنصاره في كورنتوس وأثينة، ثم داوم على سفره إلى مصر.

وأكتافيوس هو آخر من اعتقد وقوع النصر، ماذاً ايحمله الحظ على عد نفسه سيد العالم الروماني بمعركطة واحدة كسبها له أغريبا كسبا ناقصاً؟ ماذا ! ألم يكن ذلك الذي لم يوفق لحفظ منصبه مدة ثلاثة عشر عاماً إلا بأعمال فاترة ماهر وتداخل بين القوات والاحزاب؟ ماذا ! أولم يقهره أحد ابناء بونبي منذ بضع سنين؟ ماذا؟ أولم يكن أمس حاكماً يكرهه كل روماني فلم يغض عنه إلا لأن قيصر رفعه متبيناً؟ ماذا! ألم يكن طاغية ابناً للثلاثين من سنيه فيعد بخيتاً بفضل ما ورثه ماذا ! أيصبح حفيد مرابي فتري هذا سيد العالم الغربي بغتة؟ وام أن أكتافيوس عاطل من كل ما يؤهله لمثل هذه الرسالة، من تقاليد وتصورات ومشاعر، فإن الأمر الوحيد الذي حدث له في البداءه هو أن جحفل الجنود الجدد، وهم اللذين كان يتألف منهم نصف جيش أنطونيوس فانضموا إليه، أوجب له ارتباكاً عظيماً ما دام عاجزاً عن دفع رواتب إلى فرقة القديمة، وكل ما راقة في وضعة هو ما أتيح له من فرصه الانتقام، ولكن أن من النادر أن يجرؤ على الاعتراف لنفسه بما يخامر قلبه من وغائب خفيه، ولكن بما أنه يميل دوما إلى تمثيل دور الأصيل الثابت الجنان، فإنه فوض إلى أناس آخرين قتل مرؤوسي أنطونيوس، ولما تم له ذلك النصر كان لديه من الوقت والشوق ما يشفي معه أحقاده القديمة، ومن ذلك أن زوج فولفيه الأول والمنافس الجاف، كوريون، لم يكن ليطبق الصبي أكتافيوس فيأمر هذا الفاتح الآن بقتل ابن كوريون الذي حارب مع انطونيوس.

وقد أترف الرئيس الأكبر برهة [1] فيما أعدته رومة المرتجفه له من الولائم والتكريم، وتضطر كاهنات الإلهة فستا، اللائي شانهن منذ بضعة أشهر بسرقة وصية أنطونيوس المشهورة، إلى ملاقاته خارج ابواب المدينة، ويسمر رأس مركب أنطونيوس في معبد قيصر، وتنصب قوس نصر في لافوروم، ويستابق جميع إيطاليه في إقامه التماثيل، ولا يعترف أحد بأنه كان من أنصار أنطونيوس، ويصدر مجلس السنات قراراً بأن يوم ولادة أنطونيوس، نحس، وتطلب رومة بأسرها فتح مصر.

وذلك مس للنقطة الحساسة عند أكتافيوس، وتمر ثلاثة أشهر على معركة أكسيوم فيتوجه هذا الغاب إلى آسية الصغرى استعدادا لمحاربة مصر، وذلك لأن الرجل الوحيد الذي يخشاه لأن ابن قيصر، لا يزال يعيش في مصب النيل هنالك، فيجب إهلاكه.

---

[1] البرهة: قطعة من الزمان طويلة.

٩

يدنو أسطول مصر من المنار الأكبر مزيناً بالأكاليل ويألف من الأعلام فيلوح لأهل الإسكندرية أنه عائد إلى الوطن بعد نصر، وماذا يكون لو سبق نبأ الهزيمة سرعة الجذافين صيفاً؟ وماذا يحدث إذا ما أخبر الملاحون بالحقيقة غداً؟ وما أهمية ذلك؟ وما هي الحقيقة؟ لقد رجع الأطسول لعد عام غير مقهور، لقد رجع كاملاً تقريبا فلا تري رضا في مركب منه، أو ليس من انتصار كليوباترة سياسياُ أن تسير أسطولها من خلال حرب أهلية بين قائدين رومانيين فلا تكون ترساً؟ وويل لمن يقول غير هذا في تلك المدينة!

ويكون لكيلوباترة تجديد شباب بالخطر الأكبر، ويكون لها بعث بالعود إلى أرض الأجداد، فتخالط الدهماء في الإسكندرية بحرارة كالتي أظهرتها منذ عرشين عاماً حينما كانت مترجلة معزولة تزجي أوراها إلى قيصر المسن، وإذا ما نقص سلطانها عادت إلى الحيلة، وإذا ما حرمت مساعدة رومة للمرة الأولى منذ خمس عشرة سنة استعانت بذهب البطالمة، وتجد ابناً كبيراً في مكان زوجها.

وذلك لأن قيصرون، البالغ من العمر سبع عشرة سنة تقريبا، قد صار رجلاً مسيطراً على مصر، وحده كملك لها، وذلك تقريباً، قد صار رجلاً مسيطراً على مصر، وحده كملك لها، وذلك لأنه يرعف الآن بصيصر بطليموس بعد أن نسي

أهل الإسكندرية اسمه الودي، قيصرون، فكان هذا خير الجزاء لأمه التي بذلت مجهوداً كبيراً في حسن تربيته، وهنالك، وراء البحر المتوسط، في رومة، لا يزال أكتافيوس يسمى نفسه قيصر فقط، وهنا يكون لقيصر المصري أعظم حق بهذا الاسم، واليوم يوجد في العالم قيصران.

ولما دنا مركبها المزخرف من المنار، ولما انطلق ابنها في زورق لملاقاتها طويلاً نحيفاً أسود العينين زوايا ما بين الحاجتين، شعرت بزوال جميع الظلال، أو كانت تحلم؟ أو كانت عائدة إلى ميناء آبائها ليستقبلها قيصر صاحباً لخطط جريئة ومشاريع جديدة حريصاً على مباحثتها في شأنها مقاتلاً معها؟

ويدوم هذا أسابيع وأشهراً، ويشعر الناس، بذلك، وهل وجد في تاريخ البطالمة من الإخوة والأخوات من اتحدوا أزواجا حاكمين بهذا المقدار؟ وتغمر الحماسة وروح الانتقام ونشاط الشباب فؤاد الابن، وإذا كانت تجارب الأم وهمومها عشرين سنة توجب إفراطها في الحذر فإن وجود فارس حدث بجانبها يمن عليها بالقوة.

ومتى كان لها في هذا القصر ذي الجو الخانق عاشق أو زوج أو صديق أو خادم يمكنها أن تعتمد عليه؟ ومن كان من وزرائها مخلصاً لها حتى النهاية؟ وإذا ما أتاها كاتب أو عالم من الموزوريون للنصيحة كان كمن يجيء للتحية من عالم آخر فتبتسم وتدعه ينصرف أو لم يكن أنطونيوس كاذباً في أقواله لها عن ضعف غالباً فيلجأ إلى حيل الشروب وخدائع الروماني فلم تلبث أن تكشفها؟ وقيصر هو الذي كانت تثق به تماماً، ومع ذلك فإن قيصر كان يكتم عنها قسما من خططه، وإذا حدث في تلك الأيان رسم شخصين معا خطة لعالم جديد فذلك

لحلم أحدها بها فقط وتنفيذ الآخر لها بتسلمه قيادة العمل وإلزام الأول بالطاعه في سبيلها.

ولكن كليوباترة الآن، ولكن كليوباترة البالغة من العمر أربعين سنة التي تقضى العام الأخير من حياتها، تعلم للمرة الأولى منذ موت قيصر ماذا يعني نصح الرجل وعونه، وابنها هو الذي يقوم بمساعدتها ونصيحتها في هذه المرة فلا يشوب صلاتهما غرام أو غيره، والواقع أنها تتمتع بجمال هذه الحياة الجديدة بين ما تثيره هي من ارتباك.

وذلك لأنها ما فتئت منذ رجوعها إلى الوطن تتخذ جميع الوسائل النافعه وجميع من تري فائدتهم من الناس وما تبصر ملاءمته من الأحوال استعداداً لحل الأزمة، وكان لها وقت بالشتاء الذي لا يقدر العدو أن يجاوز البحر فيه فانتفعت به، وتسجن جميع المشتبه فيهم أو تقتلهم ما دام الإرهاب، لا حب الرعايا، وهو وحي السعة، وإذا ما وصل أكتافيوس في الربيع وجب أن أن يعارض بمصر وحلفائها من الدول الأخرى، ولكن من ذا الذي لا يرتعد فرقاً من سيد العالم منذ معركة أكسيوم؟ وكيف ينال ملك مادياً الذي تعيش ابنته في البلاط هنا خطيبه للأمير الصغير: إسكندر؟ أيضمن له عرش أرمينية؟ وماذا يصنع؟ لا يزال ملك أرمينية أسيراً في مصر بعد أن حقنت الملكة دمه على أثر نصر أنطونيوس مكافأة له على تحديه الشعري، فليتقطع رأسه الىن وليرسل إلى ملك مادياً فلا يخشي هذا الملك إعادة الشاعر إلى عرشه نتيجة نصر قد يناله أكتافيوس.

وما خطب هيردوس؟ كان قد أوفي على الغاية في إظهار فروسيته حينما مرت من بلده، ولكن مع علمها أنه آئتمر بها لقتلها، ومن يرسل إليه؟ لقد اختارات ألكساس الذي هو موضع ثقتها الذي انتفعت به في صلاتها بانطونيوس،

ويمضي وقت فلا ينتهي إليها نبأ، كما أنها لا تتلقي خبراً من رسلها إلى أمراء البحر المتوسط، لما يرون من انضمامهم إلى الغالب في أكسيوم.

وإذا ما أعوزها الجنود وجب ألا يعوزها المال فلتملأ الخزينة حتى تفيض بعد أن استنزفها الرومان! ويبدأ بقتل الأغنياء أخا لنقودهم، ويشرع في سلب المعابد القديمة صهراً لنذورها، ولكن ماذا تصنع بهذا المال وبنفسها إذا جاء الرومان؟ وأين يذهب الأولاد قبل كل شيء؟ تفكر كليوباترة في الشمال الغربي وفي الجنوب الشرقي معاً، فترسل رسلاً إلى إسبانية وإلي بلاد الغول لتعلم هل يوجد فيهما أعداء لأكتافيوس فتسلحهم وتمدهم بالمال، وترسل بعض أسطولها من ببلوزة إلى برزخ السويس حيث تنقل المراكب إلى البحر الأحمر على العربات، وذلك وفق ما كان قيصر قد أشار به في قصر عائم على النيل، وتوفق لنقل المركب الأول، بيد أن القائد الروماني ديديوس الذي انحاز إلى أكتافيوس كغيره، أثار حقد الغرب عليها فنبهوا السفن الأخرى وحرقوها.

ولا تدعن، وكيف تنقذ الأولاد؟ لقد بحثت عن طريقي القوافل إلى البحر الأحمر، وذلك لأن الهند التي روى لها كثير من عجائبها منذ دور الصبا التي لها علائق تجارية بها قد تكون من البعد ما لا تصل معه يد العدو إلى قيصرون فيها! والعالم واسع! ولم القنوط؟ أو لا يوجد لأكتافيوس أعداء كثيرون؟ أولا يمكن أن يكون له مثل نصيب قيصر فيقتل في مكان ما؟ وتتناضل كليوباترة بنشاط كما كانت عليه في العشرين من عمرها.

١٠

كان أنطونيوس رجلاً مكسوراً، وكان قد أبحر، بعد عود الأسطول، إلى ميناء باريتونيوم الصغير الواقع غرب الإسكندرية مع صديقين وحرس قليل، وذلك خوفاً من الناس وبعداً من الأبصار واجتنابا للعاصمة، ولم يرتب، في مثل هذه الحال، من تطليق كليوباترة إياه مسرورة، فهي تعرف ما أصيب به من انحطاط نتيجة ليالي الانهماك في السكر، وهو قد وقع التي في نوبة أسوأ مائه مرة مما كان يقع فيه عادة، وهنالك يجلس على الشاطئ كئيبا، مع أنه لا يزال سيداً لأقوى جيش على الأرض مولي لنصف الإمبراطورية الرومانية، ضالاً تائه النظر في الفضاء جاهلاً السبيل التي يخرج بها من وضعه، بادياً بين عالم البيان اليوناني أستوقراطيس الذي خاطبه بأمثله تاريخية حول تقلب الحظ، وصديقه لوسيليوس الذي زعم في فليبي أنه بروتوس المغلوب، ثم عفى عنه وأنعم عليه فظل صاحباً وفيا منذ اثنتني عشرة سنة.

وتأتيه أخبار من وراء البحر ذات يوم بان بقية جيشه في بلاد اليونان قد انضمت إلى أكتافيوس فيعزم على قتل نفسه، وهنالك يأتيه لوسيليوس ويذكره بمعركة فليبي وكيف أنه كسبها وحده وكيف أن حليفه النل أكتافيوس اختفى بين الحلفاء، ولا أحد كصديق بروتوس القديم ذلك يقدر على إثاره ذكرى هذا النصر فيوقظ انطونيوس القانط.

ويعقد أنطونيوس نيته على العود إلى الإسكندرية، ويدنو من هذه العاصمة مع صديقيه، وتستحوذ عليه روح الممثل الهزلي وكيف يظهر للإسكندريين؟ وكيف يقترب من زوجه التي تعده من الموتى كما يلوح بدلاً من أن تركع طالبة عفوه؟ أو لم تقلب الأدوار رأسا على عقب؟ ومن هو الغاوي؟ ومن هو المغوي؟ لقد بدا له أنها ظهرت للناس بريئة ظافرة عن مكر مع انه يتألف منها الفريق المذنب! وهو لم يبصر أن جميع سر كليوباترة يقوم على التأثير، وأما هو فعليه أن يأتي أمراً أعظم من العمل، عليه أن ينفلسف، ولكن على أن يعلم العالم ذلك، ولكن على أن ترى الإسكندرية كيف يتفلسف أنطونيوس.

وكان الرصيف الطويل في غرب الجزيرة المقابله لقصر يؤدي إلى البحر حتى شبه جزيرة ضيقة يقوم عليها مغنى [1] قديم للبطالكة، ويعد هذا المغني للسكن سريعاً، وينتقل القائد المتألم إليه لقيم به مع صديقيه، ويطلق عليه اسم التيمونوم تخليداً لذكرى مبغض البشر اليوناني تيمون، ويجلس هنالك في ظل المنار ونوره مناوبة فيكون موضع فضول أهل الإسكندرية وعرضه لنكتهم الخبيثة، ويرى زوارقهم تطوف حول شبه جزيرته، فإذا ما وقع نظر غريب عليه عند قعوده للمطالعة في النافذة قطب وسدل الستائر زيادة في المأساة.

ولم يحدث أن كان هذا الرجل، الذي هو أكثر الناس قرباً من الفطرة، أشد غماً مما في ذلك الدور الذي حاول فيه أن يشفي من يأسه الخاص بالمهازي بدلاً من الأعمال، وذلك لان أنطونيوس ظل هاوياً انيساً تحت ألف زي مخالف للصواب عن سير يميله الهوي، فلا يمكن إلا أن تحبط روايته إذا ما تنكر بلا

---

(1) VILLA

هوى، وهكذا جلس هنالك وأخذ يقرأ كتب أفلاطون التي لم يفتحها منذ أيام طلبه في أثينة، ويحاول أن يبصر نفسه في الأساطير الأولى في قصه تيمون الذي التمس من أهل أثينة أن يسارعوا إلى شنق أنفسهم في شجرة تينه قبل أن يقطعها، أو الذي عانق ألكبيادس مع قوله لصديقه أبيمانتوس: "إن هذا الشاب سيجلب المصائب إلى أثينة ذات يوم!".

وذلك لأن أنطونيوس يحاول الآن أن يطفئ في حقده على رومة حبه المكبوت لها، ومن المحتمل أن يكون هذا هو الذي حفز بعد أسابيع قليلة، تيمون المنتحل إلى ترك عزلته والرجوع إلى القصر، ومن المحتمل، أيضاً، أن يكون الدافع إليه هو السأم وحب الخمر والميل إلى الصخب.

وتسلك كليوباترة سبيل الذوق فتسكت ضحك الناس الخفي بإقامتها "حفلة فرح وراح" تجمع في جوها بين الرجل الهابط وتقد الإسكندريين، ويبلغ قيصر ين الرشد في السابع عشر من عمره، وهي إذا ماتت قبض على جميع السلطات، وكان عندها، منذ معركة أكسيوم أنتيلوس بن أنطونيوس من فولفيه، ويعلن آئنذ رشده ابناً للسادسة عشرة من سنيه إرضاء لأبيه وتضليلا له مع عدم منحه إياه سلطة كانت، وهكذا تسعى كليوباترة في تجديد سياسة الدولة وإنعاش الرأس العام وشفاء عقل زوجها الذي يمكن تحويل سباته إلى نشاط بشيء من الحث والنخس.

وتقام ولائم كثيرة ابتهاجاً بإعلان الحادث، وتتيح كليوباترة لأهل الإسكندرية فرصة الهتاف لانطونيوس، لأبي أحد الفتيين اللذين نالاً حلة الرجولة، لبعل الملكة زيادة على ذلك، وتصنع له كل ما تستطيع، فتنظم احتفالات عيظمة يوم ميلاده، لا يوم ميلادها، حتى إنها أذنت له في مداعبة الموت على شاكلته

تجديداً لأعياد عهد ديونيزوس مع إلباسها ما ينص عليه المرسوم الخامس من جلال، حتى إنها هيأت له نهزة تحويل "نادي المتفردين" إلى "نادي تحدي الموت"، وهذا ما وفق به بين الفاجعة وملاذ المائدة.

ومن المحتمل أن الملكة ابتسمت، ولكنها دعته يفعل، ولم يحرم التي رجوعه إلى الحياة؟ أجل، إنها كانت تحبه، ولولا تفكيرها في قيصر ما أحبت غيره، واليوم يلوح التوأمان، البالغان إحدى عشرة سنة، يافيعن تقريباً، أفلا يشعران بأن أمهما كانت قد وهبت نفسها لهذا الرجل بلا ضمان ولا رهان؟ هي لم تطالبه بالزواج، بهذا الزواج الذي يشترطه النساء الأخر سلفاً، إلا بعد سنين، إلا حين كان مصير مصر هو الثمن ولا مراء في أنها صرفته عن رومة، ولكنها كانت قائمه على هذه السياسة بفؤادها وبلدها، ولا ريب في أنها كانت تحبه، فلا تجد بين أشد مؤلفي القرون القديمة عداوة لها من كتب سطراً زعم فيه أنها أتخذت عاشقاً لها في أثناء حياتها الزوجية.

ولا يعد مقتة لها في بعض الأحيان، كما في الساعة التي سبقت اشتعال المعركة، داحضاً لحبة إياها، وكان شهاء، وكان قانعاً بزوجه من هذه الجهة تماماً، وكان هذا البادن البالغ من العمر خمسن عاماً، والموالف لرفيقة مجربة، واقعياً في الوضع الحاضر متعلقاً بزوجه التي تعرف التعب بعده هجرة نزهة الأفلاطونية لقلة ما ينال من الفلسفة على ما يظهر.

ومع ذلك فإنه لا يمضي وقت قليل حتى يكون للزوجين فرصة يثبتان فيها تحابهما إذا كان هذا التحاب واقعاً فعلاً.

وفي أحد الأيام يجيء هيرودس لزيارة الزوجين في الإسكندرية حاملاً أنباء مشؤومة، وطالبا أن يفاوض في عقد حلف ظاهراً ويعلمان منه ماذا يجلب

اكتافيوس معه من فرق قوية وعدد هائلة، وأنه نقل أسطوله بالعربات على برزخ كورنثوس في الوقت الذي كانت كليوباترة تحاول فيه نقل أسطولها على برزخ السويس.

ثم خلال هيرودس إلى أنطونيوس ونصحه بان يجعل مصر ولاية رومانية فيكسب قلب كل ورماني، وهنالك يحمل أكتافيوس على إعلان حكومة ثلاثية ثانية، وما عليه إلا أن يقتل الملكة وصولاً إلى هذا.

وهيرودوس هو الذي لم يمتنع عن قتل الملكة في وادي الأردن إلا خوفا، ومن المحتمل ألا يكون عيون كليوباترة قد سمعوا تسارهما في هذه المرة، ولا ريب في رفض أنطونيوس ذلك، وقد كان أنطونيوس من كمال الإخلاص لزوجه ما سافر معه هيرودس رأسا، وإلي رودوس كان أكتافيوس قد نزل، وحييه، ويقدم إليه هدابا من ذهب، يوبلغه ماذا سمع من أنطونيوس، ويكافئه أكتافيوس بحفظ مملكته.

ويعود أنطونيوس إلى إقدامه نتيجة تحدي الخائن وينغمر بغتة في الاستعداد هو والملكة وولي العهد، وقد كان يوجد في سورية وآسية الصغرى إحدى عشرة فرقة عاطلة من الضباط تقريباً مستعدة لتكون قبضة من يجزل لها الأجر أكثر من سواء أو يمكن أن يؤدي إليها أكثر مما يؤدي أكتافيوس؟ ينطلق أنطونيوس لإغواء هذه الكتائب ولو عارضه ضباضطها المرؤوسون، ويظهر أن عليه قهر قائده الخاص غلوس قبل كل شيء، ويدنو من فرقه القديمة، ويصبح قادراً على الخطابة فيها، غير أن غلوس أمر بالنفخ في الأبواق خنقاً لصوته، وهكذا يصاب أنطونيوس المسن بنكسة كالتي أصابته في شبابه بفعل ليبدوس.

وهنالك يذكر بضعة آلاف من المقاتله كان قد تركها في سورية بعد أن ألف منها فرقة ودربها توقف في الطريق من قبل قائد آخر له، من قبل ديويوس الذي كان قد سلم أسطول الملكة إلى العرب، ويذهب كل ذلك أدراج الرياح، فقد دنا أكتافيوس من البلد، وعاد أنطونيوس، ووجب تحصين الإسكندرية وهنالك يقع ما هو هائل بين كليوباترة وبأنها، وذلك أنها تريد إنقاذه فتأمره بأن يغادر مصر حالاً، وهي تأمره بعينيها، وهي تغريه، بصوتها وهي تبذل سلطانها لديه ملكة، ولكن الشاب الذي توجه إليه أمرها تعود الحكم ملكاً بها ومن دونها في العاملين الأخيرين، وهي لم تسطع أن تتغلب على نفسه الفتية إلا بعد أن ابانت كل ما يمكن أن يضيع إذا ما بقي، ثم يأتي لمساعدتها أو الانتقام لها عاجلاً أو آجلاً، ولما ذهب أتبعته بكل ما يحتاج له في طريقه إلى الهند، أتبعته بسفن قليلة مشحونه بسلاح، ويذهب قبل كل شيء وعلى معلمه المسن أن يرافقه، مجاوزاً الصحراء حتى فقط الواقعة على النيل، فإلى مرفأ برنيقه الذي يمكنه أن يقوم منه برحلته الكبرى إلى الهند في السفن الذاهبة لتجارة معها، فإذا ما بلغ الهند وأصبح بين الشعوب التي عرفها المصريون تجارة أمكنة أن يجمع جنوداً وأن يرجع معها لإرهاب الرومان.

وما كان مثل هذا المشروع الخيالي، ليستقر بذهن كليوباترة وإنما كان ذريعة مبتدعة لإنقاذ الشاب وإبعادة، وقد أردك الشاب هذا لا ريب، فعارضه بمشروعه الخفي من غير أن ينطق بكلمة وإذا ما انهار كل شيء بمسر فماذا ينقذ فيها؟ ولكنه إذا ما ظل حيا حل يوم يقود فيه حزبا رومانيا ضد أكتافيوس ما دام ابناً لقيصر، وما عليه أن يحاوله من مغامرة أعظم من صراع حاسم ميئوس منه.

ويجب أن يقع فرار الملك سراً، ويذهب قيصر متنكراً ولما أوغلت كوكبة الفرسان في الصحراء ليلاً وابتعدت مع قيصر عن أبواب المدينة أيقنت كليوباترة أنها لن تراه، فدعت الآلهة أن تنقذ شاهد حلمها الأعظم هذا! وتشعر بختام روايتها الخاصة، ويمكنها، فقط، أن تموت جميله زاهية كما عاشت.

١١

دخل أكتافيوس مصر شرقا من غير مقاومة تقريباً، واستولى على بيلوزة، وتذكر كليوباترة في قصرها شبابها، وكانت كليوباترة في القصر نفسه، في المدينة المحصنة التي يوجد روماني بجانبها أيضاً، ولكنه غير قيصر، وماذا يصنع! أقتال؟ لا يخطر ببال! اعمل شيئا ممكنا؟ كسب وقتا! أنت الصحيح أن رسولا من أكتافيوس على الطريق؟ ليأت!

ويصل الشريف الروماني تيرسوس، ويدخل عليها، ويقدم إليها تحيات أكتافيوس، وهو ما فتئ يحبها من بعيد! وسيترك لها ملك مصر وتاجها وأولادها! وإنما يود الخلاص من أنطونيوس! ثم ينتهي كل شيء في جو من السلام والسعادة! وتقول كليوباترة في نفسها: يا للحماقة! يا للغلظة! ثم لا يبقى له إلا أن يزحف إلى المدينة ليظهر منتقماً أنطونيوس فيهلكنا جميعاً! يا له من عامي يرثى له! يا للعار في تسمية باسم قيصر!

بيد أنها لم تقل جميع هذا اللرسول، كما أنها لم تقل له كلمة "كلا، "وإنما أبقيته في البلاط لتظفر منه، في ليالي مصر الطويلة، بأمور كثيرة سكت عنها، ويفاجأن معاً، فقد أكلت الغيرة قلب أنطونيوس من الرسول أو سيده، أو يفكر في الأزهار المسمومة بين شعر الملكة؟ دخل الغرفة بغتة، وضرب الروماني،

وطرده وأعطاه كتابا إلى أكتافيوس قال فيه إن تيرسوس بدا وقحاً، فإذا ما شعر أكتافيوس بأنه أهين أمكنه أن يشنق الرهين هيباخورس متى أراد!

وبما أنه لم يكن للملكة ما تعمله أو تناله من هذه الناحية فإنها غيرت أسلوبها من فورها وأمرت الروماني المرهب بأن يبلغ مولاه أن عليه أن يأتي ويستولي على المدينة إذا رأى رأس أنطونيوس! وبهذا الصراخ يعلم أنطونيوس أحبط المكيدة، ومن المحتمل أن يكون قد ضحك وقص على زوجه حكاية هيرودس وما اقترح حولها.

وحان وقت التأهب فتقلت كل ما تملك من ذهب وحلي وعاج ونسج وأقوية أجنبية، إلى ضريحها المصري المقبب الذي أقامته لإجدادها، منذ زمن، وفي شرق التل قريباً من القصر وعلى شاطئ البحر، وليكون قسماً من معبد إيزيس الذي كان معبداً لأفروديت أيضاً، وذلك لأنها كانت تحس تمثيلها هذين الدورين عندما شادته في سني سعادتها وعليها أن تبذل هنالك من الجهود في أيام ما كان آباؤها إلى تلك الحجرة المأتمية، فإذا ما وصل العدو أحرقت نفسها فيها مع جميع ما يسعى إليه من ثروات.

وكان ذلك في شهر يوليه، ولكنه كان يوجد في تلك الحجرة المظلمة العاطلة من النوافذ، والمشتملة على فتحة فوق قبتها، من الطراوة ما يكفي، ولا وقع أنه كان هنالك غرفتان، ولكن الباب كان من النظام ما أغلق معه ظل من يكون في الضريح حبيساً، ومن الذي يوقد النار من الفتحة؟ أو لا يمنعنون عبيدها من ذلك؟ لقد وافقت ماشطتاها الوفيتان على الموت معها جرقا، غير أنهما كانتا من الضعف ما لا توقدان معه لانار، وتسأل بلوتارك، ان سم الأفاعي أضمن وسيلة في مثل هذه الحال.

ولكن أى الأفاعي؟ لقد طلبت كليوباترة اجتماع ثلاث شروط في اللدغة: أن تكون غير أليمة، لأن تكون سريعة الفعل، ألا تكون مشوهة ويؤتي بمجرم إلى القصر وتستلقي على وسائدها، ويحمل المكبل على الجثث في وسط الغرفة، ويطلق عبد حية عليه فيموت متألما متشنجأ، ولا يرضى بهذه الحية، ويؤتي بمجرم آخر في الغد، ويكرر العمل بحية من نوع آخر، وتدنو الملكة من المختصر في هذه المرة لتعرف ماذا يحس، ويظهر وقوع موته بلا ألم، ولكن مع دوام حياته ساعة، وأخيراً يوجد النوع المطلوب، فقد سقط الرجل نائماً بعد أن لدغ، ولم يبد الرجل حراًكا، ويعلو ملامحه صفا، فلما نادته الملكة باسمه مدينة شفتيها من أذنه أبدي المختصر حركة خفيفة كما لو كان راغباً من أن يزعجه أحد في رقاده، وهذه هي الحية التى تبحث الملكة عنها، وتتخذ كليوباترة من التدابير ما تراه ملائما.

وإذا ما ألقت الملكة نظرة على تاريخ عصرها وجدت أمثلة كبيرة على الانتحار، والرومان كانوا يقتلون أنفسهم عند أقصي الخطر، والرومان كانوا يعتقدون أن الرومان وحده هو الذي يتصف بقوة النفس هذه، ومن ذلك أن أربعة أو خمسة من قتلة قيصر انتحروا بانتمائهم على سيوفهم، ومن ذلك ما عملته من كون كانون الذي قهره قيصر اضطجع على فراشه ذات ليلة مطالعا وحده كتاب فإذن لأفلاطون، ثم طعن صدره بالخنجر، ومن ذلك ما يعلمه كل واحد من الكلمات الكريمة لآرية التي طعنت نفسها بخنجر حينما حكم على زوجها بالموت فأمسكت يده وقالت به باسمة: "تري باتوس، أن هذا لا يؤلم أبداً" بيد أن أبلغ الأثر كان لما تذكره منذ صباها عن انتحار عمها رافضاً العار وتستعد كليوباترة لثبت أنه لا ضرورة لرومانية الإنسان حتى ينتحر، ولكن مع عزمها على

النضال ما وجد أمل، وكذلك أنطونيوس لأن أكتافيوس برز أمام أبواب المدينة، ويعود إلى أنطونيوس شبابه، ويبدو زعيماً [1] للسيافة، واليوم يهزم فرسان أكتافيوس في ميدان السباق [2] كما كان قد قهره في إحدى المعارك سابقاً، التي يجد روح المحارب في نفسه، والتي يتهلل وجهه ويدخل على الملكة ثملاً، ويجدها مدججة بالسلاح على رواية بوتارك فيقبلها ويقدم إليها ضابطاً أبلى في الحرب بلاء حسناً، وتبتسم ويشرق وجهها أيضاً، وتنعم على الضابط بدرع ذهبية، ويفر الضابط إلى العدو في تلك الليلة!

ويضرب العدو أسوار المدينة من الأسفل والأعلى فيسمع مثل هزيم الرعد، ويضطرب الجمهور ولا يزال بعضه يقاتل، ويطلب آخرون الأمان، ويشتد حر يوليه، وياتي في كل دقيقة خبر خيانة رجل، وتتوارد أنباء السوء، ويشعر كل من أنطونيوس وكليوباترة بأن المدينة ستسقط غداً، ويدعو أنطونيوس عدوه إلى المبارزة، ويجيب أكتافيوس عن ذلك، ماجناً، بان على أنطونيوس أن يبحث عن وسائل أخرى للموت، ويجلس أنطونيوس مع أصحابة حول المائدة مساء لتعاطي الأقداح، ويقول إنه يطلب الموت، لا النصر، في اليوم التالي، "فسيكون لكم سيدا جديدا غداً".

وفي تلك الليلة يظن كثير من أهل الأسكندرية أنهم يسمعون أصواتا وأنغاماً من موكب شارب غير منظور خارج المدينة راقص في معسكر العدو.

وكان أنطونيوس راغباً في القتال برا وبحراً، ولكنه يشعر في الغد بأنه غدر به من الجهتين، فيبينما كان يرقب الأمور من تل صغير إذ يرى المراكب التي أرسلها

---

[1] GOLONEL

[2] Hippodronme

لتقاتل أسطول أكتافيوس خارج الميناء تحيي العدو بمقاذيفها فيرد العدو التحية بمثلها، ويتآخى الجميع، ويلاقي الرومان روماناً، ولما ساق أنطونيوس فرسانه من باب المدينة الشرقي لمقاتلة فرسان أكتافيوس الآن انضموا إلى هؤلاء على مرأى منه، ويخور كثور جريح، ويعود إلى القصر من بين الجمهور الفار، ويتبعه جنديان أو ثلاثة جنود، ويكسر الباب، ويصرخ قائلاً: "يا للخيانة! لقد خائني! لقد عاهدت العدو!". غير أن أحد السعاة يدنو منه، ويبلغه نبأ موت الملكة.

١٢

هي لم تمت ولكنها اعتقدت عدم استطاعه أحد أن يصل إليها في ضريحها، وتهرع ساعة التسليم إلى الضريح مع جاريتها وينزل النسوة الثلاث بابه الثقيل بحبال، ويكن وحدهن أمام خزينة البطالمة والآن تتصرف كليوباترة بخنجر على الأقل، وما كان ليقدر على الدخول أحد، ولما تمضي ساعة حتى كانت رسالتها قد دفعت إلى أنطونيوس.

ولم يشاهد أنطونيوس أحداً في القصر، فقد انحاز جميع الخدم إلى الغالب، ولم يكن عنده خنجر، ولم يكن لديه غير سيفه، ومما كان يعلمه الرومان وقد الموت أن من الصعب ارتماء إنسان على سيف طويل بلا مساعدة، بيد أنه كان مع أنطونيوس حامل ترسه وهو الغلام الذي طلب منه أن يقتله حين الارتداد إلى نهر الرس [1] إذا ما أمره، واسم حامل الترس إيزوس، ويلائم أنطونيوس أن يقتل بيد إيروس، ولم يجرؤ إيروس على الطعن، وينثني إيروس ويقتل نفسه بسيف سيده، ويشتد أنطونيوس آئنذ فيرتمي على سيفه ويسقط من غير أن يموت، وينادي من يجهز عليه.

---

[1] نهر بأرمينية.

ويحضر بعض العبيد، ويجدونه، ويدلونه على مخبأ الملكة، ويخبرونه بأنها لا تزال حية، ويأمرهم بصوت خافت أن يحملوه إليها، ويمتثلون الأمر، ويقرعون، ويعطون كلمة السر، وتجد كليوباترة التي لم تقنط قط، وسيلة آئنذ، وتطلب من خدمها نصب المراقي حتى منفذ السقف، ويكاد صوتها يغرق بصدى الضريح المغلق، وينزل المختصر إلى الضريح بنقالة معلقة.

وهل تلك أسطورة؟ تلك أمور يقصها مفصلاً الطبيب ألنبس الذي كان آخر من رأوا كليوباترة، ولا يوجد ما هو أصدق منها، وماذا طلب أنطونيوس المختصر؟ طلب خمراً على حين كانت الملكة تئن هي ومن معها، ويعود إليه بعض قوته هنية فينصحها بألا تعتمد على إنسان ممن حول أكتافيوس خلا بروكوليوس، ويتجلى أنطونيوس وفق ما تقتضيه الحياة بما وصفه به بلوتارك قائلاً آخر كلمات له:

"لا تبكي خاتمتي، تمثلي أسعد الأيام حينما كنت أقوى رجل في العالم، أجل، إنني غلبت رومانيا ولكن مع الشرف ولكن من قبل روماني"!

ولم يكد يلفظ أنفاسه الأخيره حتى ظهر رأس، بروكوليوس ذلك في أعلى السلم، ويبلغ الملكة احترام أكتافيوس وتحياته وأنه لا يوجد ما تخشاه، فلن يصيبها أذى.

وتقول إنها لا تفتح إلا إذا وعدها أكتافيوس بأن يكون عرش مصر ليقصر، ولا منظر أقرب إلى المهازي من هذا عند التفكير في بهلوانية المفاوضة، ويضع الرومان حدا لهذا الأمر، وينزلون بالحبال التي تحت القبة ويرفعون الباب الغائر، ويتحول الضريح إلى معبد يستطيع كل إنسان أن يدخله.

ويقع جميع ذلك بأسرع مما كانت كليوباترة تنتظر، ومن ذا الذي ياتيها بالحية الآن؟ لا يزال خنجرها لها، وهي تقبض عليه ويمسك الروماني ذراعها، وتفقد المترجله سلاحها من أفضلة ويدخل الغرفة رجل ثان وثالث، ويطلبان إعانها وتقف في وسطهم، وتكون بي زوجها الميت وزامراتين باكيتين مستقليتين على الأرض، والآن يامر الضابط بان يروا هل تخفي سلاحها، ويا للهول! ثلاثة من العوام يمشون ثيابها، ويلمسون بدنها بإيديهم القذرة من غير أن يعرف أحد ما يبيحهون لأنفسهم من حرية التحري، وتظل واقفة هنالك رافعة ذراعيها فوق رأسها قهرا، وكان هذا هو الهوان الوحيد في حياة كليوباترة كلها.

١٣

يروي أنه لما أتى برأس بونبي الدمي إلى قيصر بكى قيصر وصمت، وفي مثل هذه الحال يأمر أكتافيوس بإحضار أصدقائه وضباطه ويفتح إضباره [1] لا تفارقه مطلقاً ويتلو عليهم بضع كتب وهكذا يدل الناس على أحسنهما، ثم تذرف عيناه "بضع عبرات"، ثم يرسل بروكوليوس حالا ليجيئه بكليوباترة حية، من تقييد الملكة بمجده "على رواية بلوتارك".

ويدخل أكتافيوس الإكسندرية بعد الظهر، ويسجد أمامه ألوف من الناس الذين رأوا قيصر وكليوباترة يدخلانها منذ ثماني عشرة سنة، وكان أولئك الناس، منذ عامين، يشاهدون هنالك أنطونيوس الذي صار ديونيزوس، بجانب الإلهة إيزيس والتي يضجعان في ضريجهما، يضجع ميتاً، وتضجع أسيره مهانة، غير أن الحاسبين أمهر من النار بين دوماً، ويأمر أكتافيوس الناس بالنهوض، ويقول إنهم لن يمشوا بسوء، وذلك لأن المدينة مدينة الإسكندر ولأنه يوجد بجانبه فليسوف عظيم، يوجد بجانبه أريوس الرواقي الذي كتب له خطبته باليونانية، ويقتدي أكتافيوس بقيصر فيتوجه الموكب إلى ضريخ الإسكندر، ويأمر أكتافيوس بفتحه، ويسيء مس جثمان الرجل العظيم بدلاً من التكريم فتبقى قطعه من أنفه في يديه، ويذعر فيرغب عن زيارة أجسام البطالمة المحنطة.

---

[1] الإضبارة: الحزمة من الصحف.

وتترد كليوباترة هنيئه، تتردد ثلاثة أيام على ما يحتمل، وتبدو مستعده للتضحية بكل شئ خلا أمر، إذا أمكن حفظ البلد لأولادها! مستعدة للتضحية بكل شيء، خلا أمر، إذا أمكن حفظ البلد لأولادها! ولكنها إذا استيقنت ما كان حدساص عندها، من مخادعه أكتافيوس إياها جرا لها إلى رومة وعرضاً لها على الجمهمر مقيدة في موكب نصرع، عرفت ماذا تصنع، وتتوالى الرسل مؤكدين لها أنها ستقابل ملكة، وتظل حيث هي عن ارتياب من أكتافيوس، ويأتيها رسول آخر ليبلغها مخدرا أن أكتافيوس يقتل توأميها إذا ما قتلت نفسها وتصاب بالحمى عن غم وكرب وجوع وخوف وحر، ولا أحد يعلم ماذا كانت توافق عليه في حالة الضعف تلك إنقاذاً لأولادها ولا مدى تصديقها ذلك الرجل الذي تمقته، غير أن سحرها ينفعها في آخر لحظة، غير أن جمالها الذي عاشت به يأتي لخدمتها.

وذلك أن الضابط الشاب دلابلا كان يعجب بكليوباترة الحسناء من بعيد، وإن لم يرها قط، فيعزم على التزام جانبها ما فقد من يقوم بهذا الدور، وبما أنه كان بين شعراء أكتافيوس فإنه كان يعرف نية هذا الأخير، يعرف أنه يقصد الإبحار بعد ثلاثة يام مع أخذه الملكة وأولادها الثلاثة معه إلى رومة، ويخاطر بحياته ويجد وسيلة لزيارة الملكة في الضريخ ومقابلتها بعيداً من أعين الحرس، ويسر إليها بما يعلم، وقد كان آخر عابد لكليوباترة، وكانت آخر مغامرة لها.

والآن تعرف كل ما تحتاج إلى معرفته، والآن تتمثل أرسينوية مكبله خافضة البصر أما حصن الغالب الأربعة سائرة إلى الكابيتول موضعا لسرورها انتقاماً، والتي تبصر مائة ألف روماني ناظرين إليها في موكب النصر عوام قذرين بمقوتين كالذين مسوا بدنها حديثاً أجل، ممقوتين لديها، ولكن دون ذلك الذي يكون

على العربة مبتهجا بانتقامه منها! وقد اتخذت قرارها، وقد عاد إليها ذكاؤها وكل شيء يتوقف على مخادعة أكتافيوس وجعله يعتقد أنها تريد الحياة.

وترسل إليه كتاباً ترجو فيه السماح بأن يكون دفن أنطونيوس ملكياً فيوافق على ذلك، ومع أن تلك المرأة كانت لا تستطيع غير الصمت بجانب ضريحه قامت بتمثيل دور كبير أمام الحضور لينقلوا إلى أكتافيسو قولها بصوت فاجع: "أى أنطوني! أى أنطوني! كانت يداي طليقتين منذ وقت قصير! لقد فرق الموت بيننا! أنت روماني ترقد في أرض مصرية! وأنا ذاهبة لأموت في بلدك! ويا.. توسل إلى آلهة الجحيم ما تركتني الآلهة الأخرى! اضرع إليها أن تحول دون وجودي في موكب نصر يكون عاراً عليك!".

وتخبر في الغد، بأن الغالب سيزورها في الضريح، وليس عندها من القوة ما تنهض به، وليس عندها من الميل ما تزين به، لاستقباله، وتظل على فراشها، حاسرة لابسة قميصا طويلاً ضني [1] غماً وبكاء، ويدخل أكتافيوس عليها خافض الرأس مؤدباً، ثم يتفرس فيها بعين عدو فاترة ثاقبة! وما كانت عيناها لتبصر فيه غير قيصر العدو لقيصر! وما كانت عيناه لتبصر فيها أثراً لفتونها المشهور!.

والين يجب عليها أن تقوم بتمثيل دورها حتى النهاية ماهرة، والين يجب عليها أن تقنع أكتافيوس بأنها تريد الحياة وتحبها كسباً للوقت وظفراً بنجي ونيلاً لصل [2]، وماذا كان صنع أولئك الذين يضرعون إلى الملكة القوية فوزاً بلطف منها؟ كانوا يرتمون على قدميها، وتنهض كليوباترة من فراش مرضها، وترتمي على قدمي الروماني لابسة قميصها فقط، وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي صنعت

---

[1] ضني: مرض فتمكن منه الضعف والهزال فهو ضني، يستوي فيه المذكر والمؤنث والجمع.

[2] الصل : الحية الخبيثة جدا.

فيها هذا، وينصحها مجاملاً بأن تعتمد على حلمه، وكانت تلعم ماذا يريد فأرسلت من يأتيها بقائمة كنوزها، وكان أمر هذه الكنوز يهمه أكثر مما يهمه أمر الملكة، فقرأ القائمة مكترثاً، وإنه لكذلك إذ يجهر وكيل خرجها بأن الجدول ناقص فيضحك أكتافيوس، ومهما يكن من أمر فقد أرادت أن تثبت حيوتها، فهوت على الخولي [1] ونتفت شعره ولم تتركه إلا بعد أن سقطت على فراشها منهوكة.

وقد صرخت قائلة: "يا للفضيحة احترامه لها، وينحني، وينصرف، يطمئن إلى نصره، أو لم ترغب في الحياة بأى ثمن كان؟

وتنال قليلاً من الحرية، ولو لم تساعدها جاريتاها لوجدت العون في الطبيب، وفي اليوم التالي يبدو فلاح، أو رجل يلوح للحرس أنه فلاح، حاملاً سلة تين لملكتة المريضة، ولما فحص الحرس السلة أراهم التين الذي فوقها، لا الصل الذي في أسفلها، وتمع كليوباترة ذهنها عند رؤية سلة الفاكهة، وتعد لها حماما، وتزينها جاريتاها بالحلي التي كانت تلبسها في جميع ولائم الدولة، وتضعان على رأسها تاج مصر المضاعف، ويرتب لها طعام فاخر وخمر سائغة، ثم كتبت إلى أكتافيوس تطلب منه أن تدفن بجانب أنطونيوس.

ولابد من أن يكون آخر أفكارها حول قيصرون، وهي تعلم أنه في ميناء أمين مستخفياً في طيرقه إلى الهند، وكيف يمكن أن يخيب وهو جامع لروح قيصر وروح الملكة؟ وإن صورة قيصرون لفي فؤادها إذ تطلب الأفعى.

ويقرأ أكتافيوس الرسالة فيريد أن يهرع إلى الضريح، ثم يذكر مقامة فيرسل أبطأ ويجد الضابط الحرس ساكنا، ويدخل فيرى الملكة خامدة مغتمرة بتاج

---

[1] الحولي: وكيل الحرج.

البطالمة ذات جلال ملكي، ويرى إحدى الجاريتين ميتة ويرى الأخرى مختصرة، فيقول بصوت عال:

"جميلاً ما صنعتن!"

وتقول الجارية:

"حسنا ما صنعنا، فهي سليلة ملوك!".

ويسمح أكتافيوس لأهل الإسكندرية بأن يكون دفنها ملكياً بجدانب أنطونيوس، ولكنه لم يحضر المأتم.

ولا يخطر به غير أمر، غير إخراج كنوز البطالمة من السراديب، وإرسال جميع الذهب والجواهر إلى سفينته، وياليت جده المرابي يبعث فيير هذا المنظر! يستطيع أكتافيوس أن يدفع رواتب إلى جميع الكتائب!

وتصير مصر ولاية رومانية، وهذا أعظم فتح ثم لرومة بعد سقوط قرطاجة منذ ١٧٠ سنة، ويؤخذ الأولاد الثلاثة إلى رومة حيث تتوم أخت أكتافيوس بترتيبهم مع النخرين، ويبلغ من تربيهم كتافية بعناية سبعة أولاد لأنطونيوس من ثلاث زوجات له. ولكن أين قيصرون؟ أجل، يمكن أكتافيوس أن يستغني عن وجود كليوباترة في موكب نصره ما دامت قد ماتت، وأما الفتى الوحيد الذي لا يزال حيا قادراً على منازعته السلطان فيجب أن يزول، ما فتئ عمال أكتافيوس، منذ دخوله الإسكندرية، يبحثون عنه في كل ناحية مدفوعين بأكثر الوعود إغراء، مدفوعين بوعود تهب أجنحة، وهل من العجيب، إذن عليهم أن يجدوه في نهاية الأمر؟ لا يزال ينتظر في برنيقة، ويؤكد له ضابط أنيس كون أكتافيوس يتقلبه بقبول حسن، وكل ما يريده أكتافيوس هو أن يعترف بقيصرون ملكاً لمصر ساذجاً أو

مؤتمراً؟ فقد أقنع قيصرون بأن يتبع الروماني، ويعود قيصرون ويحيا ملكاً من قبل الأسطول في ميناء الإسكندرية.

وكان أكتافيوس راغباً في إلقاء المسؤولية على غيره دوماً فيسأل الفليسوف أريوس في القصر: هل يحق له أن يقتل قيصرون؟ ويعر أريوس ما هو مدين به لمولاه الجديد فيجيب عن ذلك بقول أوميرس الساخر: "ليس من الخير وجود قياصرة كثيرين".

ويعطي أكتافيوس الإشارة، ويخنق الشاب، قتله مأجورون قبل أن يطأ أرض مملكته، وهكذا يهلم موضع أكبر حلم كان يحلم به زوجان ملكيان تذكارا لأكثر الناس نفوذاً، وهكذا يهلم آخر ممثل للإسكندر كان الشائب قيصر قد أقلاه في رحم الملكة الفتاة ليهب له الدنيا.

والآن رتب كل شيء، وسيسافر أكتافيوس غداً، ويرى أن يصدر أمراً قبل أن يغادر البلاد، يرى ضرورة تحطيم جميع تماثيل كليوباترة وأنطونيوس.

وهنالك يظهر وجيه غني اسمه أرشيبوس ويرجو بقاء تماثيل الملكة قائمة، ويرى أكتافيوس ما بين عينيه، ويشير ذلك الإسكندري على عبيده فيأتون إلى الردهة حاملين عشرة أكياس محتوية ألف مناً من ذهب، فهذه هي اللغة التي كان يدركها سيد العالم، ويلقى قبولاً، ولا يحطم غير تماثيل انطونيو. وبيننا كان أكتافيوس مسافراً إلى وطنه بحراً في اليوم التالي رجع بصره إلى شواطئ مصر التي سلمت إليه ذهباً كثيراً، فراى تمثال آخر البطالمة البرونزي يلمع أمامه على تل لخياس وينعم النظر فيها، ولكنها لا تبصرهفقد كانت كليوباترة ترنو إلى ما وراء البحر، إلى جهة رومة.

التواريخ

ق. م		
١٠٠	:	ولادة قيصر.
٨٣	:	ولادة مركس أنطونيوس.
٧٠	:	ولادة فولفية.
٦٩	:	ولادة كليوباترة.
٦٦	:	ولادة أكتافية.
٦٣	:	ولادة أكتافيوس (قيصر أغسطس).
٥٩	:	اعتراف الرومان بأبي كليوباترة، بطليموس الزمار ملكاً لمصر.
٥٨	:	نصب عم كليوباترة، بطليموس، ملكاً لقبرس، خلعه، ستمه نفسه، طرد أبي كليوباترة وذهابه إلى رومة، نمصب ابنته برنيقه ملكة.
٥٥	:	رجوع أبي كليوباترة، إعدام برنيقه، أنطونيوس ضابط فرسان في الإسكندرية.
٥٢	:	موت أبي كليوباترة ارتقاء كليوباترة مع أخيها البالغ من العمر تسع سنين إلى العرش.
٤٩	:	إسقاط كليوباترة وطردها وبقاء أخيها ملكا وحده.
٤٨	:	اعتراف مجلس السنات بأخي كليوباترة، جمعها جيشاً، معركة فرسالوس، فرار بونبي إلى مصر وقتله فها، نزول سيد الإمبراطورية الرومانية قيصر إلى الإسكندرية حرب، قتل أخي كليوباترة.
٤٧	:	ملكة مصر: كليوباترة السابعة: خطبة أخيها الأصغر لها، ولادة ابن قيصر وكليوباترة قيصر بطليموس (قيصرون).

٤٤–٤٦ : كليوباترة وبأنها وأخوها في رومة مع قيصر.

٤٥ : قيصر في إسبانية.

٤٤ : قتل قيصر / رجوع كليوباترة إلى الإسكندرية.

٤٣ : تهديد كاسيوس لكليوباترة، حكومة أنطونيوس وأكتافيوس وليبيدوس الثلاثية الثانية.

٤٢ : معركة فليي، هزيمة قاتلي قيصر.

٤١ : كليوباترة تزور أنطونيوس في طرسوس، يقضي أنطونيوس الشتاء في الإسكندرية.

٤٠ : استدعاء أنطونيوس إلى إيطالية، موت زوجته فولفية، زواجه باكتافية، معاهدة برنديزي بين أركان الحكومة الثلاثية.

٣٦ : اجتماع أنطونيوس بكليوباترة، الحملة الفارسية.

٣٥ : هزيمة أنطونيوس اجتماعه بكليوباترة في أثناء رجوعه، ذهابه إلى الإسكندرية معها.

٣٤ : انتصار أنطونيوس في أرمينية، احتفاله / بنصره في الإسكندرية، ملكة الشرق الكبرى: كليوباترة، تتويج جميع أولادها.

٣٣ : أنطونيوس يتسلح ضد أكتافيوس / محالفة الماديين.

٣٢ : كليوباترة وأنطونيوس في أفسوس واثينة، أنطونيوس يطلق أكتافية رومة تشهر الحرب على مصر.

٣١ : معركة أكسيوم.

٣٠ : انتحار أنطونيوس وكليوباترة، قتل قيصرون.

ب.م

١٤ : موت الإمبراطور أكتافيوس أغسطس.